

أهمية دراسة السيرة النبوية

الكتاب: أهمية دراسة السيرة النبوية

الكاتب: د. برهان زريق

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة لورثة الكاتب

الكتاب صدر بعد وفاة الكاتب يرحمه الله

لذا لم يحظ بالتدقيق من قبله

يرجى موافاتنا بملاحظاتكم واقتراحاتكم

على البريد الإلكتروني:

Burhan_zraik@yahoo.com

موافقة وزارة الاعلام السورية على الطباعة

رقم/114637/تاريخ 2017/8/30

د. برهان زريق

أهمية دراسة السيرة النبوية

أعيش... لأكتب

الحاج الدكتور
مهنا زرجي



إن سيرة الرسول (ﷺ) «ولاشك» تشكل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ الإسلامي والعربي العظيم الذي هو معقد اعتزاز المسلمين والعرب.

ذلك أن الاهتمام بدراسة هذه السيرة، هو الذي أدى بالتداعي والاقتضاء إلى تدوين التاريخ وأحداثه.

ويمكن التأكيد أن العرب المسلمين وعوا التاريخ الجاهلي واتجهوا إلى تدوين أحداثه ورصدها على هدي الإسلام، وعلى ضوء المصلحة التاريخية الكبرى التي تمثلت في مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

إذا فالسيرة النبوية تشكل العجلة التي تدور بها وعليها حركة تدوين تاريخ العرب والمسلمين في الجزيرة العربية.

لقد امتلك العرب والمسلمون منهجاً علمياً دقيقاً لرصد الوقائع التاريخية وسيرها وغربلتها وتنقيحها وتمييز الغث فيها من السمين، وكان الفضل في تقدم هذا العلم للحاجة الملحة التي اقتضاها تدوين السيرة النبوية تدويناً مبرماً من كل شوب أو خلط أو تزيف.

ذلك أن الوجدان العلمي لهؤلاء العلماء أدرك أن فهم هذه السيرة هو المفتاح الأول لفهم كتاب الله.

والله سيحاسبهم حساباً عسيراً إن هم حادوا عن المنهج العلمي السليم، ولعمري هل من مسلم يحادد الله ويشاققه؟

وبالطبع فنحن نقصد بالمنهج العلمي هنا قواعد مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل الذي كان أساسه الأول خدمة السنة المطهرة التي لا بد أن تكون السيرة النبوية العامة قاعدة لها، ومن ثم، ومن باب التداعي والارتباط وظفت هذه الأدوات العلمية الدقيقة في مجال التاريخ.

وبمعنى أوضح، فكتابة السيرة كانت نقطة انطلاق لدراسة منهجية، وهي البوابة التي عبر منها هذا العلم للوصول إلى هذه الآفاق السليمة له.

ومما لاشك فيه أن دراسة حياة الرسول (ﷺ) ذات أهمية بالغة باعتبار أن هذه الحياة هي قرآن سلوكي وعملي وتطبيقي، وبذلك فالسيرة النبوية تعطينا صورة حية عن الإسلام نتذوق منها روحه ومقاصده وأهدافه، كما أنموذجاً لمثل أعلى نقندي ونحتذي به.

ودراسة هذه السيرة تجعلنا نحكم فيما إذا كان محمداً (ﷺ) مجرد رجل عظيم وعبقري استمد تصرفاته من نوره الخاص، أم من نور المشكاة السماوية.

زد على ذلك، فهذه السيرة مستودع كبير للثقافة والمعارف الإسلامية سواء ما تعلق منها بالعقيدة والأحكام الفقهية أم بالأخلاق العامة، أو مقومات الحياة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

لقد كان الرسول (ﷺ) حريصاً كل الحرص للربط الدقيق بين النظر والتطبيق، وهو ما عبرت عنه سيدتنا عائشة بقولها: ((لقد كانت أخلاقه القرآن...)).

وبذلك فالسيرة النبوية تعطينا صورة سليمة عن الإسلام في ماهيته وجوهره وحقيقته، صورة نتذوق منها روح الإسلام ومقاصده وأهدافه كما ترسم لنا أنموذجاً حياً لمثل أعلى نقندي ونحتذي به، ودراسة هذه السيرة تجعلنا نحكم «من خلال تصرفات الرسول والأحداث التي أحاطت به» فيما إذا كان محمد (ﷺ) مجرد رجل عظيم وعبقري أم هو نبي مرسل.

زد على ذلك، فهذه السيرة مستودع كبير آخر للثقافة والمعارف الإسلامية، سواء ما تعلق بالعبادة، أم بالأحكام الفقهية، أم بالأخلاق والتربية وبقواعد الحياة الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك.

فحياته عليه الصلاة والسلام نقدم لنا نماذج سامية عن الشاب المستقيم في سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه، كما تقدم النموذج الحي الرفيع عن الإنسان الداعي إلى الله بكل ذرة من نبضات قلبه... بالحكمة والموعظة الحسنة، كما تقدم النموذج الفذ عن رئيس الدولة الذي يسوس الأمور بكل حذق وحكمة بالغة، كما تبرز لنا صورة مثالية عن الزوج المثالي في حسن معاملته، والأب في حنو عاطفته، وأخيراً القائد الحربي الماهر والسياسي المحنك الصادق، ثم المسلم الجامع «في دقة وعدل» بين واجب التبتل لربه وواجب المعاشرة الفكهة اللطيفة مع أهله وصحبه.

ولا شك أن خير من يرسم لنا تلك الصورة الحسية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

الأحزاب/21.

سر اختيار الجزيرة العربية للبعثة النبوية

إن نظرة سريعة على الجزيرة العربية تجعلنا نؤكد أن هذه الجزيرة أحيطت بموانع طبيعية أشبه ما تكون بالدرقات التي صدت عنها أفواج الفاتحين، وجعلتها تنمو وتتطور ذاتياً وعميقاً ومديداً وإن كانت في الوقت نفسه كالمصفاة التي جعلت التأثيرات الخارجية ترشح إليها دون أن تقتلها .

فهذه الأرض التي بعث بها الرسول الأعظم (ﷺ) لم تكن لتفرقها دواعي الفساد والانحلال والإباحية والطغيان العسكري الذي كان سائداً لدى الروم والفرس، كما أن العرب لم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني الأمر الذي جعلهم فريسة للانحرافات والأساطير والأوهام .

لقد كانت صفحات قلوب أبناء الجزيرة المذكورة نقيه صافية، لم تلطخها الجهالات والدنئات، ولم تلوثها المذنيات المنحرفة، بل كانت أقرب إلى الفطرة السليمة وإلى الخصائص الإنسانية الحميدة والجوهر الإنساني الخالد كالوفاء والنجدة والكرم والعفة، ويؤكد في حديث أن: ﴿مَنْ لَّا مَرَوْءَ لَهُ لَّا دِينَ لَهُ﴾، وهذا ما يحدد الفارق بين الأمة العربية وغيرها من الأمم لجهة، أن الانحرافات التي

كانت سائدة فيها إنما كان مبعثها بساطة العيش في حين أن الأمم الأخرى كانت تتقلب في حمية الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر.

وعلى هذا الأساس فنحن لا نوافق "الدكتور البوطي" على مقولته المتضمنة ((أن العرب لم يكن لهم زاد ثقافي يخول لهم القيام بأية نهضة في نطاق الإصلاح الاجتماعي))¹، لا نوافقه على ذلك لسبب بسيط هو أن العرب لم يكن لديهم المزيد من الثقافة المادية، أما أسباب الثقافات الروحية والأدبية والفكرية فلم تكن لتعوزهم، وإلا كيف تفسر هذه الانطلاقة الكبرى على أرضهم، وهل انطلقت من الفراغ لاسيما أن الله سبحانه وتعالى يجري إرادته من خلال سنن الحياة وقوانينها الموضوعية، وأن الشرارة الإلهية فجرت برميل البارود، ولكن هذا البرميل كان موجوداً والإسلام نفخ روحه في قلوب العرب، فزادهم قوة على قوة، وإلا كيف نفسر شخصية خالد بن الوليد العسكرية ودهاء معاوية والمغيرة وعدل عمر وتبصره في أمور الدولة ألم يكن ذلك كامناً وموجوداً ومتوفراً، ثم جاء الإسلام كعملية صقل لتلك المواهب وتعبتها، وتفجيرها وتفعيلها في الطريق السليم.

إن أمية الرسول (ﷺ) التي يدلل بها الدكتور البوطي² بصفتها حجة لعدم إمكان نسبة هذا القرآن إليه، هذه الأمية ليست أمية ثقافية، وأن الرسول (ﷺ) كان يقود بنور الوحي، نور على نور، بل إن كثيراً من الأمور كان مردّها بشريته الصرف، وخاصة في المسائل السياسية والعسكرية، ولا يمكن بحال من الأحوال نعت هذا الإنسان العظيم بالأمية بالمعنى الموسع لهذه الكلمة، زد على ذلك فإن عظمة اللغة

¹ - د. محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية، دمشق، مطبعة الداوودي، 1989، ص 35.

² - المرجع السابق، ص 37.

العربية هي الأداة الفذة التي حملت هذه الرسالة لما تنفرد به من خصائص وسمات تؤهلها لاستيعاب عظمة وحجم هذه الرسالة الفذة.

نسبه الشريف (ﷺ)

هو "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مضر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزاعة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان"، قصي كان سيد مكة وياني مجدها ومنظم شؤونها، وهو الذي انتزع سيادة هذه المدينة من خزاعة، وجعلها لقريش بعد أن كانت هذه القبيلة متفرقة في بني كنانة، وقد ورث أعقابه عنه زعامته ووظائفه، كما اقتسموا به بعده، وصرفوا همهم إليها حيث آل هذا إلى أربعة من أشهر أولاده أمر رئاسة قوافل قريش إلى البلدان المجاورة، فكان لعبد شمس رئاسة القوافل الذاهبة إلى اليمن، ولنوفل رئاسة القوافل الذاهبة إلى فارس، وللمطلب رئاسة القوافل الذاهبة إلى الحبشة، ولهاشم رئاسة القوافل الذاهبة إلى بلاد الشام، وإلى هذا النشاط التجاري الواسع يعزوا المؤرخون غنى أولاد قصي والبجوحة التي كانوا ينعمون بها، مما لاشك فيه أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله بن إبراهيم خليل الله، وأن الله اختاره من أزكى القبائل وأفضل البطون وأطهر الأصلاب، التي لم يتسلل إليها أي شوب من أدران الجاهلية.

روى مسلم بسنده عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَكْدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى هَاشِمًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ﴾.

ولادته (ﷺ)

كان لعبد المطلب السيد في قومه عشرة أبناء وكان عبد الله واسطة العقد فيهم¹، زوجه أبوه من أمنة بنت وهب سيد بني زهرة، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وشرفاً، ولم يلبث عبد الله أن مات، وزوجته حامل برسول الله (ﷺ)، وقد رأت في الآثار والدلائل على أن لابنها هذا شأناً عظيماً².

لقد ولد الرسول (ﷺ) يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع الأول وبقي في كفالة جده عبد المطلب حتى توفي هذا الأخير في السنة الثالثة بعد الفيل³ وكذلك كانت وفاة والدته وله من العمر ثماني سنوات أو ست على روايات أخرى⁴.

¹ - أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعروف بـ ابن هشام: السيرة النبوية، 108/1.

² - عبد الملك بن هشام: السيرة النبوية لابن هشام، 158/1.

³ - محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 2 ص 277.

⁴ - سيرة ابن هشام القسم الأول ص 168.

رضاعته (ﷺ)

كان من عادة الطبقة العليا في المجتمع المكي أن ترسل أولادها تسترضعها في جو البادية النقي، وليكتسبوا فصاحة أهلها وسلامة نطقهم، وقد أرضع الرسول (ﷺ) بعد ولادته مباشرة مولاة أبي لهب "ثويبة"، وذلك لبضعة أيام قبل قدوم "حليمة"، وثويبة هذه كانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، كما أرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكانا أخويه في الرضاع¹، ولقد رفض الرسول (ﷺ) الزواج من ابنة عمه حمزة لأنها ابنة أخيه من الرضاعة²، أما مرضعة الرسول (ﷺ) المشهورة فهي حليمة السعدية من قبيلة سعد هزيم، ويذكر ابن اسحاق أنها خرجت من بلدها مع زوجها وولدها الصغير إلى مكة تلتمس الرضعاء، وذلك في سنة مجدية لم تبق لهم زرعاً ولا ضرعاً، وكانت حليمة واحدة من عشر نسوة من قومها قدمن مكة لنفس الغرض.

وقد عرض الطفل (محمد) على النسوة العشر فرفضنه جميعاً لأنهن علمن أن أباه متوفٍ، ولا خير يرجى من يتيم، ولم تحظَ حليمة بطفل غيره، وكرهت أن تعود دون رضيع فقبلته³.

وتتحدث المصادر التاريخية عن الرزق والخير الذي فاض عليها وعلى قومها بعد قدم الطفل إلى ربوعهم¹.

¹ - محمد بن سعد البصري الزهري المشهور بابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 2 ص 108.

² - المرجع السابق، ج 1 ص 109.

³ - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص 162.

وظل محمد (ﷺ) في كفالة حليلة مدة عامين حتى فطم، فعادت به إلى أمه، ولكن هذه طلبت من حليلة الرجوع به وإبقاءه في كفالتها خوفاً عليه من وباء مكة، هكذا عاد محمد (ﷺ) مع حليلة إلى أرض بني سعد بن بكر، وظل بينهم حتى بلغ الخامسة من عمره، حين أعادته حليلة وسلمته إلى جده².

ولقد تذكر الرسول (ﷺ) هذه الفترة من حياته، ونوه بما كان لها من فضل في تقويم لسانه، وإيضاح بيانه، قال: ﴿أَنَا أَعْرَيْكُمْ، أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ، وَلِسَانِي لِسَانُ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ﴾³، وكانت حليلة شديدة الرعاية للطفل، تخشى عليه الليل والنهار، والحر والبرد، وتخشى عليه الأحداث، وكانت تحبه حباً جماً، وترى من بركته ما يزيد لها تعلقاً وحرصاً عليه، بل كانت تعتقد أن الناس جميعاً يحسدونها عليه، ويريدون أن يختطفوه منها.

أفزعها ذات يوم الحر فخرجت تطلبه وقت الظهيرة فوجدته مع أخته "الشيماة" مقبلاً، فجعلت تلوم ابنتها فقالت أخته: ((لا تخرجي يا أمي، فوالله ما وجد أخي حرّاً، لقد وجدت غمامة تظله حيث ذهب، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت))⁴.

وظل الرسول (ﷺ) يحفظ لحليلة الجميل، وقد حضرت إليه يوماً شاكية حالها، فكلم لها خديجة، فمنحتها بغيراً وأربعين شاة⁵.

¹ - محمد بن سعد البصري الزهري المشهور بـ ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1 ص 110.

² - المرجع السابق، ج 1 ص 112.

³ - المرجع السابق، ج 1 ص 113.

⁴ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، القاهرة، دار المعارف، ط 4، 1977، ص 52.

⁵ - المرجع السابق، ص 52.

واستأذنت عليه مرة، وهو رسول الله، فأذن لها، فلما دخلت قام لها متهللاً، قائلاً: ﴿أمي امي!!..﴾ ثم بسط لها رداءه وأجلسها عليه، وأخذ يلاطفها، ومس صدرها مساً رقيقاً¹ وقصة استشفاع عمه في الرضاة لقبيلة هوازن، عقب معركة حنين مشهورة، حيث قبل الرسول هذه الشفاعة².

الدلائل والعبر

1- أفضلية نسبه (ﷺ):

روى الترمذي أنه (ﷺ) قام على المنبر فقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله، فقال: ﴿أنا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بِيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، وَخَيْرِهِمْ نَسَبًا﴾³.

ومما لا شك فيه أن هذه الأفضلية المعطاة للعرب أو لقريش ليس مردّها قيمة ذاتية، أي لمجرد كون العرب عرباً، أو قريش قريشاً، إذ القول بذلك يتعارض مع مبدأ السواسية في الإسلام الذي عبرت عنه الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص52.

² - المرجع السابق، ص53.

³ -- محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاک الترمذي: سنن الترمذي، كتاب المناقب،

أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات/12، كما أن ذلك يتعارض مع قوله (ﷺ): ﴿لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى...﴾ .

وبذلك فأفضلية العرب اختيار رسول الله عنهم إضافة إلى أن لغتهم لغة القرآن، ولغة القرآن هي لغة أهل الجنة، كما أثر عن الرسول (ﷺ).

أما أفضلية قريش فمردها السمة الحضارية التي تميزت بها هذه القبيلة عما سواها، والتي رشحتها إلى زعامة العرب، حيث أدان لها العرب لهذا السبب، الأمر الذي حدا للكثير من المؤرخين للقول بأن مكة تشبه المدينة الدولة في اليونان.

وهذا هو سر قوله (ﷺ): ﴿الإِمَارَةُ لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ﴾، أي لتقدمها، وليس لميزة ذاتية سرمدية فيها..

ولقد أشرنا سابقاً إلى بعض السمات الخلفية لعرب الجاهلية لكن ذلك ليس من سبيل الاستعلاء والاستكبار.

2- العبرة من ولادة الرسول (ﷺ) يتيماً:

لا مجال للشك، بأن ولادته (ﷺ) يتيماً، ليست أمراً طارئاً أو حدثاً عارضاً قررته الصدفة، بل عن وراء ذلك حكمة إلهية بالغة، تبطل أراجيف المرجفين، وتبكم كل قول يسعى لرد عظمة الرسول إلى التلقين والتوجيه في الصغر من قبل جهة خاصة.

فهذا اليتيم حصن الرسول (ﷺ) ضد كل تطلع وتشوف أو ارتباط بالزعامة والمجد الدنيوي، بل كانت طفولته، وفترة شبابه إنسانية لم تتحكم بها اعتبارات العائلة، أو غير ذلك من مؤثرات النفوذ والسلطات المادية.

ولقد أكد المؤرخون ورواة السيرة النبوية أن منازل حليلة السعدية عادت ممرعة خضراء بعد أن كانت مجدبة قاحلة، وهذا ليس بالشيء الغريب العجيب، مادمننا نؤمن بالله، وبأن الله أصدق على حليلة مكافأة لها، لأنها هي بدورها أصدق الحنان على الرسول (ﷺ) الذي سيرسله الله رحمة للعالمين، إنها إرهاصات النبوة.

3- رحلته إلى الشام وكده في سبيل الرزق:

عندما أكمل الرسول (ﷺ) الثانية عشرة من عمره، سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام في تجارة، ولما نزل الركب (بصرى) مرّوا على راهب هنالك يقال له "بحيرا"، وكان هذا عليماً بالإنجيل، وقد أبصر هذا الراهب الرسول (ﷺ)، فأخذ يتأمله ويكلّمه وقال له: ((ما هذا الغلام منك؟.. فقال له: ابني، فقال بحيرا: ما هو ابنك، ما ينبغي أن يكون أبوه حياً، فقال هو ابن أخي، قال: قتل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال بحيرا: صدقت، فارجع به إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، ليبغوه شراً، فإن لابن أخيك هذا، شأن عظيم))¹.

واشتغل الرسول (ﷺ) أيضاً برعي أغنام عمه، ثم رعى الأغنام لأهل مكة، حدثنا جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي نجني الكبات (ما ينضج من ثمر الأراك)، فقال: ﴿عَلَيْكُمْ بِالْأَسْوَدِ مِنْهُ فَإِنَّهُ أَطْيَبُهُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَجْنِيهِ إِذْ كُنْتُ أَرْعَى الْغَنَمَ، قُلْنَا: وَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ... وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا﴾، ولقد

¹ -سيرة ابن هشام، 180/1، محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك أو تاريخ الرسل والملوك المعروف بـ تاريخ الطبري، 287/2، وأحمد بن الحسين الخسروجردي الخراساني أبو بكر البيهقي في سنته.

تأكد ذلك أيضاً في قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿كُنْتُ أَرَعَى الْغَنَمَ عَلَى قَرَارِيطٍ لِّأَهْلِ مَكَّةَ﴾¹ .

ولله الحكمة البالغة، إذ جعل هذه المهنة، مهنة الأنبياء بيدؤون حياتهم بذلك، ثم يتبعونها برعاية الخلائق، ولقد حفظ الله رسوله كل ما قد ينحرف إليه من الشباب من مظاهر اللهو والعبث، وهذا ما أكده الرسول (ﷺ) عن نفسه بقوله: ﴿مَا هَمَّمْتُ، ثُمَّ هَمَّمْتُ بِهِ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِالرِّسَالَةِ... قُلْتُ لَيْلَةً لِلْغُلَامِ الَّذِي يَرَعَى مَعِيَ بِأَعْلَى مَكَّةَ، لَوْ أَبْصَرْتُ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخَلَ مَكَّةَ، وَأُثْمِرُ مَا يُثْمِرُ الشَّبَابُ، فَقَالَ: أَفْعَلُ، فَخَرَجْتُ حَتَّى إِذَا كُنْتُ عِنْدَ أَوَّلِ دَارِ بِمَكَّةَ، سَمِعْتُ عَرْفًا، فَقُلْتُ مَا هَذَا؟!... فَقَالُوا: عَرَسُ، فَجَلَسْتُ أَسْمَعُ، فَضْرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي، فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظُنِي إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ، فَعِدَّتْ إِلَيَّ صَاحِبِي، فَسَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَى، مِثْلَ ذَلِكَ، وَدَخَلْتُ مَكَّةَ فَأَصَابَنِي مِثْلُ أَوَّلِ لَيْلَةٍ ثُمَّ هَمَّمْتُ بَعْدَهُ بِسُوءٍ﴾² .

¹ - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري.

² - رواه ابن الأثير والحاكم عن علي بن أبي طالب وقاله عنه، صحيح على شرط الطبري، من حديث عماء بن ياسر.

الدلائل والعبر

1- قصة بحيرا:

يدل حديث بحيرا على أن أهل الكتاب كان عندهم علم ببعثته عليه الصلاة والسلام، وكانوا يعلمون صفاته وأوصافه .
ومما يؤكد ذلك ما رواه علماء السيرة من أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل بعثته، ويقولون إن نبياً سيبعث قريباً سنتبعه ونقلكم معه .

2- قتل عاد وإرم:

أجل لقد نكث اليهود عهدهم، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/89 .
روى القرطبي وغيره أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة/146 .

سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام «وكان كتابياً فأسلم»: ((أتعرف محمد كما تعرف أبناءك؟... فقال نعم وأكثر... بعث الله في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعمته، فعرفته، أما ابني، فلا أدري، ما الذي كان من أمه...)).

وكان هذا سبب إسلام سلمان الفارسي الذي تتبع خبر الرسول (ﷺ) وصفاته في الإنجيل.. وبالطبع، فقد استغل المستشرقون قصة بحيرا، فنكسوها تنكيساً وانطقوها بنقيض ما تنطق به، ليستخرجوا منها دليلاً على أن بحيرا هو الذي ألف القرآن للرسول (ﷺ).

أجل لقد أُلّف مستشرق فرنسي كتاباً أسماه: مؤلف القرآن أكد فيه أن ذلك اللقاء العابر بين الطفل محمد (ﷺ) و"بحيرا" «والذي لم يدم أكثر من ساعة» دليل على أن الطفل تلقى من "بحيرا" القرآن كله¹.

إذاً المطلوب من الناس «حسب كلام هذا المتعصب» لا يصدقوا إن محمداً نبي بل يصدقوا أن "بحيرا" «علام الغيوب» هو لا غيره مؤلف القرآن، فهل تجرأ بها القارئ عقلاً سليماً من لوثة المس بصدق هذا الكلام؟؟.

يمكننا أن نستخلص العبرة الآتية من ذلك:

أ- لقد كان عمه أبو طالب يكلّؤه ويرعاه، ومع ذلك، فقد أبى الرسول (ﷺ) «على صغر سنه» إلا أن يساعد عمه عندما أنس في نفسه القدرة على ذلك، شهامة في الطبع، وبراً في المعاملة.

ب- اقتضت الحكمة الإلهية تعليم الناس، أن خير المال، ما اكتسبه الإنسان بكده يمينه، وجهده وعرق جبينه، وشره ما يصيبه الإنسان دون عناء وتعب.

ت- أراد الله تعالى إلا يكون هنالك شيء في حياة الرسول قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته، أو يؤثر عليها أي تأثير بعد البعثة.

3- حفظ الله رسوله (ﷺ):

هنالك ملاحظتان جديرتان بالتنويه هما:

أ- كانت نفس الرسول (ﷺ) كأية نفس بشرية تتطوي على الغرائز التي فطرت عليها.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص51.

ب- على الرغم من ذلك فقد عصم الله رسوله من كل ما يتعارض مع مقتضيات الدعوة التي حي لها، حتى عند غياب الوحي، وهذا دليل العناية الإلهية التي تولت التوجيه والعصمة.

لقد كان من الممكن أن يخلق الرسول (ﷺ) دون هذه الغرائز، ولكن ذلك لا يدل على استواء في النفس والتركيب، ومن ثم فإن وجود هذه الغرائز مع صمام الأمان العاصم دليل أكيد على السر العظيم لهذه النبوة.

أجل لقد عصم الله رسوله أيضاً عن عبادة الأصنام، إذ لم يعهد أنه سجد لصنم، أو عبد وثناً، أو شارك قومه في تقديم القرابين، وإقامة الصلوات، أو إحياء المواسم والحفلات الدينية أو غير ذلك.

عن ابن عباس قال: ((حدثني أم أيمن، قالت: كان "بوابه" صنماً تحضره قريش، تعظمه، تنسك له النساء (مظاهر العبادة)، ويحلقون رؤوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم الرسول (ﷺ) أن يحضر ذلك يعبد مع قومه، فيأتي الرسول (ﷺ)، حتى رأيت أبا طالب قد غضب عليه، ورأيت عماته غضبن أشد الغضب، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا نكثر لهم جميعاً.. قالت فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً فرعاً، فقلن له ما دهاك؟؟ قال إني أخشى أن يكون بي لم «مس من الجنون»، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشیطان، ففبك من الخير ما فبك، فما الذي رأيت؟؟ قال: إني حكماً دنوت من صنم منها، تمثل لي

رجل أبيض يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه!!... قالت: قالت فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ))¹.

وعن زيد بن حارثة، قال: ((كان صنم من نحاس يقال له: "أساف ونائله" يتمسح به المشركون، إذا طافوا بالكعبة، فطاف الرسول (ﷺ) يوماً وطففت معه فلما مررت بالصنم مسحت به، فقال (ﷺ): ﴿لا تمسه، قال زيد: ثم طفنا، فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما سيكون، فمسحته، فقال: ألم تنه؟﴾. قال زيد: فو الذي أكرمه، ما استلم صنماً حتى أكرمه الله، وأنزل عليه))².

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 81.

² - المرجع السابق، ص 81.

الرسول (ﷺ) في قومه

كان الرسول (ﷺ) يخالف قومه في كثير من عاداتهم وأخلاقهم، ولكنه لم يتأفف من معاشرتهم، بل عاش بينهم كواحد منهم يألفهم ويألفونه، ويحبهم ويحبونه.

لقد حضر "حرب الفجار" وهي حرب قامت بين قريش وهوازن، وكان سببها أن رجلاً من قريش غدر برجل من هوازن، فقتله في الأشهر الحرم، وقد ساهم الرسول مع قومه في هذه الحرب، فكان يجمع السهام للمحاربين، ويرمي أحياناً بها كما يرمون.

وقد حدث الرسول (ﷺ) أصحابه عن هذه الحرب، فقال: ﴿قَدْ حَضَرْتُهَا مَعَ أَعْمَامِي، وَرَمَيْتُ فِيهَا بِسَهْمٍ، وَمَا أَحَبُّ إِلَيَّ لِمَ أَكُنْ فَعَلْتَهُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ أُنْبِلُ عَلَى أَعْمَامِي، أَيُّ أَرْدُ عَلَيْهِمْ نُبْلَ عَدُوِّهِمْ، إِذَا رَمَوْهُمْ﴾¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 82.

وشهد الرسول (ﷺ) حلف الفضول، وهو في العشرين، وهو حلف تداعت فيه قريش إلى نصره المظلوم، فاجتمع رجال بني هاشم، وبني عبد المطلب، وبني أسد وبني زهرة وبني تميم في دار رجل من أشرفهم هو عبد الله بن جدعان، فتعاهدوا على أن لا يجروا بمكة مظلوماً حتى يردوا إليه حقه.

وحدث الرسول (ﷺ) أصحابه عن ذلك، فقال: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت¹.

زواجه (ﷺ) من خديجة

هذا الزواج يشكل منعطفاً هاماً في حياته (ﷺ) حيث تشير المصادر إلى أن الزواج المذكور قد تم بعدما تأكد لها ما سمعت عنه من شرف ونزاهة وأمانة لاسيما إبان خروجه في تجارة لها إلى الشام.

ويتخلص حديث خروج محمد (ﷺ) «وهي ثاني سفرة له إلى تلك البلاد» أن أبا طالب، لما بلغ ابن أخيه محمد (ﷺ) الخامسة والعشرين من عمره، قال له: ((أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عير قومك، وقد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجلاً من قومك في عيرانها «جمع عير»، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك)).

وبلغ خديجة ما كان من حوار بين محمد (ﷺ) وعمه فأرسلت إليه وعرضت عليه الخروج بتجارتها وقالت له أنا أعطيتك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص82.

وقبل محمد(ﷺ) عرض خديجة، وخرج بالتجارة برفقة خادمها "ميسرة" الذي رأى من أخلاقه ومكرماته ما جعله يعود ليقص على سيدته أخباراً أثلجت صدرها، وحببته إلى نفسها، لاسيما أن تجارته ربحت ضعف ما كانت تريحه...

وخديجة هي بنت خويلد بن أسد بن العزى بن قصي وكانت من أشرف نساء قومها، وأعلامهم نسباً وأكثرهم مالاً، وتؤكد المصادر أنها هي التي أرسلت إلى الرسول(ﷺ) تعرض عليه نفسها، وتحبذ له الزواج منها، رغم أن أشرافها قومها وساداتهم كانوا يتمنون ذلك.

وتختلف المصادر في أمر هذا العرض، فبعضهم يذكر أنه كان بوساطة نفسية بنت منبه، وبعضهم الآخر يذكر أنها عرضت عليه نفسها مباشرة ومن غير وساطة.

وأياً كان الصحيح، فقد قبل محمد العرض، وخطبها من عمها عمرو بن أسد الذي كان رجلاً مسناً لأن أباهما كان متوفياً.

ويبدو أن قريشاً كانت تنظر إلى محمد(ﷺ) في هذه المرحلة من حياته نظرة ملؤها التقدير والأمل بمستقبل يتألق له ولأسرته الجديدة، ونستطيع أن نتوصل إلى مثل هذا الاعتقاد، إذا ما أخذنا بين الاعتبار الأشخاص البارزين الذين أصهروا إليه، وتزوجوا أو خطبوا بناته من خديجة، فقد تزوجت ابنته زينب من رجل من بني عبد شمس هو ابن أخ خديجة، كما أن ابنته "رقية" وأم كلثوم" قد خطبتا إلى ابني أبي لهب الذي كان من كبار رجالات قريش ومرشحاً لزعامة القبيلة في المستقبل القريب، وهذا دليل على أن قريشاً كانت تنظر إلى الرسول(ﷺ) «قبل أن يهدد بدينه الجديد مصالحها وسيادتها» نظرة كلها التقدير والاحترام ولقد كانت السنوات التي مرت بين زواجه من خديجة وبعثته فترة استعداد وتهيؤ للمهمة

الكبيرة التي ستلقى على عاتقه، وكان لخديجة وحبها وعطفها وحد بها أكبر الأثر في تشجيعه وتثبيت فؤاده إذا كانت المثل الأعلى للمرأة الفاضلة والزوجة الأمينة والأم الرووم.

الدلائل والعبء المستقاة من زواج الرسول (ﷺ) بخديجة

1- فضل خديجة: روى البخاري ومسلم أن علياً رضى الله عنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول: ﴿أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَّةُ بِنْتُ مَزَاحِمِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرِيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ﴾.

وروى المذكوران أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كان الرسول (ﷺ)، إذا ذبح الشاة يقول: ﴿أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ، قَالَتْ: فَأَغْضَبْتُهُ يَوْمًا فَقُلْتُ: خَدِيجَةَ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِنَّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَّهَا﴾.

وروى أحمد والطبراني عن طريق مسروق عن عائشة، قالت: ﴿كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَتْنِي عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءِ قَالَتْ فَغَرَبْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ مَا أَكْثَرَ مَا تَذَكَّرُهَا حَمْرَاءَ الشَّدَقِ قَدْ أَبَدَلَكِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا قَالَ مَا أَبَدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا قَدْ آمَنْتُ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ وَصَدَّقْتَنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَأَسْتَنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ﴾.

2- طبيعة الزواج من خديجة: هذا الزواج يؤكد عدم الاهتمام الرسول بالمتع الجسدية، والقول بغير ذلك كان يعني توجهه عليه الصلاة والسلام إلى العرب الأبقار من النساء، مما يزدن خديجة جمالاً وينقصن عنها سناً.

لقد ظلّ الرسول (ﷺ) مشدوداً إلى هذه الزوجة العظيمة بميثاق غليظ يشدهما فأحسن ما يجمع الزوجين المودة والرحمة، مع أن خديجة توفيت عن خمسة وستين عاماً، وكان سن الرسول (ﷺ) قد ناهز آتئذِ الخمسين، دون أن يفكر خلال هذه المدة بالزواج من امرأة سواها .

ولاشك أن ما بين العشرين والخمسين، وهو الزمن الذي تتحرك فيه الرغبات الجنسية، ولو شاء الرسول (ﷺ) خلال تلك الفترة، لوجد الزوجات والإماء، وما كان فعله هذا يخرق عرفاً، أو يتجاوز مألوفاً، وهذا يبكم كل قول، يتقول على الرسول (ﷺ) أنه نشد اللذة، وغرق في الإحساسات الجسدية.

إن الرجل الشهواني لا يعيش حتى الخامسة والعشرين دون الزواج في بيئة كالبيئة العربية، والرجل الشهوان لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارن ضعف عمره، ثم يعيش معها دون أن يمتد بصره إلى امرأة أخرى.

أما النساء اللواتي تزوج بهن بعد خديجة، فقد كان زواجه بهن خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، ولكل منها قصتها، ولكل زواج حكمة الذي يزيد من إيمان المفكر الحر بعظمة الرسول (ﷺ)، ورفعة شأنه، وجلال أخلاقه.

بناء الكعبة

لقد شارك الرسول (ﷺ) في بناء الكعبة، وهو في الخامسة والثلاثين، حين أصابها السيل، فصدع جوانبها، وهدم أركانها، فاشترك في ذلك البناء الرجال والنساء، وكان (ﷺ) يشارك عمه العباس في نقل الحجارة، فلما بلغوا موضع الركن «وهو الحجر الأسود» أرادوا أن يضعوه في مكانه، فاختلفوا أيهم ينال ذلك الشرف العظيم، وكان للحجر الأسود في نفوسهم منزلة من الإحلال والتقديس لا تدانيها منزلة.

واشتد الخلاف بينهم، حتى هموا أن يتحاربوا، لولا أن رجلاً حازماً منهم دعاهم إلى أن يحكموا بينهم في هذا الأمر، أول من يدخل عليهم، فارتضوا ذلك واتفقوا عليه، وكان الرسول (ﷺ) هو أول من دخل إليهم، ففرح الجميع وقالوا هذا هو الأمين.... رضينا، وكان (ﷺ) قد عرف بينهم بسداد الرأي، وصواب الحكم، فقصوا عليه قصتهم، وأخبروه بما كان من أمرهم، فقال (ﷺ): ﴿هَلِّمُوا إِلَيَّ تَوْبًا فِجَاءٍ وَهَذَا بَدَلُكَ، فَأَخَذَ التَّوْبَ فَبَسَّطَهُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ أَخَذَ الْحَجْرَ، فَوَضَعَهُ فِي وَسْطِ التَّوْبِ، ثُمَّ قَالَ: لَتَأْخُذَ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ، ثُمَّ أَرْفَعُوهُ جَمِيعًا، فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ فِي مَكَانِهِ ثُمَّ نُبِّيَ عَلَيْهِ﴾¹.

¹ -سيرة ابن هشام 1/192.

الدلائل والعبر

يمكننا أن نسجل على هذا الحدث الملاحظات الآتية:

1- أهمية الكعبة: ومن هذه الأهمية أن أول من باشر في بناءها هو أبو العرب النبي إبراهيم، خليل الرحمن، وبأمر من الله تعالى، لتكون أول بيت لعبادة الله وحده، ومثابة للناس وأمناً.

وتبدو هذه الأهمية في حاجة المسلمين في سائر الأزمنة والعصور إلى محور مادي يجسد وحدتهم واجتماعهم على عقيدة التوحيد، ونبذ جميع الصور والتصورات الخرافية للعبادة والدين، وليس أجدر من هذا البيت الذي هو أول بيت بني على وجه الأرض لعبادة الله وحده تعبيراً عن التقاء المسلمين، مهما تفرقت بهم السبل، وفي الوقت نفسه، فهو تذكير دائم للمسلمين بأنهم أمة واحدة تلتف حول جذر اجتماعي واحد، هو جذر التوحيد، وهذا يعني أن الكعبة ليس لها في عقيدة المسلم أي تأثير على الطائفتين حولها أو العاكفين فيها إذ هي رغم قداستها حجارة لا تنفع ولا تضر، ولكن الله جعلها رمزاً متألماً، وشعيرة حية للتوحيد، وتعظيماً لهذه المثابة، أي لكونها تحمل إحياءات ومعاني التوحيد، بدلالة قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج/32.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة/125.

2- حكمة الرسول (ﷺ) في تدبير الأمور: لقد وصلت فتنة القوم إلى شفير الهاوية، ولكن حكمة الرسول (ﷺ) هي التي أنقذت الموقف، وأعطت حلاً فرض

قوته بمصداقية وحيوية، الأمر الذي جعل جميع الأطراف يسارعون للقبول بهذا الحل المنطقي.

وقد يرد بعض الباحثين تصرفات الرسول (ﷺ) حتى بعد النبوة إلى العبقرية، فيقضون بالأمر عند هذا الحد، ولكن الحقيقة تكمن في النبوة أولاً، ثم العبقرية ثانياً، إنه النور البشري، أعده الله في محمد بصفته حاملاً للنور الإلهي، نور على نور.

3- منزلة الرسول (ﷺ) عند قومه: وهذا يتأكد من لقب الأمين الذي كان قد أطلق عليه (ﷺ) من قبل قومه، لقد كان الرسول (ﷺ) موضع حب واحترام وتقدير لا يدانيه تقدير، بسبب نبهه وكرم أخلاقه وصدقه الذي لا يرقى إليه الشك، الأمر الذي جعله موضع ثقة في قضية كبيرة كهذه القضية.

اختلاء الرسول (ﷺ) في غار حراء وبدء الوحي

استغنى الرسول (ﷺ) بعد زواجه بالسيدة خديجة، وتوفرت له أسباب الراحة، وكفاه الله مؤونة السعي المضني من أجل العيش، وفوضت خديجة إليه أمر تجارتها، ويتصرف وينتقل بها كيف يشاء بين البلاد في نشاط وحثق، وبارك الله لهما في تجارتها فأدرت عليهما المال الوفير، وأتمّ عليهما نعمة الوفاق والحب، وأنجبت خديجة في ظل هذه السعادة السابقة البنين والبنات، لكن محمداً (ﷺ) رغم ذلك كان دائم التفكير كثير الصمت ميالاً إلى العزلة والانقباض عن الناس، كأنما يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الهموم.

أجل لقد كان يفر بهمهمه إلى الخلوات، ويأوي إلى الجبال والغيران، لذلك يخلو هنالك إلى نفسه في عزلة من الناس يتفكر ويتأمل، وقد اختار لذلك غار حراء، وهو كهف صغير بأعلى جبل حراء في الشمال الشرقي من مكة، على نحو ثلاثة أميال من مكان منقطع عن العمران، يمشي السائر إليه نحو ساعتين، و يصعد نحو ساعة، حتى إذا وصل إليه وجدته كهفاً موحشاً رهيباً، يزيد في وحشته الظلام الشديد، والبعد النائي عن الناس، إضافة إلى وعورة الطريق إليه.

كان (ﷺ) يأوي إلى هذا الغار فيعتكف فيه أياماً وليال، يتعبد، ويتحنث على نحو ما كانت قريش تفعل في الجاهلية ويتزود كذلك بما يكفيه من الطعام والشراب.

يقول الرواة: ((إنه (ﷺ) كان يجاور في ذلك الغار شهراً من كل سنة، فإذا قضى جواره من شهره، كان أول ما يبدأ به التوجه إلى الكعبة، ليطوف بها ما شاء الله له أن يطوف، ثم يرجع إلى بيته))¹.

على أنه (ﷺ) لم يكن في ذلك مقلداً لغيره ممن عاصروه أو سبقوه من حنفاء العرب، بل كان ذلك إلهاماً من الله، وتهيئة لإشراق نور النبوة على نفسه الذكية، فقد حبب الله إليه الخلاء، كما قالت عائشة رضي الله عنها، ولم يكن شيء أحب إليه من ذلك، يقلب بصره فيما حوله من مظاهر الكون، ويقضي نهاره صائماً وليله قائماً، متطلعاً إلى مشارف النور الإلهي، وكانت الرؤيا الصادقة أول ما أشرق عليه من نور النبوة، فلا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وكان إذا خلا وحده رأى ضوءاً، وسمع صوتاً حتى خشى على نفسه أن يكون قد أصابه ضمير، فكان يقضي بهذه المخاوف إلى خديجة، ويقول لها: ﴿إِنِّي إِذَا خَلَوْتُ وَحْدَيَّ سَمِعْتُ نِدَاءً، وَقَدْ

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 119.

حَشِيْتُ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَمْرٌ، فَتَطْمَئِنُّهُ وَتَقُولُ لَهُ: مُعَاذُ اللَّهِ، مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصَدِّقُ الْحَدِيثَ¹.

وما زالت إشراقات النور الإلهي تتوالى عليه، وهو في خلواته، حتى كانت تلك الليلة المباركة، ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، إذ تفتحت فيها بركات السماء على الأرض وظهرت بشائر رحمة الله لعباده، فنزل فيها الروح الأمين "جبريل".

كان ذلك في شهر رمضان سنة/610 من ميلاد المسيح عليه السلام، وكان (ﷺ) قد بلغ الأربعين من عمره، حيث خرج كعادته في ذلك الشهر إلى جواره وبعد أن فرغ من عبادته واستسلم للنوم.

وفي ذلك يقول (ﷺ) فيما يرويه عبيد بن عمير، أن جبريل جاء للرسول (ﷺ) في المرة الأولى كرؤيا في حال النوم، فقد قال (ﷺ) نصاً: ﴿فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِّنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، ثُمَّ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ: فَأَنْصَرَفَ عَنِّي، وَهَبَبْتُ مِّنْ نَّوْمِي، فَكَأَنَّمَا كَتَبْتُ فِي قَلْبِي كِتَابًا²، ثُمَّ فِي الْمَرَّةِ الْأُخْرَى: ﴿فَدَخَلَ عَلَيَّ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، هَكَذَا بَدُونَ مَقْدِمَاتٍ، وَلَا سَلَامَ، وَلَا كَلَامَ، لَمْ يُعْرِفْ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَسْأَلِ الرَّسُولَ عَنْ نَفْسِهِ، يَخَاطِبُهُ وَكَأَنَّهُ يَعْرِفُهُ مِنْ زَمَنٍ، وَيَقُولُ لَهُ: اقْرَأْ، وَالرَّسُولُ (ﷺ) لَا يَدْرِي أَيِّ شَيْءٍ يَقْرَأُ، فَالرَّسُولُ أُمِّيَّ لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ، يَقُولُ لَهُ: اقْرَأْ، فَقَالَ بِأَدْبِهِ الْجَمِّ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ﴾.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص121.

² - المرجع السابق، ص122.

لم يسأله الرسول (ﷺ) من أنت؟ وماذا تريد؟ فهو بهت بدخوله عليه فجأة، وقوله له: اقرأ، قال الرسول: (ﷺ) ما أنا بقارئ، ففوجئ برد الفعل الذي أفرغ الرسول، هذا الرجل اقترب من الرسول (ﷺ)، ثم احتضنه بشدة، يقول الرسول (ﷺ): ﴿قَالَ: فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي «يعني احتضنني» حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، أَي كَانَ الْأَمْرَ شَاقًّا جَدًّا عَلَيْهِ، وَالرَّسُولُ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفًا، بَلْ كَانَ قَوِي الْبَنِيَّةِ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قُوَّتُهُ هَائِلَةٌ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي﴾ أي تركني.

﴿ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ (المرة الثانية)، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ (المرة الثالثة)، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَقَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي﴾.

ولكن، لماذا كل ذلك العنف في التبليغ، ذلك ليعلم أنه لا يحلم وأنه يعيش واقعاً حقيقياً، وأن الكلام الذي سيقوله الرجل الآن يحتاج إلى تركيز ووعي، لست تحلم يا محمد هذه حقيقة.

فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿1﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿2﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿3﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿4﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق/1-5.

﴿قَالَ: فَقَرَأْتَهَا ثُمَّ أَنْتَهِيَ فَأَنْصَرَفُ عَنِّي، وَهَبَّتْ مِنْ نَوْمِي، فَكَأَنَّمَا كَتَبَ فِي قَلْبِي كِتَابًا، قَالَ: فَخَرَجْتَ حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي وَسْطِ مِنَ الْجَبَلِ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا جِبْرِيْلُ، قَالَ: فَرَفَعْتُ رَأْسِي أَنْظُرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا جِبْرِيْلُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ صَافٍ قَدَمِيهِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَا جِبْرِيْلُ، قَالَ: فَوَقَّمتُ أَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَمَا أَتَقَدَّمُ وَمَا أَتَأَخَّرُ، وَجَعَلْتُ أُصْرَفُ وَجْهِي عَنْهُ فِي أَفَاقِ السَّمَاءِ، فَمَا أَنْظُرُ فِي نَاحِيَةِ مَنَهَا إِلَّا رَأَيْتُهُ كَذَلِكَ، فَمَا زِلْتُ وَاقِفًا مَا أَتَقَدَّمُ أَمَامِي وَمَا أَرْجِعُ وَرَائِي حَيَّ بَعَثْتَ حَدِيحَةَ رُسُلَهَا فِي طَلْبِي،

فَبَلَّغُوا أَعْلَى مَكَّةَ وَرَجَعُوا إِلَيْهَا وَأَنَا وَقِفٌ فِي مَكَائِي ذَلِكَ، ثُمَّ أَنْصَرَفَ عَنِّي،
وَأَنْصَرَفْتُ رَاجِعاً إِلَى أَهْلِي حَتَّى أُتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَجَلَسْتُ إِلَيْهَا فَحَذَاهَا مُضِيئاً إِلَيْهَا
فَقَالَتْ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَيْنَ كُنْتَ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْتُ رُسُلِي فِي طَلَبِكَ حَتَّى بَلَّغُوا أَعْلَى
مَكَّةَ وَرَجَعُوا إِلَيَّ، فَحَدَّثْتَهَا بِالَّذِي رَأَيْتُ، فَقَالَتْ: أُبَشِّرُ يَا بِنَ وَأَثْبِتْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ
خَدِيجَةَ بِيَدِهِ أَنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَبِيَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ ۞.

وفي رواية، ورجع الرسول (ﷺ) يرجف فؤاده من الروع، فلما انتهى إلى خديجة أبصرت ما بوجهه من تغير لونه، فأفزعها ذلك، فقامت إليه، فجعلت تمسح عن وجهه، وتقول: ﴿لَعَلَّكَ لِبَعْضِ مَا كُنْتَ تَرَى وَتَسْمَعُ قَبْلَ النَّوْمِ... فَقَالَ: يَا خَدِيجَةُ، أَرَأَيْتَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى فِي الْمَنَامِ، وَالصَّوْتُ الَّذِي كُنْتُ أَسْمَعُ فِي الْبِقِظَةِ، وَأَهَالٍ مِنْهُ أَرْعَبُ، فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ، قَدْ اسْتَعَلَّنَ بِي، وَأَقْرَأَنِي كَلَاماً فَرَعَتَ مِنْهُ، ثُمَّ عَادَ فَأَخْبَرَنِي أَنِّي نَبِيُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: أُبَشِّرُ يَا ابْنَ عَمٍّ، وَأَثْبِتْ، فَوَالَّذِي نَفْسُ خَدِيجَةَ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ نَبِيَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ ۞¹.

وانطلقت خديجة إلى ورقة بن نوفل تخبره بذلك، فقال ورقة: ((قدوس! قدوس!...)) والذي نفسي بيده، لقد جاء الناموس الأكبر «ملك الوحي جبريل» الذي كان يأتي موسى، وأنه لنبي هذه الأمة))، فرجعت خديجة، وأخبرت الرسول (ﷺ) بذلك².

والتقى الرسول (ﷺ) بورقة حول الكعبة، فأكد ورقة له ما قاله لخديجة، وأضاف: ((لئن أدركني يومك لأنصرن الله نصراً بعلمه، ليتني أكون حياً، إذ

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص122.

² - المرجع السابق، ص122.

يخرجك قومك، فقال الرسول: أو مخرجي هم؟؟... قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي))... ثم ما لبث ورقة أن تويء.

الدلائل والعبر

الوحي هو قوام الدين، وملاك أمره، وفهمه واليقين به هما المدخل الحقيقي لكل ما جاء من محمد من أحكام وإخبارات غيبية، وغير ذلك.

والوحي هو الفيصل بين الإنسان الذي يشرع برأيه وعقله، والإنسان المبلّغ عن ربه، دون زيادة أو نقصان، إذاً فلنصنع جهازاً مفاهيمياً هو: الوحي والحقيقة.

ولهذا فقد كان الوحي محور الهجوم الأساسي على الإسلام، حيث وصف تارة بأنه حديث النفس، وأخرى بأنه حالة مرضية وإنما ننصح القارئ بالرجوع إلى رد "مالك بن نبي" على ذلك في كتاب الظاهرة القرآنية.

حيال ذلك يصبح التساؤل عن حقيقة الوحي بعاهة، وهذا الوحي المنسوب إلى الرسول الكريم بخاصة، وما هي الآراء التي قيلت في هذا الموضوع¹:

قول يرى أن التفكير المستمر لمحمد (ﷺ) في خلواته كان كفيلاً بتكوين عقيدة ورأي يحدد موقف معين للرسول (ﷺ) من ظاهرة تخلف الجاهلية.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص70 وما بعدها.

1- قول ثان يؤكد أن الرسول (ﷺ) كان من أولئك الذين يتمتعون بإشراق نفسي وروحي، وبالتالي فإن هذا التألق والإشعاع بشري المحتد، إنساني الأساس، ليس إلا.

2- قول ثالث يزعم «وهو رأي غولد تسيهر» أن الرسول (ﷺ) كان رجلاً عصبياً مصاباً بالصرع، والوحي بحد ذاته نوبات صرع¹.

3- الرأي الرابع يضع الوحي في إطاره السليم، ويكشف عن حقيقته الجوهرية، إذ هو ماهية وحقيقة استقبال منه (ﷺ) لحقيقة خارجة عن كيانه، ليس له من سبيل إلى جلبها أو روحاً هذا ويمكن الرد على الرأي الأول بأن الرسول (ﷺ) رأى كائناً بعينه خاطبه وضمه إليه ثلاث مرات، وهذا يؤكد أنه (ﷺ) كان مستيقظاً، كما أن الذي خاطبه كائن له وجوده واستقلاله عن الرسول (ﷺ)، وقد هزّه، وضمّه، بل وتؤكد الأخبار التي رواها الثقة عن الوحي أن الرسول (ﷺ) أخذته البرداء، وقذف الرعب في قلبه، فكيف يتفق ذلك مع مقولة أن الوحي كشف نفسي، ولماذا لم يرتعد الرسول قبل ذلك، وقد اعتاد التردد إلى الغار.

وتؤكد الموارد التاريخية أن الوحي انقطع عن الرسول (ﷺ) مدة طويلة تبلغ الستة أشهر، أو تزيد، وقد جزع الرسول (ﷺ) لذلك جزعاً شديداً، فكيف إذاً يتفق هذا مع كون الوحي كشافاً داخلياً؟

ثم متى كان انقطاع الإلهام الداخلي يؤدي إلى القلق، وما الأسباب التي أدت إلى هذا الانقطاع الداخلي، ثم ما مصلحة ورقة، ذلك الشيخ الجليل في الكذب، وكيف

¹ -انظر الرد على ذلك في كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.

لذي عينين أن يصدّق أن الصراع يمكن أن يكون مصدراً لإبداع لا يبيزه ولا يجازيه إبداع في عظمتة وإعجازه.

ومن جهة ثانية فالأخبار تؤكد أن الوحي كان يأتي الرسول (ﷺ)، وهو مع أصحابه يتحدث في حالات عادية، فكيف يمكن القول إن ذلك إبداعاً نفسياً، مع أن الإبداع لا يمكن أن يأتي صاحبه إلا في حالات نفسية معينة، ثم كيف يفسر الفرق بين الحديث والقرآن، إلا بالقول بأن الوحي ظاهرة خارجة عن نفس الرسول (ﷺ)، وإذا افترضنا أن الوحي ظاهرة نفسية، فهي تصدر عن صاحبها بضمير المتكلم، فكيف نفسر أن النص القرآني يتوجه إلى الرسول بضمير المخاطب، ألا يؤكد ذلك وجود تطبيق، لأحدهما يرسل والآخر يستقبل.

وأخيراً لنا ان نتساءل كيف استطاع الرسول (ﷺ) أن يكشف عن حقائق تاريخية قديمة، ثم كيف يمكن لهذا البشري أن يتحدث عن أمور مستقبلية كما في سورة الروم، مثلاً ﴿غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿2﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾
الروم/2-3.

انفطار الوحي

لم يكن الرسول (ﷺ) يتوقع أن الوحي سينقطع، لذلك فقد حزن حزناً شديداً، وذهبت به الظنون كل مذهب، وأخذ يتردد على غار حراء، ويخرج إلى رؤوس الجبال يتطلع منها في نواحي السماء، لعله يرى أمين الوحي.

وكان يخشى ما خشيهِ (ﷺ) أن ما سمعه ليس بوحي، وهذا ما أفصح عنه، وصارح به خديجة قائلاً: ﴿إِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أَكُونَ كَاهِنًا﴾.

وكانت خديجة مطمئنة، وتقول له: ((كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكُل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، وإن فيك من صفات الخير ما لا يجعل للشيطان سبيلاً إلى نفسك)).

ولكن فترة الوحي طالت، حتى ظن الرسول (ﷺ) أن ربه قلاه وأنه لم يعد أهلاً لأن يتحمل تبعه الوحي وأثقاله، واشتد به الحزن حتى كاد أن يقضي عليه، وكثر تردده على الجبال، وتطلعه إلى السماء تلهفاً على عودة الوحي، وتشوقاً إلى رؤية جبريل.

وحين أوشك اليأس أن يُحطم قلبه، أدركه الله برحمته فأرسل إليه أمينه جبريل، يُحيي في نفسه ما فقدته من الأمل، وها هو جبريل عليه السلام يظهر له مرة أخرى، ويتراءى له في أفق السماء يناديه بصوته العظيم: ((يا محمد أنت رسول الله حقاً، وأنا جبريل!!)).

ولكن رسول الله (ﷺ) يربع منه، كما رعب أول مرة، فيهبوي إلى الأرض، من شدة الهول، ثم يذهب إلى أهله مقروراً (مرتعداً) يقول: ﴿زملوني، زملوني!﴾.

إن وطأة الوحي ولا شك فوق طاقة البشر العادي، لذلك فقد كان الرسول (ﷺ) يعاني من التنزيل الشرائد، مع أنه أخذ بالقوة الكافية لاحتمال ذلك، وكان إذا نزل عليه الوحي كرب له، وتريد وجه (تغير لونه)، وتحدر منه العرق في اليوم الشديد البرد¹.

وهكذا فقد كانت الهزة الأولى من هزات الوحي عنيفة وقاسية، وكان من رحمة الله أن يفتر عنه الوحي فترة، حتى يستجمع شتات نفسه الثائرة، ويستعد لما وراء ذلك من أثقال الوحي.

لهذه الأسباب فقد كانت فترة توقف الوحي ضرورية، وهذا ما تؤكد سورة الضحى التي نزلت عقب هذه الفترة، حيث أقسم له ربه بأنه ما هجره، وما قلاه.

كيف يحدث مثل هذا الهجر، والله تولاه منذ خلق، ولم يتخل عنه لحظة واحدة، حيث آواه، وهو يتيم، وأغناه وهو فقير، وهدهاه وهو ضال.

كانت فترة التوقف إذاً نعمة أراد الله بها تثبيت قلب الرسول (ﷺ)، وتقويته على ما سيتوالى من وحي، وهكذا، فحين استجم الرسول (ﷺ)، وأخذ جسمه كفايته من الراحة، أرسل الله تعالى إليه جبريل.

¹ -من حديث عائشة رضي الله عنها .

ولقد حدثنا الرسول (ﷺ) عن هذه الفترة، فيما يرويه جابر بن عبد الله، قال: ﴿فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِّنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قَبْلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ قَاعِدٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتِ مَرْفَأًا مِنْهُ، حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي﴾، فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿1﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ المدثر/1-2.

ثم حمى الوحي وتتابع، فقررت بذلك عين الرسول (ﷺ)، وربط جأشه، واطمأن قلبه، وأيقن أنه رسول الله (ﷺ) ومنذ ذلك الحين بدأت مرحلة جديدة في حياته (ﷺ)، هي اضطراره بعقب الرسالة، وتبليغها إلى الناس كافة.

الرعييل الأول ومسألة سرية الدعوة

كان نزول الوحي في سورة الضحى (برداً وسلاماً) على نفس النبي (ﷺ) بعدما عراه من الهم والقلق، وشعر بروح الأمل يسري في كيانه، وأخذ يستعد بكل أسباب القوة لاحتمال العبء العظيم.

فكيف يدعو قريشاً، وهم ما عليه من جاه وسلطان، وما يتمتعون به من لذة ومتاع، وأن عليه أن يعوّض عقائدهم الباطلة؟؟.

ولكن مادام الله القوي هو الذي أوحى إليه أن ينهض لهذا الأمر العظيم، فلينهض وليتوكل على الله، فهو حسبه.

وأخذ الرسول (ﷺ) يفكر ويقلب وجوه الرأي، ليجد المدخل المناسب إلى قلوب هؤلاء السادرين في غيهم، فوجد ذلك في القلوب اللينة المستعدة للهداية، وبدأ من هؤلاء بخلطائه، وصحبه ممن يثق بهم ويطمئن لهم.

ولقد أخذ الرسول (ﷺ) في تكتم وحزم، وكان أول من آمن به زوجته خديجة، فصدقت بما جاءه من الله، فكانت له نعم المعين تشد من عزيمته وتثبتته، وتخفف من آلامه، وآمن به علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وكانت سنة آنذاك حوالي العاشرة، وكان يعيش مع النبي في بيته بسبب كثرة عيال أبيه.

وكان رسول الله (ﷺ) إذا حضرت الصلاة حزم إلى شعاب مكة، ومعه علي، فيصلبان في تلك الشعاب، وقد عثر عليهما مرة أبو طالب وهما يصلبان، فقال لرسول الله (ﷺ): ﴿يَا ابْنَ أَخِي، مَا هَذَا الدِّينُ؟ قَالَ: يَا عَمُّ، هَذَا دِينُ اللَّهِ، وَدِينَ مَلَائِكَتِهِ، وَدِينَ رُسُلِهِ، وَدِينَ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ، وَأَنْتَ - يَا عَمُّ - أَحَقُّ مِنْ تَبَدُّلِ لَهُ التَّضْحِيَّةِ وَتَدْعِي إِلَى الْهُدَى، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَفَارِقَ دِينَ آبَائِي، وَلَكِنْ، وَاللَّهِ لَأَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَكْرَهُهُ مَا بَقِيتَ، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ، أَيُّ بَنِي، إِنَّهُ لَمْ يَدْعَكَ إِلَّا لِلْخَيْرِ فَأَلْزَمَهُ﴾.

وقد آمن بالرسول (ﷺ) بعد ذلك خادمه زيد بن حارثة، وكان أبو بكر رجلاً محبباً في قريش عالماً بالأنساب، ملماً بالأخبار وأحداث الدهر، تاجراً يطوف الآفاق، وكان مجلسه مجلس أنس وعلم، وكان لطيف المعشر، حلو الحديث، يحب الرسول (ﷺ) حباً جماً.

وما كاد الرسول (ﷺ) يعرض عليه الإسلام حتى أسلم إسلام الواثق المطمئن، فجعل يدعو إلى الإسلام سراً من كان يثق به من أصدقائه، فأمن بدعوته عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة

بن الزبير، فجاء بهم إلى الرسول (ﷺ) حين استجابوا، فأسلموا، وصدقوا بالله ورسوله¹.

الدلائل والعبر

1- السرية: لم يكن مصدر تكتم الرسول (ﷺ) الخوف على نفسه، لأنه كان يدرك أن الله سيكلؤه ويرعاه ويصونه، ولكن مصدر خوفه إرشاد صحبه وتعليمهم، بأن يأخذوا الأمور بالحيطه والحذر والتمسك بالأسباب.

2- السياسة الشرعية كإطار للدعوة: إن أسلوب الدعوة إلى الله بالجهر أو بالسر، بالشدّة أو اللين، هذا الأمر يدخل في أحكام السياسة الشرعية (أو ما يسمى بأحكام الإمامة)².

ويقصد بالسياسة الشرعية أنها أحكام تقوم على الرخصة والتقدير وليس على أحكام محمد ومنطقه، وأنها تمارس هذه الرخصة في حدود الشرع ومن تطبيقات هذه الأحكام إجماع الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا في قلة العدد أو ضعف العدة، فعليهم مراعاة مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة الأخرى، وهي حفظ الدين منفية الوقوع.

وفي ذلك يقول العز بن عبد السلام: ((التولي يوم الزحف مفسدة كبيرة لكنه جاز إذا علم أنه يقتل من غير نكايه في الكفار، لأن التغيرير بالنفوس إنما جاز لما فيه من مصلحة إعزاز الدين بالنكايه في المشركين، فإذا لم تحل النكايه وجب الانهزام لما

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 131.

² - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 81.

في الثبوت من فوات النفوس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة والنبي وهو أشجع الخلق وفي معركه الخندق كاد عليه الصلاة والسلام ان يصلح غطفان على ثلث ثمار المدينة لما رأى تكالب اعداء الله¹.

3- سيف إسلام المستضعفين: الإسلام ولاشك يجعل في أحكامه إقامة موازين الحق والعدل وإنصاف المظلوم، وهذا ما يعتبره حافزاً للمستضعفين للإقبال على الإسلام محضاً لإخلاصه، خلافاً لنسبة الأولى الحول والطول والزعامة، أصحاب المصالح، فهم يناون عن الحق رغم يقينهم بأنهم على باطل، قال تعالى مصوراً هذه الحالة النفسية: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل/14.

ومع ذلك فهناك من صدق بالرسول (ﷺ) والدعوة في مهدها، وهو من أصحاب الجاه والغنى، كما اتضح لنا من الرعيل الأول، والمسألة هنا مسألة إيمانية، وهداية من الله، واستعداد نفسي وخلق.

4- الدعوة الإسلامية وحركة الفكر العربي:

يرى الدكتور البوطي أن الدعوة الإسلامية لم تكن من وحي البيئة العربية ولا تمثل حركة الفكر العربي، وتطلعه إلى التحرر من الوثنية الشرك.

¹ - أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1، ص95.

ويستدل على ذلك بأن رصيد هذه الدعوة لم يتجاوز الأربعين رجلاً وامرأة بعد ثلاث سنوات من بدايتها جلّهم من الفقراء والمستضعفين وفي مقدمتهم أخلاط من الأعاجم: صهيب الرومي، وبلال الحبشي¹.

ولا شك أن هذه الدعوة سماوية المحتد والأساس والمنطلق، ولكن ذلك لا ينفي أن المجتمع العربي، كان متوثباً لاحتضان التوحيد، وكان لذلك إرهابات تمثلت في الحنفية وجماعة الخمس وغيرهم والدليل على ذلك أن المجتمع العربي بقضه وقضيضه عانق هذه الدعوة، هذا فضلاً عن أن وجود صهيب وبلال لا ينفي وجود خديجة وعلي وأبي بكر، وبقية أفراد الرعيل الأول الذين سبق الإشارة إليهم، مع العلم بأن اعتناق الإسلام من قبل أبي بكر وغيره من زعماء قريش أكثر دلالة وبذلاً وتضحية من اعتناق صهيب لذلك، وأثقل وزناً ومعاناة ومخاضاً روحياً، وانسلاخاً عن مقتضيات الحياة والدنيا والمال.

وبطبيعة الحال فمنهج الدكتور البوطي ينفي الحامل التاريخي والاجتماعي مركزاً على الحامل الديني فحسب، وهو منهج يطبقه الدكتور البوطي باستمرار ونحن لا نتفق مع هذا المنهج الذي يتعارض مع سنن الله في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وحجتنا في ذلك الأسئلة الآتية:

- 1- هل صدفة أو عبثاً إرسال الله الرسول (ﷺ) نبياً إلى العرب؟
- 2- لما لم تعتق الجزيرة العربية اليهودية أو المسيحية كما اعتنقت الإسلام؟
- 3- لماذا لا يفعل الإسلام فعله حالياً في الجزيرة العربية أو غيرها كما فعله إبان صعود الإسلام؟.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص84.

وإذا كان هذا الرأي متطرفاً في إلغاءه الواقع، ونحن لا نتفق مع بعض المواقف العروبية المتطرفة التي تعتبر الإسلام مظهراً من مظاهر العروبية.

أما المنهج الذي نأخذ به فهو أن الإسلام «وهو الدين الخالد» فقد لاقى تجاوباً مع الروح العربية التي كانت لاتزال على الفطرة، ونحن نضرب مثلاً واحداً للتأكيد على ذلك وهو قوله (ﷺ): ﴿مَنْ لَأَ مَرُوءَةٌ لَهُ لَأَ دِينٌ لَهُ﴾.

لذلك فقد أصبحت الحاجة ملحة لتقديم موجز عن أخلاق العرب في الجاهلية باعتبار أن هذه الأخلاق هي الحاضنة التي احتضنت بذور الإسلام.

خصائص العروبية بصفاتها حاضنة الرسالة الإسلامية الخالدة

اصطفى الله العرب للاضطلاع برسالاته العظمى وتبليغها للناس ما بقيت الحياة والأحياء¹.

وعندما نتأمل في أحوال هذه الأمة عند ترشيحها للبعثة نجدها أحق الأمم بوراثة الكتاب الكريم والقيام على هداياته.

لقد كان العرب يرمقون غيرهم فلا يجدون لديهم ما يبعث على الإعجاب أو الاحترام، بل كانوا يأنسون في تكوينهم نقاء المعدن وصفاء الطبيعة، ويرون أنفسهم أقوم طباعاً، وأنفذ فكراً، وأعصى على الضيم، وأنأى عن الدنية، وأقدر على عظام الأمور، ونيل الأمجاد، وقد نوّه تعالى بذلك وأخذ بحثهم على حمل رسالته: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿155﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا

¹ - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، القاهرة، مكتبة دار العروبة، ص25.

أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿156﴾ أَوْ
 تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ الأنعام/ 156- 157، وقال:
 ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ...
 فاطر/ 42.

هكذا يصور "الجاحظ" فطرة العرب إلى أنفسهم فيقول¹: ((للعرب من صدق
 الحس، وصواب الحدس، وجودة النظر، وصحة الرأي، ما لا يعرف لغيرهم، ولهم
 العزم الذي لا يشبهه عزم، والصبر الذي لا يشبهه صبر، والجود والأنفة والحمية
 التي لا يدانيهم أحد فيها، ولا يتعلق بها رومي، ولا هندي ولا فارسي، ومنهم أيضاً
 خصلة لا تُصاب إلا فيهم، ذلك أن سفلة كل جيل، وغفلة كل صنف، إذا اشتد
 تشاجرهم، وطالت ملاحاتهم، وكثر مزاجهم، وشاعت الدعاية بينهم، وجدتهم
 يخرجون إلى ذكر الحرمان، وشتيمة الأمهات، واللفظ السيء، والسفه الفاحش،
 ولست بسامع من هذا حرفاً في البادية، لا من صغيرهم، ولا من كبيرهم ولا
 جاهلهم ولا عالمهم، وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم، وكل
 شيء تقوله العجم، فهو تكلف واستكراه.

والعرب شعب ذكي قوي، وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الخلال التي تتجج بها
 رسالة عظمى، بل إن ما تتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم يكن يتوفر إلا في
 هذه الجزيرة التي عبأتها الأقدار بشتى القوى والمذاهب)).

ما هي هذه الخصال والخلال والمناقب؟.

¹ - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص 26.

1- الجوانب النفسية:

أ- الاعتزاز بالنفس: بلغت قوة الفرد مداها بين العرب، حيث شعر كل منهم، أن له من العزة وتمام الشخصية ما يجعله إنساناً يفرض نفسه على ما حوله، ويأخذ امتداده المطلق في كل ناحية، وقد جعلهم هذا الشعور أصحاب حساسية شديدة بأنفسهم، مما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق، ولقد بلغ بهم هذا الأمر هذا التطرف، يقول بشامة بن حزن النهشلي:

لو كان في الألف منا واحد فرحوا مه فارس خالهم إياه يعنوننا

وقول طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا مه فتى خلتُ أنبي عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهذه الخصلة ولا شك تجعل صاحبها رجل صدق ووفاء، إذا قال كلمة وقف عندها، فلم يغلبه نسيان، ولم تزله رهبة.

ب- الشجاعة: فلقد طبعت البيئة العربية أنباءها على إلف الصعاب، وقلة المبالاة بالشدائد، ومواجهة الموت ببسالة ورغبة، وابتسام.

يقول الشاعر دريد بن الصمة:

أبي القتل إلا آل صمة إنهم أبوا غيره والقدري يجري إلى القدر
بغار حلينا وأتريه فيشتقي بنا إن أصبنا أو نغير على وتر
بذاك قسمنا الدهر شطريه بيننا فما ينقضني إلا ونحده على شطر

وقول الآخر:

شَدْنَا شِدَّةً فَعَقَلْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثَةَ فِتْيَةٍ وَأَسْرَتُ قَيْنَا
 وَشَدَّوْا شِدَّةً أُخْرَى فَجُرُّوْا بِأَرْجُلٍ مِثْلَهُمْ وَوَمَوْ جُونِنَا
 وَكَانَ أَخِي جُوبَيْهٌ ذَا حِفَاظِ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَتْيَاهِ زَيْنَا

فنحن إذا أمة ترى الموت شرفاً للإنسان، وهذا هو معنى الشهادة في الإسلام، وإن كانت الشهادة سَمَت بالنظرة إلى هدف التضحية في النفس، وهذه التضحية مفتاح الشهادة، والباب العريض لامتلاك الحياة، قال أبو بكر الصديق "أطلب الموت توهب لك الحياة".

لكن السؤال الذي نطرحه بشدة هو: ألس هنالك اتساق بين روح الشجاعة العربية، وبين روح الاستشهاد في الإسلام، ثم أليست الرسالة الإسلامية التي تقوم على معاندة الظلّام وسخطهم أحوج ما تكون إلى هذه الخلفية.

ج- الكرم: وكما كان العربي شجاعاً كان كريماً سماحاً، فيتهيأ لمقابلة أضيافه، وهو متهلل الأسارير وطيب النفس.

قال الشاعر:

تَصْبُو بِمَدْرَجَةِ الطَّرِيقِ قَدْوَهُمْ يَتَسَابَقُونَ إِلَى قَرَى الضِّيْفَانِ
 وَبِقَاءِ مَوْقِدِهِمْ يَجُودُ بِنَفْسِهِ حُبُّ الْقَرَى حُبُّهَا عَلَى النَّبِيَانِ

ولقد تغنى العرب في إيصال اللقمة إلى الكبد الجائعة، لذلك كانوا يرقدون النار في الجبال ليهتدي بها الضالون، وسميت هذه النار "نار القرى"¹، وفي ذلك قالت الخنساء تصف أباها:

وَإِنْ صَبَخْنَا لَتَأْتُمُ الْعِدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلمٌ فِي رَأْسِهِ نَارِ

¹ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص241.

وكانوا يضعون الماء في حياض داخل الحرم ليستقي منه الحجاج، وكانوا يسقونهم مجاناً الزبيب المنبوذ بالماء¹ ومنهم من كان يسقي اللبن والعسل، وأول من فعل ذلك هو سويد بن عامر الجمي، وأبو أمية بن المغيرة المخزومي المعروف بزاد الركب وأبو وادعة بن سعد بن سهم، وعدي بن نوفل.

وفي طبقات ابن سعد أن هاشماً بن عبد مناف «وقد ولي السقاية والرفادة» كان إذا حضر الحج قام في قريش ليقول: ((يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيوف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك، وأكرمكم به، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه، فكانت قريش تراهن على ذلك حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم بن عبد مناف يخرج في كل عام مالاً كثيراً، وكان كل إنسان يرسل بمئة مثقال، وكان هاشم يأمر بحياض من آدم "جلد" فتجعل في موضع زمزم، ثم يستقي فيها المارق، وكان يثردهم الخبز، واللحم والخبز والسمن)).

ولقد عظم الرسول (ﷺ) هذه الشمائل، قال: ﴿كُلُّ مَآثِرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي إِلَّا سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَسِدَانَةَ الْبَيْتِ﴾.

ولقد ساهم الشعر الجاهلي في رسم هذه الصورة يقول الشاعر²:

¹ - محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت، تحقق الدكتور حسن نصار، ومراجعة د. جميل سعيد وعبد الستار أحمد فراج، 181/10 (مادة سقي).

² - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص85.

وعند المقلية السماحة والبذل

على مكثرهم زرق من يقربهم

وقول الشاعر:

والمنعمية على الفقير المبرم¹

والخالطيه مخديهم بفقيرهم

وقول الأعشى:

وأسي وأصلح بينها وسعي لها²

وأهأه صالح ماله لفقيرها

وكان عوف بن أبي عمرو بن شيبان ينادي في الناس: ((والله لا يدخلها جائع إلا شبع، ولا خائف إلا أمن، وروى أن حزم بن حزام كان يقاسم ريحه الفقراء))³.

ومن تقاليدهم مساعدة الضال والمنقطع والمغرب عن أهله⁴، وكان بعض أصحاب النفوس الرقيقة يفتدي البنات من الواد، ومن هؤلاء صعصعة الفرزدق الذي اقتدى أربعمئة جارية⁵.

وفي ذلك قال الفرزدق:

وأحيا الوئيدة فلم يواد¹

وجدني الذي منه الوائدات

¹ - إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي: كتاب الأمالي، 151/2.

² - أبو المصباح عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني الكوفي، المعروف بأعشى همدان: ديوان الأعشى: 35/3.

³ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص84.

⁴ - المرجع السابق، ج4، ص87.

⁵ - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: تفسير القرطبي، 117/10.

وكان عمرو بن نضيل يفتدي المؤدة ويقول لأبيها: ((إن شئت تركتها أو أعدتها إليك)).

ومنهم من حبس الحبوس لتكون وقفاً على الفقراء، وفي ذلك خاطب ابن ربيعة بن الأسود للرسول (ﷺ) بقوله: ((يا رسول الله أن أبي كان قد وقف نخلاً، فأمضيها، فأمر الرسول بإمضائها)).²

وقال معاوية: ((وددت لو أن صاحب نخل ربيعة بن أسود مكان الخلافة لي)). ولقد ظهر في الجاهلية العديد من الرجال الكملة الجواد من الذين ضرب المثل في كرمهم، منهم كعب الإبادي وأوس الطائي وهرم بن سنان وعبد الله العنبري، وعبد الله بن جدعان حيث لفت بمطعم الصبر ومطعم الريح (أي الشفاء)³، وقصة تحمل هرم بن سنان والحارث بن عوف إبان قتلى الحرب بين عيسى وذبيان، هذه القصة معروفة، حيث أنبرى زهير بن أبي سلمى لمدحهما في شعر، الذائع الصيت، ومن الذين تصدوا لذلك سعد بن حشمت فقد أبى ألا يرى أسيراً إلا قتله⁴.

ولقد عرف عن العرب إقراء الضيف والرفادة من إرث إبراهيم⁵، ولقد ظهرت العديد من المفاهيم للتعبير عن الكرم ذلك الأريحي «زاد الركب» جفنة للركب...

¹ -مرتضى الزبيدي: قاموس تاج العروس من جواهر القاموس،: 220/2.

² - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص84.

³ - المرجع السابق، ج4، ص581.

⁴ - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: الاشتقاق، ص 193.

⁵ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص583.

وهكذا وصف الكريم بالسيد الحمول تشبيهاً له بالبحر، ووصد بجواد الكلب بسبب أنس كلبة (لا يهر كلبه)¹.

1- المروءة:

لقد ذهب العرب في هذا المضمار مذهباً لم يبلغهم سواهم، بل إن هذا المفهوم الأخلاقي معهوداً لدى الأمم الأخرى.

ومن مظاهر ذلك الغيرة على الأعراض وصيانة الحريم²، وهناك سجايا أخرى عديدة تفيض بها النفس العربية، مثل الصراحة والأنفة³، إن كانت المروءة تعتبر النواة النووية في منظومة القيم العربية، والمحور الذي يشد كافة أنساق وقيم الحلم والصبر وقرى الضيف وإغاثة الملهوف ونصرة الجار وحماية الضعيف، فهي كالدين عند المسلم⁴، تجد مصداق ذلك في قوله (ﷺ): ﴿الدينُ المروءة، وكَلَا دِينٍ إِلَّا بالمروءة﴾⁵، وعلى هذا الأساس قالت العرب: ((الهامة هو السيد النجد إذا وعي أنجد، وإذا طلب أجاب))⁶.

وفي نظرنا أن هنالك توأمة بين المروءة عند العرب والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في الإسلام، وإن كان النظام الإسلامي أكثر صقلاً وضبطاً للهدف والغاية والأسلوب.

¹ -مرتضى الزبيدي: قاموس تاج العروس من جواهر القاموس،: 41/9.

² - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص29.

³ - المرجع السابق، ص29.

⁴ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص574.

⁵ - المرجع السابق، ج6، ص574.

⁶ -مرتضى الزبيدي: قاموس تاج العروس من جواهر القاموس،: 361/8.

ولقد أعجب المؤرخان "ديودروس" الصقلي و"حيرودوت" بالعرب ووصفاهم بأنهم يعتقدون بالإدارة الحرة، وهم يعيشون الحرية ويحافظون عليها، ويأبون الضيم والخضوع للغير، ويقعون في وجه كل قوة تحاول استرقاقهم وإذلالهم، وهذا ما أكده أيضاً "لامانس" بقوله إن العربي نموذج فذ للديمقراطية¹.

وهذا هو مغزى حجبهم الحماية عن الشخص الذي يعمل ما يناه في الشرف، حيث أطلقوا عليه اسم الخليع واللعين والطريد، وكان يعلنون ذلك في المواضع العامة، وفي مواسم الحج ويكتبون كتاباً بذلك².

2- الناحية الاجتماعية:

يمكن التأكيد بأن المجتمع العربي كان بالمقارنة مع الفرس والروم مثلاً -خالياً من الفساد.

ذلك أن خلو الجزيرة العربية من الملول أبعدها عن الاستبداد وبالمقابل فلم يكن سيد القبيلة جباراً، بل أقرب ما يكون إلى نظام الأبوة لأسرة كبيرة تقوم على التماسك والتراحم، وهذا ما وفر لكل فرد، الأمان والاطمئنان.

وإلى هذا النظام يرجع، فضل ما ظفرت به دعوة الإسلام، حيث رفض بنو هاشم أن يخلو بين النبي (ﷺ) وبين أعدائه، وهذا يفسر أيضاً إجارة المطعم بن عدي «وهو مشرك» للرسول (ﷺ).

¹ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج4، ص14.

² - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، 52/8.

ولقد بلغ الأمر في نضج نظام الإجارة أنه كان ربما يقارب الصيغ القانونية الحديثة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾ النساء/36.

وكان أحدهم «لاسيما رئيس القبيلة» إذا أجار الآخر التزم بعقده، وإذا دخل المستجير خياره أو قنيه ودار حولها صار آمناً¹، وبالمقابل فإن رفض الإجارة تجلب الذل، وفضلاً عن ذلك فقد أوصوا بالجار خيراً، كما أوصوا بالجار أن يغض طرفه، وهذا ما رواها البلاذري بأن مجيراً قال لجاره، لولا أنك جار لقتلناك²، وقد استجاروا بقبور العظماء، مثل عامر بن الطفيل، فقد وضعوا على قبره أنصاباً، حتى إذا احترقها المستجير اعتبر آمناً³، كذلك فقد استجاروا بالأماكن المقدسة وفي مطلع ذلك الكعبة.

ومن مظاهر حماية الإنسان لأخلاق كما سبق ذكره ثم تحريم القتال في الأشهر الحرم وعدم الاعتداء على القاتل، كما حرّموا التعرض للحيوان في الأماكن المقدسة⁴، ويكفي لحماية الشخص أن يتقلد لجار الحرم سواء في قصده الحج أم في أوتيه، أو في حال التجارة وغيرها.

¹ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، ص361.

² - المرجع السابق، ج1، 41/1.

³ - المرجع السابق، ج1، ص306.

⁴ - المرجع السابق، ج6، ص225.

ولقد ذكرنا سابقاً أن قريشاً تغنت بأنها آل الله وجيران الله وسكان حرم الله¹.

ولقد أكد "حيروdot" أن للحلف حرمة وقدسية خاصة عند العرب لا تشاركهم في ذلك أي من الأمم، وأنهم كانوا يوقدون النار، ويدعون بالموت على من ينقض العهد، كما كانوا يطرحون الملح والكبريت، فإذا استشاطت قالوا للحالف هذه النار تهددك، حتى يحافظ على عهده، وسموها نار الهول.

وعرف في الجاهلية قوماً سموا "بالزاوة" حملوا السلاح للزود عن المظلومين.

وكانوا يدونون العهود ويحفظونها في المعابد كما حدث بالنسبة لصحيفة قريش في مقاطعة بني هاشم وللمعاهدة بين الأوس والخزرج ثم للعهد بين عبس وذبيان².

قال زهير بن أبي سلمى:

ألا أبلغ الأحلاف عنِّي رسالةً وذبيان هل أقسمتم كل مقدس

وكان أحدهم إذا أكل من طعام أخلص له، وكانهم أرادوا إدخال القسم في جسم المتخالفين، لهذا كان يضعون إصبعهم في جفنة دم أو في الطيب أو في الماء المقدس ثم يلعقون أصابعهم أو يشربون من ذلك الماء³.

¹ - أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، 3/317.

² - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص383.

³ - المرجع السابق، ج4، ص385.

وقد يتحول الحلف إلى نسب، لذلك فالأسير إذا تعذر عليه الغذاء طلب من أسرته أن يكون حليفاً له ولقبيلته واستحق أن يرث من القبيلة كالصريح من أبناءها¹.

ولم تعرف بطحاء مكة، ولا ما حولها الكهانة الدينية التي نجدها لدى الديانات الأخرى، مما حرر العربي عن ربة هذه الجزيرة.

إن الجزيرة العربية عرفت النصرانية أو اليهودية، لكن ذلك كان محدوداً، الأمر الذي يمكن الحديث عن الأمية الدينية لعرب الجاهلية²، وهذا ما هيا الرحمة الطبيعي لتلقي بدور الإسلام ولم يعهد العرب كابوس نظام الإقطاع، ومن جهة أخرى فالعلاقة بين السادة والأتباع أقرب إلى الكرامة الإنسانية³.

يقول بشر بن المغيرة بن المهلب بن أبي صُفْرَةَ:

وَلَلْعَمُّ قَدْ نَالَ شَبْعاً لِبَطْنِهِ وَشِبَعٌ الْفَتَى لَوْمٌ إِذَا جَاءَ صَاحِبَهُ

وجو الحرية الفريد في هذه الوهاد والنجاد أتاح لضيوف الناس الخلق المفعم بالنخوة والإباء والحمية والعفو والحلم والصفح والتضحية والإيثار والاعتزاز والكرامة الاجتماعية والسياسة التي لا نظير لها⁴.

¹ - جرجي زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي، 23/4.

² -نقصد الأمية التوحيدية.

³ - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص33.

⁴ - المرجع السابق، ص34.

وهذا ما أكده المؤرخ "حيروودوت" بأن العرب هم الشعب الوحيد الذي رفض الخضوع للفرس بل عاملوهم معاملة حلفاء¹، ولقد امتاز العربي أيضاً بحدة الفهم وصفاء الذهن وإحكام التعبير وسرعة الإدراك وسهولة العيش وصفاء الفطرة والبعد عن التصنع² ومع التنويه بأن الإسلام في جوهره نظام الفطرة.

وحقيقة الأمر أنك لتجد أعرابياً يسأل كيف عرفت الله فيقول: ((البصيرة تدل على البصير والأثر يدل على المسير، فأرض ذات فجاج وسما، ذات أبراج، أفلا تدل على الخبير البصير))³.

والى هذه السجية المستتيرة والطبع المستقيم السهل الذي لا يألف النقائص والالتواء الفكري.

يرجع نجاح الإسلام في حجابة مع أولئك العرب، فقد كان سؤاله لهم: هل يملكون الخلق والرزق والتدبير، فتكون الإجابة: لا، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يونس/31.

¹ - د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج4، ص408.

² - الشيخ محمد الغزالي: حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ص34.

³ - المرجع السابق، ص34.

الجهر بالدعوة

استم الرسول (ﷺ) وصحبه يدعون الناس إلى الإسلام سرّاً، وكان ازدياد عدد المسلمين قليلاً بسبب الخوف من نفوذ قريش وبطشها، لذلك كان أصحاب الرسول يستعينون بالكتمان، بما في ذلك أداء الصلاة، حيث كانوا يخرجون إلى ظواهر مكة وشعابها .

ومع ذلك، فقد تسربت أبناء الدعوة، وأخذت قريش ترهف السمع، وتراقب محمداً وصحبه، وترصد سلوكهم وتحركاتهم، تذكر لنا الموارد التاريخية¹ أن سعداً بن أبي وقاص، كان مع نفر من أصحاب الرسول في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين، فشح رأسه، وكان هذا أول حادث اصطدام مع المشركين .

وفي الحقيقة لقد حرص الرسول (ﷺ) أن يتجنب كل اصطدام مع قريش، لذلك فقد اختار لأصحابه مكاناً معتزلاً، هو دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهو سيد من سادات قريش، وكانت داره على مقربة من الصفا، وكان الرسول (ﷺ) يجتمع فيه بأصحابه، يعظهم ويرشدهم، ويصلي بهم، ويتلو عليهم ما أوحى إليه، فكانت تلك

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص137 .

الدار بمثابة القاعدة، أي كمسجد، وناد ومدرسة، واستمر الأمر مع ذلك ثلاث سنين، ازداد عدد المسلمين قليلاً، حتى بلغ فقط حوالي الأربعين من الرجال والنساء، أكثرهم من المستضعفين، ثم أوحى الله إلى رسوله أن ينذر عشيرته الأقربين، وهذا ما تؤكد الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء/214، وصدع الرسول (ﷺ) بأمر ربه، فجمع أقرباءه، وكان فيهم عمه عبد العزى بن عبد المطلب، الملقب أبا لهب، وقد سمي بذلك لأنه وجهه كان مشرقاً تتلهب وجنتاه بالحمرة، وكان سرياً من سراة قريش، وثرياً كثير المال، شديد التعصب لقريش وتقاليدها، وكانت فيه حدة وسفاهة، وكان الرسول يقدر ذلك أحسن التقدير، لذلك فقد صنع لأقربائه طعاماً، ودعاهم، فحضروا، وكانوا نحو أربعين رجلاً، فلما انتهوا من طعامهم، تأهب الرسول (ﷺ) للكلام، ولكن أبا لهب قاطعه قائلاً: ((هؤلاء عمومتك، وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصباة، ولا تعرض قومك إلى غضب العرب، إذ ليس لنا في حربهم طاقة، فارج نفسك، وعلى بني أبيك، واعلم أن العرب لن يتركوك، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك، ونحن أولى بتأديبك، وما رأيت أحداً جاء على بني أمية بشر بما جئت به))¹.

وكان نائراً مهتاجاً، وقد جحظت عيناه، وانتفخت أوداجه، وجعلت عيناه ترسلان الشرر، ونظر الرسول (ﷺ) فإذا القوم سكوت، وإذا الجو وجوم، فعلم أن الفرصة لم تحن، فسكت ولم يتكلم في ذلك المجلس، ولبث الرسول (ﷺ) أياماً، ثم دعاهم إلى وليمة أخرى، ولعله كان راغباً ألا يدعو أبا لهب، ثم رأى أن يدعوه اتقاء شره، وطمعاً في هدايته، وحضر أبو لهب، وفي هذه المرة، تكلم الرسول (ﷺ) قائلاً:

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 139.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الرَّائِدَ لَا يُكْذِبُ أَهْلَهُ، أَتَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى
النَّاسِ عَامَّةً، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ، فَقَالَ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَأَنَا
أَدْعُوكُمْ إِلَى كَلِمَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَيْنِ فِي الْمِيزَانِ: شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَمُوتَنَ كَمَا تَنَامُونَ، وَلِتَبْعَتَنَ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلِتُحَاسِبَنَ
عَلَى مَا تَعْمَلُونَ، وَلِتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لِلْجَنَّةِ أَبَدًا، أَوْ
لِلنَّارِ أَبَدًا... يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ، وَاللَّهُ مَا أَعْلَمَ شَابًا جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا جِئْتُمْ،
إِنِّي جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَنْ يُجِيبُنِي إِلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَيُوَازِرُنِي عَلَى الْقِيَامِ
بِهِ﴾¹.

فتكلم عمه أبو طالب كلاماً لينا، واعتذر اعتذاراً لطيفاً، فقال: ((ما أحب
إلينا معاونتك، وأقبلنا نصيحتك، وأشد تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك
يجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنني أسرعهم إلى ما تحب، فامض إلى ما أمرت
به، فوالله لا أزال أحوطك، وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين
عبد المطلب))².

أما أبو لهب فقد ثارت ثائرتة، وصاح كما يصيح الأسد الهائج: ((هذه والله
السوأة... خذوا على يديه، قبل أني أخذ على يده غيركم، فإن أسلمتموه حينئذٍ
ذلتتم، وإن منعتموه قتلتم)).

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 140.

² - المرجع السابق، ص 141.

ولقد حاولت أخته "صفيه" أن تهدئ من روعه، فقالت: ((أيحسن بك خذلان ابن أخيك، ألا يسرك أن يخرج من ضئضى «أصل» عبد المطلب بنى...؟ فصاح بها ثائراً: هذا والله الباطل والخيال وكلام النساء في الحجال، فإذا قامت بطون قريش، وقامت العرب معهم، فأين قوتنا منهم...؟ فما نحن إلا أكله رأس، فقال أبو طالب: والله لئمنعنه ما بقينا))، ونظر القوم إلى أبي طالب، فإذا هو مصمم يعي ما يقول، فرأوا أن من العار أن يتخلوا عن ابن أخيه، فأنحازوا إلى أبي طالب، وخرج أبو لهب مخذولاً يندر ويتوعد، ومنذئذ دبّت العداوة بين أبي لهب وبنى هاشم، واندفع أبو لهب في عدائه دون ضوابط، حتى أنزل الله فيه سورة عنيفة تنذره وزوجته بالويل والثبور، مع العلم أن ابنتي الرسول (ﷺ) رقية وأم كلثوم كانتا زوجتين لعتبة وعتيبة ابني أبي لهب.

أما زوجة أبي لهب وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان زعيم بني أمية فقد وصفها الله بحمالة الحطب وهي صفة النمامة الواشية التي تشعل نار الفتن، فتحرق ما بينهم من حملات الود والتراحم، فهبط إلى أسفل درك حين صورها في صورة الحطابة التي لا تكاد أن تمشي إلا وفي جيدها حبل من مسد، تلم فيه الحطب من هنا وهناك لتشعل به النار.

ولقد كانت عداوتها للرسول (ﷺ) أكثر من زوجها، فكانت تضع في طريقه الشوك والقذر، وتعيّره بالفقر وموت البنين، وتدعوه "مذمماً"، وقد أثار أنها قالت: ((مذمماً قلينا، ودينه أينا، وأمره عصينا)).

وكان (ﷺ) يضحك من ذلك، ويقول: ﴿يَا عِبَادُ اللَّهِ أَنْظِرُوا كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَهُمْ وَلَعْنَهُمْ، يُشْتَمُونَ مَذْمَمًا، وَيَلْقَبُونَ مَذْمَمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ﴾.

ولعل حمالة الحطب هذه كانت مدفوعة إلى ذلك بسبب النزاع بين رهط بني هاشم، ورهط بني أمية، إضافة إلى أنها كانت حماة لابنتي الرسول (ﷺ)، وقد بلغ بها الحقد أن دفعت ولديها فطلقا زوجتيهما نكايه بالرسول (ﷺ).

ومع ذلك، فهذه البغضاء لم تمنع الرسول (ﷺ) من الجهر بالدعوة، حين أمره الله بذلك، وهكذا فقد صعد على الصفا، وأخذ يصيح: يا صباحاه! صباحاه!... جرياً على عادة العرب حين يتداعون إلى أمرهم، فاجتمعت إليه بطون قريش، فبادرهم قائلاً: ﴿أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا وَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟؟... قَالُوا نَعَمْ... أَنْتَ عِنْدَنَا غَيْرُ مَتَّهِمٍ، وَمَا جَرَيْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَطُّ....، قَالَ إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ... يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي زَهْرَةَ، يَا بَنِي تَيْمٍ، يَا بَنِي مَحْزُومٍ، يَا بَنِي أُسْدٍ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُنذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، وَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنَفَعَةً، وَلَا مِنَ الْآخِرَةِ نَصِيبًا، إِنَّا أَنْتُمْ قَوْلُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، انْقُدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، فَطَاعَةُ أَبِي لَهَبٍ، بِقَوْلِهِ: تَبًّا لَكَ، أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا ﴿﴾ فأنزل الله فيه قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ المسد/1.

وبالطبع، فهذه الصيحة لم تذهب سدى، أو شاع حديث الدعوة في مجالس قريش وأنديتهم، وتهيأت النفوس للأمر، وأخذ الناس يتسللون إلى الرسول (ﷺ) تباعاً يستوضحونه أمر هذا الدين، فيشرحه لهم، فيسلمون، وبالمقابل فقد ازداد سخط الفريق المعادي، وكانوا من الزعماء والقادة أمثال: أبو جهل بن هشام، أبو لهب بن عبد المطلب، عقبة بن أبي معيط وكان عقبة هذا جار الرسول، مثل أبي لهب، وكان الرسول «فيما روت عائشة» يقول: ﴿كُنْتُ بَيْنَ شَرِّ جَارَيْنِ بَيْنَ أَبِي لَهَبٍ وَعَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ إِنْ كَانَا لِيَأْتِيَانِ بِالْفُرُوثِ فَيَطْرَحَانَهَا عَلَى بَابِي حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لِيَأْتُونَ بِبَعْضِ مَا يَطْرَحُونَ مِنَ الْأَذَىٰ فَيَطْرَحُونَهُ عَلَىٰ بَابِي...﴾.

أسباب معاهدة قريش للرسول (ﷺ)

كانت قريش في اعتقاد العرب أهل الحرم، وكان للحرم مكانته في النفوس، ومن أجل ذلك كانت قريش موضع تعظيم، منهم أولوا الأمر، وأصحاب الحل والعقد، تسعى العرب إليهم في كل موسم حج بما يحملون من الأمتاع والهدايا، وكان نظام الرق راسخ الأقدام في المجتمع المكي وكانت قريش تفيد كثيراً من هذا النظام، إذ أن العبيد كانوا كالأيدي العاملة، إضافة إلى أنهم مظهر من مظاهر الأبهة والسلطان ومن الطبيعي إذاً أن تتعارض مصلحة قريش مع الإسلام الذي يسوي بين السيد والعبد، بين الضعيف والقوي، بين الغني والفقير.

وكان الإيمان بالدار الآخرة صدمة أخرى لهؤلاء السادة، لا يقل عنفها عن الصدمة الأولى، فقد كانوا يعيشون في حرية مطلقة، يخوضون ويلعبون ويرتعون في الشهوات كما يشاؤون، دون رقيب أو حسيب.

وكانت عقيدة التوحيد أعنف الصدمات وأشدّها وقعاً عليهم، فالله وحده مالك الملك، وما عداه باطلٌ وبياب، وهكذا، فقد قوضت هذه الديانة دينهم وآلهتهم وعقائدهم ومصالحهم.

أبو طالب وقريش

أخذ صوت الإسلام بعد صحة الصفا يرتفع في مكة، وأخذ المسلمون يتحدثون به جهراً بعد أن كانوا يتهامسون، وأخذ الناس يتساءلون عن هذا النبأ العظيم في بيوتهم وأنديتهم ومجالسهم، وأخذ المستضعفون يجدون فيه الأمل لحياة أفضل، أما هؤلاء الذين يظلمونهم من السادة والأقوياء، فليس الله بغافل عنهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ابراهيم/42، أجل لقد بعثت هذه المبادئ السمحة الأمل في نفوس هؤلاء المستضعفين، فأقبلوا يتدافعون إلى الإسلام فيقبلهم الرسول (ﷺ)، ويسوي بينهم وبين الذين يؤمنون من السادة.

لم تكن قريش تأبه «بادئ ذي بدء» للرسول ودعوته، فهو مجرد كاهن يتوهم الحق، كما يصوره له تبعه من الجن، فيصوغه في ألفاظ مسجوعة كلاماً أجوف، وهو أيضاً شاعر يهيم في أودية الخيال، ويسبح في متاهات الضلال، ويأتي القرآن الكريم ليرد على هؤلاء مؤكداً أن الرسول (ﷺ) ليس بشيء من ذلك.. ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿40﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿41﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ الحاقة/40-42.

وانتشر الإسلام، وبدأ الرسول (ﷺ) يسدد الضربات على آلهة قريش، وأخذوا يحسون بالخطر، ويفكرون في القضاء عليه لكن ما العمل؟.

شباب قريش دفعهم الحماس للقضاء على الخطر من جذوره متمثلاً في الرسول (ﷺ)، أما الشيوخ فقد رأوا ضرورة المناقشة والحوار عليهم يصرفون الرسول (ﷺ) عن أمه ومسعاه.

وتغلبت حكمة الشيوخ واجتمع الملائم من قريش بالرسول (ﷺ)، وكان رد الرسول (ﷺ) ما علمه وأدبه ربه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿1﴾ لَأَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿2﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿3﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿4﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿5﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الكافرون/1-6، قال ابن اسحق: ((فلما رأت قريش رسول الله (ﷺ) لا يقيهم من شيء، أنكروا عليه من فراقهم، وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب، قد حذب عليه، وقام دونه، ومشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب، وقالوا له: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسعة أحلامنا، فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً، فانصرفوا عنه... ثم استشرى الأمر بين قريش والمسلمين، فمشى وفد آخر منهم إلى أبي طالب قائلين: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا استنهيناك من ابن أخيك فلم تنتهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتفويه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم.

قال ابن اسحق: إن أبا طالب ذهب على أثر ذلك إلى الرسول (ﷺ) وخاطبه قائلاً: يا ابن أخي، إن قومك قد جاوؤني وقالوا كي كذا وكذا... فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني في الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول أن عمه خاذله فقال: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم استعبر رسول الله (ﷺ)، فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه عمه، فقال: أقبل يا ابن أخي، فأقبل رسول الله (ﷺ)، فقال: اذهب فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك.

قال ابن اسحق: ثم إن قريشاً مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، فتى في قريش وأجمله، فخذها واتخذها لك ولداً، وأسلم إلينا

ابن أخيك، قال أبو طالب: لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغدوه لكم،
وأعطيكم ابني تقتلونه.

وجمع أبو طالب بني هاشم وعرض عليهم ما دار بينه وبين قريش، وتشاوروا،
واتفقوا «باستثناء أبي لهب» على أن يقفوا صفاً واحداً مع الرسول ﷺ).

الأضهاد والنهذيب

لقد ملأ موقف أبي طالب قلب قريش غيظاً، ولم يجدوا متنفساً لهذا البرميل من الغضب إلا التكييل بالضعفاء من المسلمين وابتدأت فصول التعذيب.

- بلال بن رباح الحبشي، يلقيه سيده أمية بن خلف الجمعي في الرمضاء وقت الظهر على وجهه وظهره، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة، فتلقى على صدره، ويقول: ((لا والله لاتزال كذلك حتى تموت، أو تكفر بمحمد، فيرد بلال قائلاً: أحدٌ... أحدٌ.. ويرى أبو بكر هول ذلك المنظر، فيقرع أمية، ويفتدي بلالاً بغلام، وأخذ أبو بكر بلالاً وأعتقه)).

- عمار بن ياسر وأبوه كانا يخرجان إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء فيعذبان بحرهما، فمر بهما الرسول (ﷺ)، فقال: ﴿صَبْرًا آلُ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ...﴾، ومات ياسر من التعذيب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل، فطعنها في قبلها بحرية فماتت وهي أول شهيدة في الإسلام.

ولقد شددوا على عمار، وقالوا: ((لن نتركك حتى تسب محمداً وتقول خيراً في اللات والعزى، ففعل، فتركوه، وأتى النبي يبكي على ما فعل، فقال له الرسول (ﷺ): وكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً)).، فأنزل الله قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ

إِيمَانِهِ إِنَّمَا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ
غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿النحل/106﴾ .

- وخباب بن الأرت، كان أبوه سوادياً، نسباه قوم بن ربيعة، وحمل إلى مكة، وبيع إلى سباع بن عبد العزى الخزاعي، وكان إسلامه قديماً، قبل سادس سنة ولقد أخذه الكفار وعذبوه، فكان يعرى، ويلصق ظهره بالرمضاء، ثم بالرضف "الحجارة المحماة بالنار"، فلم يستسلم، وهاجر، وشهد المشاهد كلها مع الرسول (ﷺ).

- وصهيب الرومي، عذب في الله عذاباً شديداً، ولما أراد الهجرة منعه قريش، فافتدى ذلك بكافة أمواله.

- وعامر بن فهيرة، أسلم قديماً قبل دخول الرسول (ﷺ) دار الأرقم، وكان من المستضعفين، عذب في الله، فلم يتراجع، واشتراه أبو بكر، وأعتقه، وهاجر إلى المدينة يخدم الرسول (ﷺ) وأبا بكر، وشهد بدرأً وأحداً، واستشهد يوم بئر معونة، ولما طعن، قال: فزت ورب الكعبة.

- وأبو فكيهة، كان عبداً لصفوان بن أمية، أخذه أمية، وربط في رجله حبلاً، وأمر به فجر، ثم ألقاه في الرمضاء، ومرّ به جعل والجعران، فقال له أمية: أليس هذا ربك؟.. فقال: ((الله ربي، وربك، ورب هذا، فخنقه خنقاً شديداً))، وظن أنه مات، ثم أفاق، فاشتراه أبو بكر، وهاجر ومات قبل بدر.

- ولبيبة جارية بني مؤمل، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب، وكان هذا يعذبها، وتفنن بذلك التعذيب، وكان يقول لها: ((إني لن أدعك إلا سامة، فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم، واشتراها أبو بكر فأعتقها)).

- وزنيرة، عذبتها أبو جهل، حتى عميت، فقال لها: ((إن اللات والعزى، فعلا بك، فقالت: هذا أمر السماء، وربي قادر على رد بصري، فأصبحت وقد رد الله إليها بصرها، فقالت قريش: هذا سحر محمد))، فاشترها أبو بكر، وأعتقها .

- والنهدية، مولاة بني نهد، صارت لامرأة من بني عبد الدار، وكانت تعذبها، وأبتاعها أبو بكر، وأعتقها .

- وأم عنيس، وهي أمة لبني زهرة، عذبها عبد يفوت، فابتاعها أبو بكر وأعتقها .

قال ابن اسحق: ((حدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قلب لعبد الله عباس: أكان المشركون، يبلغون من أصحاب رسول الله (ﷺ) من العذاب، ما يعذبون به عن ترك دينهم؟ قال: نعم... إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه حتى لا يقدر على الاستواء جالساً من شدة الضر، حتى يقولوا له: اللات والعزى آلهتك من دون الله؟.. فيقول: نعم... حتى أن الجمل ليمر بهم، فيقولون له: هذا الجمل إلهك من دون الله؟، فيقول نعم... افتداء منهم مما يبلغون من جهده)).

روى البخاري عن قيس، قال: ﴿سَمِعْتُ خَبَابًا يَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ (ﷺ)، وَهُوَ مَتَوَسِدٌ بِبُرْدِهِ، وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ؟... فَقَعَدَ وَهُوَ مُحَمَّرًا لَوَجِّهِ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَتُمَشَّطَ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عَظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمَنْشَارُ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ، فَيَشَقُّ بِأَثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلِيَتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى

يَسِيرُ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِنْ أَلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبُ عَلَى غَنَمِهِ،
وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٤٠﴾.

ولم يقتصر هذا التعذيب على المستضعفين، بل تعداه إلى من له عشيرة
تحميه، فقد عذب عثمان بن عفان من قِبَلِ عمه، حيث أوثقه بحبل من سمد،
وجعل يضرب به ضرباً مبرحاً، ولف الزبير بن العوام في حصير ترك ليستشق
الدخان، وشج عمر بن الخطاب رأس أخته فاطمة، حتى سال الدم منها، وضرب
زوجها سعيد بن زيد، وقيد أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد، وحبس،
وضرب أبو بكر، حتى شج رأسه، وسال الدم منه وغشي عليه.

وتفنونوا في تعذيب الرسول (ﷺ)، فوضع الأقدار والشوك في طريقه، وسبه أبو
جهل، وخنقه عقبة بن أبي معيط في رجال من قريش، حتى كادت نفسه تفيض،
وسلطت عليه ثقيف سفهاءها يرمونه بالحجارة، واتهم بأنه شاعر وكاهن ويجنون،
وغير ذلك من النعوت والأوصاف.

العبر المستقاة من هذا التعذيب

لما لم يعصم الله رسوله من هذا العذاب الشديد ٩٩..

نجيب على ذلك في الآتي:

1- إن العصمة التي أخذها الله على نفسه أن يحمي بها رسوله، إنما هي العصمة من القتل، أي من اغتيال الرسالة، التي كلف الرسول (ﷺ) بالاضطلاع بها في شخصه، ولا تعني العصمة حفظ الرسول من المكروه¹.

2- إن الرسل كلفوا بأثقل ما يمكن أن يكلف به إنسان، فهم إذاً يتحملون من المشاق، بما يتناسب مع هذا التكليف، والأمر نفسه بالنسبة للمؤمن، الذي تقاس عبوديته لربه، بقدر ما يبذل في سبيله من تضحيات وميثاق، وهذا ما يؤكد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الم ﴿1﴾ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿2﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت/1-2.

○ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران/142.

○ ﴿لَتَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ آل عمران/186.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص93.

ولقد تحلى عليه الصلاة والسلام بالوافر من الذوق السليم والعشور الرقيق
والرحمة العامرة بأمرته، الأمر الذي جعله يؤثر أن يعذب دون أن يتميز على صحبه
بالراحة والطمأنينة، ألم يؤثر عليه الصلاة والسلام الفقر الفاقة، ألم يتعرض إلى
السخرية والعذاب، وهجران الوطن، وبذلك فقد خفف من آلام صحبه، وضرب
لهم المثل الأعلى في التضحية والفداء...

المفاوضات مع قريش

لما بات قريش أن الدعوة الإسلامية في حال قوة ونمو، أرسلت إلى الرسول (ﷺ) عتبه بن ربيعة، محددة هدف هذه المفاوضات، باجتذاب الرسول (ﷺ) بالمال والجاه، وغير ذلك، وجاء عتبه إلى الرسول (ﷺ)، وكان هذا سيداً في قومه، ذا بصيرة ورأي، فكلمه، وقال له: ((يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت جماعتهم، وسفهت أحلامهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، فقال له الرسول (ﷺ): قل يا أبا الوليد، قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد مالاً جمعناه لك، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالاً حتى نُبرئك)).

فقال الرسول (ﷺ): أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.. قال: فاسمع مني، ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿1﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿2﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿3﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَّا يَسْمَعُونَ ﴿4﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَامِلُونَ ﴿5﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿6﴾ فصلت/1-6.

ثم مضى الرسول (ﷺ) في القراءة وعتبة يسمع حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَتَمُودَ﴾ فصلت/13، فأمسك بغيه وناشده الرحمة أن يكف عن القراءة خوفاً مما تضمنت الآية من التهديد ..

وعاد عتبة إلى أصحابه، فقالوا له: ((ما وراءك يا أبا الوليد؟... قال: إني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا هو بالسحر، ولا بالكهانة... يا معشر قريش، أطيعوني واخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإنه يظهر على العرب فملكه ملككم، وهزه عزكم... قالوا: سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أبا الوليد، قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم))¹.

روى الطبراني وابن كثير أن نضراً من المشركين، منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، جاؤوا، فعرضوا على الرسول (ﷺ) أن يعطوه من المال حتى يكون أغناهم، وأن يزوجه أجمل أبنائهم، على أن يتخلى عن شتم آلهتهم، فلما رفض قالوا: فتعبد آلهتنا يوماً ونعبد إلهك يوماً، فرفض² ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿1﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الكافرون/1-2، وعادت قريش فكررت مهمة عتبة بن ربيعة، وذهبت إليه مجتمعة، وعرضت عليه الزعامة والمال والغلب، فقال لهم الرسول (ﷺ): ((مأبي ما تقولون... ما جئت بما جئتم أطلب أموالكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وانزل عليّ كتاباً، وامرني أن أكون بشيراً

¹ -سيرة ابن هشام، 1/293.

² - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 2/337.

ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم.

فقالوا له، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك علمت أنه ليس من الناس أحداً أضيّق ببدأ، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليفجر لنا أنهاراً كأنها الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن منهم قصي بن كلاب، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل، وليجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب، فإن صنعت ما سألتناك، صدقناك، فقال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا¹.

ثم إنهم قالوا للرسول (ﷺ): ((إنا قد بلغنا إنه بعلمك هذا رجل في اليمامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبداً، فقد اعدرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك، وما بلغت منا حتى نهلك، أو تهلكنا، ثم قاموا، وانصرفوا)).

¹ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 337/2، وسيرة ابن هشام، 296/1.

الدلائل والعبير

الدلالة الأولى: هو صحيح ما تشدق به "كريم" و"فان فلوتن" بأن الرسول (ﷺ) كان يستهدف من وراء دعوته السيادة والزعامة¹.

إن هذا التشكيك أتفه من أن يرد عليه، لسبب بسيط هو كثرة ما عرض على الرسول من مظاهر الإغراء على يد عتبه وغيره كما أوضحنا.

الدلالة الثانية: هل تستقل الوسيلة عن الغاية، أم محكومة بها خاضعة لهيمنتها.

لا شك أن الغايات العظيمة تستلزم وسائل سليمة سديدة، فالوسيلة هي الطريق إلى الغاية، فهي جزء منها، ومحكومة بأليتها، ومن ثم فالوسيلة يجب أن تتكافأ شرفاً مع الغاية التي جاءت لتحقيقها، وهذا هو مبدأ سد الذرائع في الإسلام.

لقد كان بإمكان الرسول (ﷺ) أن يتقلد زعامة قريش، ثم يكرس هذه الزعامة لصالح الإسلام، فيفصل بذلك بين الغاية والوسيلة، ولكن هذا يتعارض مع سمو هذا الدين، وسمو هذه النبوة التي تكرس الأخلاق هدفاً ووسيلة.

الدلالة الثالثة: لماذا لم يستجب الله لقريش، فيأتي على يد رسوله بالمعجزات؟... مع العلم أن الرسول (ﷺ) أوتي بالكثير من هذه الخوارق والمعجزات...

الجواب واضح، وهو أن الله علم أن قريشاً تطالب بذلك من باب النجاح والتحدي والعناد والاستهزاء، ولو علم فيهم صدق المطلب، أو حسن النية لحقق «والله أعلم» لهم ذلك¹.

¹ - فان فلوتن: السيادة العربية و الشيعة و الاسرائيليات في عهد بني أمية.

ومن ثم فحالة قريش يحكمها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿14﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾
الحجر/14-15.

فقريش غير صادقة في طلبها هذا، ولو أتى الله بالخوارق على يد الرسول (ﷺ) لاستزادوا، وأصرروا على استكبارهم وعنادهم.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص173.

حياة قريش

ما هي غاية الرسول (ﷺ) من دعوته في نظر قريش؟..

هل يبغى المال، أم الجاه، أم الزعامة؟

لقد رفض كل ذلك.. إذاً ما وراء هذه الدعوة؟

هل الرسول شاعر، أم كاهن، أم ساحر، أم دجال؟

كيف يكون ذلك، وقد تبعه رجال من علية القوم، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة، وغيرهم...

اجتمع رجال قريش يتشاورون، فقال قائل منهم: ((كان محمد فيكم غلاماً، حتى إذا رأيتم من صدغته الشيب، قلتم ساحر، لا والله، ما هو بساحر.. لقد رأينا السحرة ونفثهم، وعقدهم، وقلتم: كاهن... لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة، وخاطبناهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر.. لا والله، ما هو شاعر.. قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه، ورجزه.. وقلتم: مجنون... لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا سوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله، قد نزل بكم أمر عظيم))¹.

وهكذا، فقد أخذت قريش تقلب وجوه النظر، وتدرس دين محمد خفية، وتتعرف مبادئه وأحكامه، وتستمع إليه من وراء حجاب، وهو يتلو القرآن في صلاته،

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص173.

فبروعها ما ينطوي عليه هذا القرآن من عجب النظم وسعة الإحاطة ودقة المعنى، وحلاوة الأسلوب، ويروقها ما ينطوي عليه هذا الدين من مبادئ العدل والإحسان.

روى ابن اسحق: ((أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريف بن وهب الثقفي، خرجوا ليلة ليستمعوا إلى الرسول (ﷺ)، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم مكان صاحبه، فيأتوا يستمعون إليه، حتى إذا طلع الفجر، تفرقوا، وجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض، مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل مجلسه، فيأتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر، تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريف، أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، قال الأخنس: وأنا «والذي حلفت به كذلك»، قال: ثم خرج حتى أتى أبا جهل، فدخل على بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا، فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!!.. فحتى ندرك مثل هذه؟.. والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه)).

وغدت قريش بين موقفين، إما أن تعترف بأن محمداً رسول الله، وإما أن تمحوا ذكره من الوجود، وكان من المستحيل التسليم بالموقف الأول، بسبب الحسد،

وبسبب وجود رجال من قريش يطمعون في النبوة، وهو ما يتضح من قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ¹ عَظِيمٍ﴾ الزخرف/31.

ثم كيف تكون النبوة في محمد، وهنالك من هو أكثر منه ثراء والثراء هو معيار المكانة في الجاهلية...

من أجل ذلك قال الوليد بن المغيرة.. أينزل على محمد، وأترك أنا «كبير قريش وسيدها»، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير سيد ثقيف، ونحن عظيمنا القريتين ٩٩.

ولقد خطأ الله هذه النظرة المسفهة، وأظهر أنه هو الذي يَمُنُّ بالكرامة على من يشاء، وفي ذلك يقول: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الزخرف/32.

وتمضي الآية السابقة تهون من شأن الحال، وتخطئ هذه النظرة الضيقة للناس في ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ الزخرف/33.

وأخذ القرشيون يشككون في القرآن وأنه ليس من عند الله، ويستمليه محمد ممن يجالسهم من أهل الكتاب، ولكن الله تعالى سفه هذا الرأي قائلاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا فِكْ أَفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿4﴾
﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الفرقان/4-5.

وجعلوا يتهمون بهذا الدين، ويعرضون مبادئه بسخرية، قال تعالى موضحاً ذلك: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَّزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿7﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ سبأ/7-8.

¹ -القريتان: مكة وطائف.

هذه الترسانة من اللجاج والتشكيك لم تجد فتياً، وبالعكس فقد تكاثر المسلمون، وكان إسلام عمر وحمزة نقطة انطلاقاً جديدة للدعوة، حيث تشجع المترددون وأخذ الناس يدخلون في دين الله إرسالاً من الرجال والنساء، وازدادت حيرة القوم، وأخذوا يفكرون في سلام جديد .

الحصار الاقتصادي

لم تَفد قريش من كافة مظاهر التعذيب والسخرية والإرهاب التي استعملتها ضد المسلمين، بل لم يزد ذلك المسلمين إلا مضاءً وقوة وفضحاً لكبرياء قريش ونفياً لآلهتها .

ولكن هل بإمكان قريش أن تواجه محمداً (ﷺ) بالحجة والبرهان، وقد أيده الله بحجج القرآن: البالغة الواسعة .

إذاً كان لابد من سلاح جديد تشهره قريش على محمد (ﷺ)، فما هو هذا السلاح؟ قال ابن اسحق: ((فلما رأت قريش أن أصحاب الرسول (ﷺ)، قد نزلوا بلداً آمناً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، اجتمعوا وأتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاهدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ثم تعاهدوا، وتوافقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم، وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، وخرج من بني هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم .

وأحكمت قريش الحصار، فنصبت العيون والأرصاد، وبالغت في القسوة، فقطعت على المسلمين الأسواق، واستمرت المقاطعة نحواً من ثلاث سنين، حيث نزل بني

هاشم وبنو عبد المطلب البلاء، مما اضطرهم إلى أكل الخبط (ورق الشجر)، وسمع صراخ أطفالهم من وراء الشعب، ولكن قسوة هذه القطيعة انتشرت بين العرب الذين أخذوا يتساءلون عن السر وراء ذلك، وهذا ما هياً الأسباب لانتشار الدعوة الإسلامية وذيوعها .

لقد احتمل بنو هاشم وبنو عبد المطلب المقاطعة كراماً، أعزة، شحاً، وبالمقابل فلم تتل قريش جراء ذلك إلا السمعة السيئة في نظر أبناء الجزيرة العربية.

ولقد أحس نضر بسوء فعلة قريش، فأخذوا يمدون المحصورين بما يستطيعون من الطعام، وكان منهم هشام بن عمرو العامري، وحكيم بن حزام)).

قال ابن اسحق: ((ثم اطلع الرسول (ﷺ) على أمر الصحيفة، وأن الأرضة (العتة) قد أكلت ما فيها، باستثناء ذكر الله، فذكر رسول الله (ﷺ) ذلك لعمه أبي طالب، فقال أبو طالب لقريش: إن ابن أخي قد أخبرني أن الله قد سلط على الصحيفة الأرضة، فلحست كل ما فيها من جور وقطيعة رحم، وبقي فيها كل ما ذكر به الله، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم، فقتلتموه، قالوا: قد انصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة، ففتحوها، فإذا هي كما قال رسول (ﷺ)، فسقط في أيديهم، ونكسوا على رؤوسهم، فقال أبو طالب: علام تحبس وتحصر وقد بان الأمر؟؟ ثم وصل وأصحابه بين أستار الكعبة، فقال: اللهم انصرنا ممن ظلمنا وهز هذا المظهر في نفوس ذوي المروءة من قريش، وقاموا ينقض الصحيفة، وهم هشام بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البحترى بن هشام، واضطرب أمر قريش، فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فشقها)).

الدلائل والعبير

1- انحياز بني هاشم وبني عبد المطلب إلى المسلمين:

واضح أن الذي دفع هؤلاء إلى نصرته المسلمين، إنما هو حمية القرابة، أما الدافع إلى صبر المسلمين، فهو الإيمان بالله وإيثار الآخرة على الدنيا، وبالطبع، فإن حماية أقارب رسول الله له لم تكن حماية للرسالة، بقدر ما هي حماية لشخص الرسول (ﷺ).

2- الإسلام والغنيمة:

إذا سائرنا التفسير الاقتصادي لحركة التاريخ، فكيف نفسر سر هذه المحاصرة، وهل كان المسلمون، ولا سيما المستضعفون منهم -يبيغون من وراء ذلك الغنيمة والنفع المادي؟.. وأين هذا اليسار الاقتصادي الذي جنوه.. وحققوه؟.. بماذا يجب أولئك الذي يتأولون رسالة محمد بأنها ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين؟..

في الحقيقة ليس الدافع الاقتصادي هو الذي دفع المستضعفين وغيرهم إلى اعتناق الإسلام بقدر ما هو تكريم الله لهم وهدايتهم واعزازهم لحياتهم، قال تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص/5.

فالقضية أبعد من الاقتصاد، وأهم من الاقتصاد.. إنها الكرامة الإنسانية، ومفتاحها الأول الإيمان بالله، ولا كرامة حقيقية أو تكريم لمشرك.

الهجرة إلى الحبشة

رأى الرسول (ﷺ) أن قريشاً ممعنة في تعذيب أصحابه وأنه غير قادر على رد البلاء عنهم، فخشى عليهم الفتنة ورأى أن يختار لهم مكاناً آمناً، وكانت الحبشة هي الخيار.. وحدث الرسول (ﷺ) أصحابه قائلاً: ﴿لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضٌ صَدُوقٌ...﴾.

وكانت الحبشة تدين بالنصرانية، وملكها صادق في دينه، وقد خرج إلى هذا البلد أحد عشر رجلاً وأربع نساء، وجعل النبي عليهم عثمان بن مظعون، وكانت الهجرة في السنة الخامسة للرسالة.

وأكرم النجاشي مثنوى هؤلاء المهاجرين، وأحسن لقاءهم، وهذا ما شجعهم على بيعتوا في طلب إخوانهم المعذبين في مكة، وهكذا فقد حدثت هجرة جديدة، حيث بلغ عدد المسلمين المهاجرين زهاء الثمانين رجلاً، عدا من كان معهم من النساء والأطفال...

قال ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ: ((لما رأَت قريش المهاجرين قد أطمأنوا، أرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما هدية إلى النجاشي وأعوانه، وقال لهم: إن أناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدع لا يعرفه نحن ولا أنتم، وقد أرسلنا أشرف قومهم إلى الملك ليردهم إلينا، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يرسلهم معنا، فوعدهما أصحاب النجاشي بالمساعدة.

وهكذا فقد أشار أصحاب النجاشي إليه بتسليم المسلمين فغضب من ذلك، وقال: لا والله، لا أسلم قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني دون سواي)).

وأرسل النجاشي إلى المهاجرين، فحضرُوا، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب فقال النجاشي: ((ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم؟؟ فقال جعفر: أيها الملك، كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف.. حتى بعث الله إلينا رسولاً، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا لتوحيد الله، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام.. فأما به، وصدقناه، وحرمنا ما حرم، وحللنا ما أحل، فتعدى علينا قومنا ليردونا عن عبادة الأوثان، وخرجنا إليك واخترتناك.. فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟؟ قال: نعم، وتلا عليه من سورة "مريم"، فبكى النجاشي، وأسأفته، وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة.. انطلقا، فو الله لا أسلمهم إليكم.. فقال عمرو بن العاص: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً!!... فسألهم النجاشي عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فقال النجاشي للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون.. ورد هدية قريش...))¹.

وطابت إقامة المسلمين في الحبشة، ولم يرجع منهم إلا عثمان بن عفان وزوجه رقية ابنة الرسول (ﷺ)، أما بقية المهاجرين فبقوا نحو أحد عشر عاماً، ورجعوا إلى المدينة بعد الهجرة ولم يعيش المسلمون في الحبشة بمعزل عن الناس، بل شاركوهم في الأحزان والأفراح، وفي الوقوف معهم ضد ثورة قامت عليهم، وهكذا

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 160.

فقد ضربوا مثلاً عالياً في العرفان بالجميل، وكان بين النبي (ﷺ) والنجاشي مراسلات وكتب تحمل آيات الود والاحترام، من ذلك ما كتبه الرسول (ﷺ) طالباً الزواج من أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكان زوجها عبد الله بن جحش قد توفى في الحبشة، فرأى الرسول (ﷺ) أن يكرمها على ما تحملت من مشاق السفر وفقدان الزوج، وقد زوج النجاشي الرسول (ﷺ) أم حبيبة، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وحين استقر أمر المسلمين في المدينة كتب الرسول (ﷺ) إلى النجاشي كتاباً يطلب منه أن يبعث إليه بقية أصحابه، ففعل، وحملهم في سفينتين.

وحيث بعث الرسول (ﷺ) رسائله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام كان النجاشي أول من أسلم، وأكرم وفادة أصحاب رسول (ﷺ)، وأحسن الرد على كتابه، وبعث إليه وفداً من أصحابه، وقام الرسول بخدمة هذا الوفد بنفسه، فقال له أصحابه: ((نحن نكفيك ذلك، فقال: إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وإني أحب أن أكافئهم)).

ونعى الرسول (ﷺ) النجاشي قائلاً لأصحابه: ﴿مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَحَبِّكُمْ﴾، وصلى الرسول (ﷺ) عليه صلاة الغائب، لقد أنفق المشركون الأموال والهدايا ليحملوا النجاشي على تسليم المهاجرين، ولكن حق قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ الأنفال/36.

الدلائل والعبر

1- معنى الهجرة إلى الحبشة:

لا أحد يتصور أن هذه كانت بسيطة، وإنما رحلة ألم شاققة وقاسية تنطوي على مفارقة الأهل والوطن، وبالطبع فإن وجود المسلمين في الحبشة كان فرصة نادرة لدعوة أهلها إلى الإسلام والتعريف به، حيث أثمرت هذه الدعوة، وأسلم من الحبشة عدد كبير، وحضر وفد منهم إلى الرسول¹ (ﷺ). وبالطبع فإن مكة لم تكن دار الإسلام حتى يمكن النعي على هذه الهجرة، والقول بأن المهاجرين تركوا دار الإسلام إلى دار الكفر.

2- العلاقة بين بعثة محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام:

إن نصرة النجاشي للمسلمين المهاجرين تؤكد بما لا يقبل الشك أن دين هؤلاء المهاجرين لا يختلف في شيء عما يعتنقه النجاشي، وإلا لما كانت هذه النصرة... ومن جهة أخرى فقد أعطى المسلمون رأي الإسلام في عيسى بن مريم، ومن ثم فلو كان النجاشي يؤمن أن عيسى ابن الله لما انتصر للمسلمين الذين يخالفونه بالرأي، وبالعكس فقد اعتبر النجاشي الإسلام والنصرانية يخرجان من مشكاة واحدة تعبيراً عن الأصل الواحد.

3- حكم دخول المسلمين في حماية غير المسلمين:

يجوز للمسلم أن يدخل في حماية غير المسلم إذا دعت الحاجة سواء أكان المجير كتابياً كالنجاشي أم مشركاً كما حدث عندما عاد بعض المسلمين المهاجرين إلى الحبشة فدخلوا مكة.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص114.

وبالطبع، فذلك مشروط بألا يضر ذلك بالدعوة الإسلامية أو يؤدي إلى تغيير بعض أحكام الدين أو السكوت عن اقتراف المحرمات.

والدليل على ذلك موقف الرسول من طلب عمه أبو طالب، أن يبقي على نفسه، وألا يحمله مالا يطيق، فلا يتحدث إليه عن المشركين بالسوء، فقد وطَّن الرسول (ﷺ) نفسه للخروج من حماية عمه، وأبى السكوت عما يجب عليه إعلانه وبيانه.

4- تأثير الهجرة على قريش:

لقد أشاعت هذه الهجرة جواً من الخوف في مكة وتركت رجال قريش حيارى لا يدرون ما يفعلون، فقد أحسوا أن المسلمين المهاجرين، أصبحوا في بلد من فتح لهم صدره، ومكن لهم نشر الدعوة، بل اعتقدوا أنه ربما تقوم للمسلمين دولة في الحبشة تنقض فتقضي عليهم¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص163.

أول وفد إلى رسول الله (ﷺ)

عرضنا سابقاً للنجاح الباهر الذي حققته الهجرة إلى الحبشة والزلال الذي أحدثته في قريش، الأمر الذي بلغ بها المخاوف أنها اعتقدت أن المسلمين قد ينجحون في تحقيق دولة لهم في الحبشة تكون بمثابة ذراع طويلة ضد قريش.

وبالفعل فقد كان من الثمار اليانعة لهذه الهجرة أن جاء إلى الرسول (ﷺ) وفد مؤلف من بضعة وثلاثين رجلاً من نصارى الحبشة، جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب، وقد جلسوا إلى الرسول (ﷺ)، وسمعوا كلامه، وأطلقوا على صفاته وأحواله، وسمعوا ما تلى عليهم من القرآن.

وقد علم أبو جهل بذلك، فأقبل إليهم قائلاً: ((ما رأينا ركباً أحق منكم... أرسلكم قومكم تعلمون خير هذا الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال... فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم... لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً))¹.

فنزل في حقهم قوله تعالى²: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿53﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَبَدَرُوا بِالْحَسَنَةِ الْسيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿54﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ القصص/52-55.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص116.

² - رواه ابن اسحق ومقاتل والطبراني عن سعيد بن جبیر، وانظر ابن كثير والنيسابوري في تفسير هاتين الآيتين.

الدلائل والعبر

1- التجرد لله تعالى:

النية في الإسلام هي الحامل الأخلاقي الحقيقي والمسلم الحقيقي الذي يحض عمله ويجرده لوجه الله دون أن يلهث وراء النتائج، بل تكتفي بتوفير الأسباب، مصداقاً لقول الرسول العظيم (ﷺ): ﴿اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ﴾، الأسباب والنية الحسنة ابتغاء مرضاة الله ليس إلا، هذه الشروط كفيلاً بتحقيق النصر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّصِرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمْ﴾ محمد/7.

هذا ما حدث للرسول الكريم (ﷺ) وصحبه، فقد ضاقت بهم الأرض بما رحبت، ولكن سرعان ما جاء الفرج من مكان لم يكن في الحسبان، من الحبشة، من هذا المكان البعيد، وليس من مكة.

2- الإيمان الذي آمن به الوفد:

هل معنى الإسلام هذا الوفد أنهم خرجوا من دين آبائهم ودخلوا الإسلام؟ في الحقيقة أن إيمانهم كان استمراراً لإيمانهم السابق، لأن الإنجيل يأمر بإتباع الرسول (ﷺ) الذي يأتي من بعد عيسى، وقد تحدث عن صفاته، ومن ثم إيمانهم بالرسول (ﷺ) من مستلزمات الإيمان بالإنجيل، وليس انتقال من دين لآخر، من مفضل إلى فاضل، بل إن هنالك استمرارية وخط واحد للدين الإسلامي، وإن اختلفت الأشكال والمظاهر، لا الماهيات والجواهر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنََّّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ القصص/53، وبيان ذلك أن الإيمان بالإنجيل والتوراة على حقيقتهما هو الإيمان بالقرآن، وهذا

هو معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ﴾ المائدة/68.

علم الجوز

مرض أبو طالب، وثقل، فخشيت قريش قومه، وقوة شوكة المسلمين بعده، فذهبت إلى أبي طالب ليفصل بينها وبين ابن أخيه روى ابن اسحق: أن وفد قريش قال لأبي طالب: ((يا أبا طالب إنك منا، وقد حضرنا ما ترى، وتخومنا عليك، وقد علمت ما بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذلنا منه، وخذله منا، ليكف عنا ونكف عنه، فبعث أبو طالب إليه فجاء، فقال له: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا إليك، ليعطوك، وليأخذوا منك، فقال الرسول (ﷺ): يا عم كلمة واحدة يعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم -وأبيك- وعشر كلمات!.. قال: تقولون لا إله إلا الله، فصفقوا بأيديهم، وقالوا: يا محمد، أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟.. إن أمرك لعجيب!.. ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل معطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم.. حتى يحكم الله بينكم وبينه... ثم تفرقوا))، ولم يلبث أبو طالب أن توفي، ثم ماتت خديجة على إثره، وأصبح رسول الله (ﷺ) أمام عدوه وجهاً لوجه، وانفردت قريش بالرسول (ﷺ)، وانفسحت أمامها الفرص لأن تنفث حقدتها وعداوتها تجاه الرسول (ﷺ)، وهكذا فقد وجدت منفذاً إليه، فنالت منه ما لم تكن تتل في حياة أبي طالب، وتعرض له سفهاؤها يؤذونه بالسنتهم وأيديهم، حتى لقد تحركت الحمية في صدر عدوه أبي لهب، منهم أن ينهض لحمايته، كما كان ينهض

أبو طالب، فجاءه يوماً وقال له: ((يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب، أفلا واللات لا يصل إليك شيء حتى أموت)).

ولكن شياطين قريش جعلوا يحتالون على أبي لهب، ويدسون بينه وبين رسول الله (ﷺ)، حتى تخلص عن نصرته، وحينئذٍ خلا الجو لقريش في إيذاء الرسول (ﷺ).

لقد اجتمعت على رسول الله (ﷺ) في فقد عمه وزوجته مصيبتان: فقد النصير، وفقد المجير، وقد اشتد به الحزن، وبلغ منه كل مبلغ، حتى سمي هذا العام عام الحزن.

أجل أين ذلك القلب الكبير الذي كان يشكو إليه، فيشكيه (يزيل ألمه)، ويركن إليه فيواسيه؟؟...

أين منه ذلك العقل الحصين الذي كان له وزير صدق في الشدة والرخاء في البأساء والضراء؟؟.. أين آماله؟؟.. أين منه خديجة؟؟... تلك الزوج الوفية التي آمنت به حين كفر الناس، وصدقته حين كذبه الناس وأغنته بمالها، وأزرت برأيها وعزيمتها؟؟..

قال "ابن سعد" في الطبقات الكبرى: ((لما توفى أبو طالب وخديجة «وكان بينهما شهر وخمسة أيام» لزم بيته، وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال، ولا تطمع به)).

قال صاحب السيرة النبوية والآثار المحمدية: ((دخل (ﷺ) بيته يوماً والتراب على رأسه، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله، وتبكي، ورسول الله يقول لها: لا تبك

يا بنية، فإن الله مانع أباك، وكان (ﷺ) يقول: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)).

روى مسلم عن ابن مسعود قال: ((بينما كان رسول الله (ﷺ) يصلي عند البيت، فقال أبو جهل: من يقوم إلى سلا (غلاف الجنين) جزور، فيأخذه فيضعه في كتفيه، واستضحكوا، ثم انطلق اثنان، فأخبر فاطمة، فجاءت، فطرحته عنه، ثم أخذت تشتمهم، فلما قضى الرسول صلاته، رفع رأسه ثم دعا عليهم، ثم قال: اللهم عليك قريش، فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، فو الذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر)).

وروى ابن اسحق عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن الرسول (ﷺ) طلع يوماً على جماعة من قريش، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: ((أنت الذي تقول كذا وكذا؟)) فيقول رسول الله: نعم.. قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه، فقام أبو بكر دونه، وهو يبكي، ويقول: تقاتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟)).

وذكر ابن اسحق: ((أن أبا بكر رجع يومئذٍ وقد صدعوا فرق رأسه، مما جذبوه بلحيته)).

وروى ابن كثير عن ابن اسحق: ((أن بعض أعداء النبي (ﷺ) من جيرانه، كان يضع رحم الشاة في برمته «القدر والفخار» إذا نصبت له، فكانوا إذا طرحوا شيئاً من

ذلك يحمله على عود ثم يقف به على بابه، ثم يقول: يا ابن عبد مناف أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق)).

الدلائل والعبر

1- الحكمة من تعجل قضاء الله تعالى بوفاة خديجة وأبي طالب:
مما لاشك فيه أن وراء تعجيل وفاة عمه وزوجته حكمة إلهية بالغة، وبيان ذلك أنه لو بقي عمه إلى جانب الرسول (ﷺ) يكلؤه، ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية في المدينة، إذ لكان في ذلك ما قد يوهم أن أبا طالب كان وراء هذه الدعوة يوجهها ويخطط لها..
وكذا الأمر بالنسبة لزوج خديجة، فلو أنها بقيت إلى جانبه لجا من ينسب الأمر إلى العون الذي كان يراه فيها، وكل ذلك مما يحجب صاحب هذا الوهم عن إدراك حقيقة النبوة واليقين بها¹.

2- معنى عصمة الرسول (ﷺ):
لقد وعد الله رسوله بعصمته، وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة/67.
ولا شك أن المقصود من العصمة هنا، العصمة من القتل، الذي حول دون إبلاغ الرسالة، وليس العصمة من الأذى التي تصهر الرسول (ﷺ) في بوتقة الألم، فتزيده صلابة وقوة.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص120.

3- المقصود من عام الحزن:

قد يتوهم بعضهم أن هذه التسمية التي أطلقها الرسول (ﷺ) إنما مردها أسباب شخصية هي وفاة عمه وزوجه .
والحقيقة خلاف ذلك، إذ كان الإسلام في مرة من المرات، لأن يطبع بهذا الطابع الشخصي .

وعلى هذا كان سبب هذه التسمية، هو استغلال سبيل الدعوة في وجه الرسول (ﷺ)، بسبب شدة التضيق عليه من قريش من أجل تخفيف هذا الحزن كانت تنزل على الرسول (ﷺ) آيات مواسية، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿33﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنتَاهُمْ نَصْرَنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ ﴿الأنعام/33-34﴾ .

أجل لقد ثبت الله قلب رسوله، وأيده بقوته، ولولا ذلك لزعزعه الإيذاء، وليهره الإغراء، وهذه إحدى المنن التي من الله بها على رسوله (ﷺ) إذ يقول: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾ ﴿73﴾ وَلَوْ لَا أَنْ نَبَتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿74﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿الإسراء/73-75﴾ .

موافق النحدي

كان الرسول (ﷺ) قد وضع في حديثه الأول مع عمه أبو طالب، الدستور الذهبي لعبء الأمانة الملقاة على عاتقه، وذلك بقوله: ﴿ يَا عَمُّ! وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ﴾، لم يحد الرسول (ﷺ) عن هذا الدستور قيد شعرة في أهلك الظروف وأشدّها ظلاماً، قبل وفاة عمه وزوجه أو بعد ذلك، فقد وجدت به قريش خصماً عنيداً لا تلين له قناة، ولا تطاله الجبال الراسخات شمماً وإباءً.

لذلك، فقد رأت قريش أن تأتيه عن طريق التعجيز والتحدي، لعلها تستطيع بذلك أن تثبط همته، أو تكشف عجزه للناس، فينصرفوا عنه، وعن دعوته. إذاً فليطالبوه بالمعجزات، وليحدوه أن يقدم برهاناً كما فعل غيره من الرسل والأنبياء.

روى ابن اسحق عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى عبد الله بن عباس¹: ((أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض:

ابعثوا إلى محمد فكلّموه، وخاصّموه حتى تعذروا فيه، وجاوروه حتى تقيموا عليه الحجة.

¹ - لقد تم اختصار هذه الرواية مع الحفاظ على روحها، انظر المطول لدى أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص195.

فبعثوا إليه، فجاءهم، وهو يظن أن تدبيراً لهم فيما كلمهم منه بداء، فجلس إليهم، فقالوا له: ((لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، فإن كنت تطلب مالأً، جمعنا لك، وإن كنت تطلب الشرف نسودك علينا، وإن كان بك رثياً (التابع من الجن) طلبنا الطب لك.

فقال الرسول (ﷺ): ﴿مَا بِي مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ أَطْلُبُ مِنْكُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي، فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرُ لِأَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

قالوا: يا محمد، قد علمت أنه ليس من الناس أحداً أضيّق بلدًا، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك فليسير هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسّط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنها الشام والعراق، وليبعث لنا من ماضى من آباءنا، وليكن قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسأله عما تقول، أحق هو أم باطل، فقال لهم الرسول (ﷺ): ﴿مَا بِهِذَا بَعَثْتُمْ إِنَّمَا جِئْتُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، وَقَدْ بَلَّغْتُمْ بِمَا أُرْسَلْتُمْ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

قالوا: فإذا لم تفعل، فسل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، وسله، فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة.

فقال لهم رسول (ﷺ): ﴿مَا بَعَثْتُمْ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي بِشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً.

قال الرسول (ﷺ): ﴿ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ لَكُمْ فِعْلٌ﴾.

قالوا: فليتقدم ربك وليخبرك، ما هو صانع في ذلك، إذا لم نقبل منك، ما جئتنا به؟... إنه قد بلغنا أنك إنما بعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وأنا والله لا نتركك، وما بلغت حتى نهلكك، أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك، قام عنهم الرسول (ﷺ)، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة «وهو ابن عمته» فقال له: والله لا أؤمن بك أبداً، حتى تتخذ إلى السماء سلباً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك ما تقول.

أما أبو جهل، فقد وقف بعد انفضاض المجلس يقول: يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، واني أعاهد الله، لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حمله، وليضع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك، فامض لما تريد)).

وفي الصباح، أخذ أبو جهل حجراً، ثم جلس ينتظر الرسول (ﷺ)، فلما سجد عليه الصلاة والسلام، احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه، رجع منهزماً منتقياً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده¹.

وقامت إليه قريش، فقالوا: ((مالك يا أبا الحكم، قال: قمت إليه، فلما دنوت منه، عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته «أصل العنق» ولا أنبأ به لفحل قط)).

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص197.

قال ابن اسحق: فذكر لي أن رسول الله (ﷺ)، قال: ﴿ذَلِكَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ﴾.

وكان يشق على الرسول (ﷺ) أن يتحداه أهله وعشيرته هذا التحدي، وأن يتهموه
بالجنون والسحر والكهانة، وكم تمنى لو أن الله هداهم إلى الإيمان، وكم حزن
الحزن الشديد على ذلك، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذًا
الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ الكهف/6.

ولكن الله العليم بما كان وما يكون، قد علم: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس/33، ﴿وَلَوْ
جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ يونس/97.

وكان سبحانه وتعالى يخفف عن الرسول (ﷺ) يواسيه، بما يلقي في نفسه
السكينة، وبما يقص عليه من أنباء الرسل، وما كانوا يلاقون من التكذيب والأذى،
ويؤكد له النصر القريب.

ولقد جمعت الآيات الأربع التالية، ما لم يجمع غيرها من هذه الأعراض حيث عز
الله فيها رسوله وعاتبه، وحذره، وواساه، وشجعه، ونبهه إلى سنته في الكون، ثم
أيأسه من إيمان هؤلاء المعاندين، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ
فَإِنَّهُمْ لَأُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ 33 ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ 34 ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ
أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ

عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿35﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿ الأنعام/33-36 .

الرحلة إلى الطائف

ذكرنا سابقاً أن قريشاً نالت من المسلمين إيذاءً «بعد وفاة أبي طالب» ما لم
تكن تتله منهم قبل الوفاة¹ .

حيال ذلك، فكر الرسول (ﷺ) في كسر هذا الطوق، فوجد الحل في التماس نصره
ثقيف في الطائف، لاسيما أن أهل الطائف يعتبرون أحوال الرسول من الرضاة، إذ
استرضع «كما هو معلوم» في بادية بني سعد التي هي جزء من بادية الطائف.

والطائف كما هو معلوم كمكة، مركز تجاري لها أوثق الصلات بتجارة اليمن، وهي
في الوقت نفسه ذات مناخ جيد، ومشهورة بخصبها وجودة محاصيلها، حتى أن
بعض أثرياء مكة كانوا يمضون فصل الصيف فيها، ويمتلكون الأراضي لهذه الغاية.
وأشهر قبائل الطائف، هي قبيلة ثقيف، ولكنها كانت أدنى مكانة من قريش،
لاسيما بعد حرب الفجار، إذ اضطرت للاعتراف بسيادة قريش عليها، لاسيما في
الميدان المالي² .

وكان في الطائف تكتلان سياسيان رئيسيان هما: بنو مالك والأحلاف.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص201.

² - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الاسلام،
ص419.

أما بنو مالك، فقد كانوا على صلوات وثيقة مع بني هوازن الذين كانوا أصحاب السيادة على أغلب الأراضي المجاورة للطائف، لذلك وجد الأحلاف أنفسهم مضطرين إلى أن يمتنوا تحالفهم مع قريش حتى يقيموا التوازن بينهم وبين بني مالك¹.

ويذكر ابن اسحق أن الرسول (ﷺ)، حين وصل إلى الطائف اتصل بنفر من ثقيف، هم يؤمئذ ساداتها وأشرفها²، وهؤلاء النفر هم ثلاثة إخوة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير وأخواه مسعود وحبيب، وغيرهم من فئة الأحلاف الأكثر صلة بقريش، وكان المتوقع أن يتصل بالفرع الآخر (بني مالك) الذين لا تربطهم بقريش نفس صلوات الأحلاف³.

ولقد جلس الرسول (ﷺ) عند عبد ياليل بن عمرو بن عمير إلى هؤلاء الرجال، وحدثهم عن دعوته، ودعاهم إلى الله، ولكنه لم يلقَ عندهم القبول الحسن، بل ردوا عليه رداً منكرًا، وفاجأوه، بما لم يكن متوقع من الغلظة وسمح القول، وقد رجاهم الرسول (ﷺ) أن يكتموه خبر مقدمه إليهم عن قريش، فلم يجيبوه، وأبعد من ذلك، فقد أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، ويرجمونه بالحجارة، حتى أن رجله لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، وقد شج في رأسه عدة شجاج⁴، ووصل الرسول (ﷺ) إلى بستان لقبه بن ربيعة، فلجأ إلى ظل شجرة

¹ - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الاسلام، ص419.

² - انظر ابن هشام: القسم الأول، ص419.

³ - المرجع السابق، ص420.

⁴ - ابن سعد : الطبقات الكبرى، 1/196.

عنب، فجلس، وابنا ربيعة ينظران إليه، لما اطمأن في ذلك الظل، رفع رأسه يدعو إلى الله: ﴿اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضَعْفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلِّمِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي؟ إِنَّ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنْ عَافِيَتِكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلِّحْ عَلَيَّ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِي غَضْبُكَ، أَوْ يُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ﴾.

ولقد تحركت الشفقة في قلبي ابني ربيعة، فأرسل غلاماً نصرانياً اسمه عداس إلى الرسول (ﷺ) ومعه قطف من العنب، وقال عداس للرسول (ﷺ): ((والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له وأنا رجل من أهل نينوى «قرية بالموصل»، فقال له الرسول (ﷺ): من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟... فقال عداس: وما يدريك به؟، ذلك أخي كان نبياً، وأنا نبي، فانحنى عداس على الرسول (ﷺ) يقبل رأسه، ويديه ورجليه¹، ويقول الرواة: إن عداساً أسلم...، وأنه معدود من صحابة رسول الله))².

قال ابن اسحق: ((ثم إن الرسول (ﷺ) انصرف من الطائف إلى مكة، حتى إذا كان "بنخلة" قام من جوف الليل يصلي فمر به نفر من الجن، فاستمعوا إليه، وقد أجابوا إلى ما سمعوا)).

¹ - سيرة ابن هشام، 420/1.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص206.

وقد قصَّ الله خبرهم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ إلى قوله: "وَيَجِرُّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ" الأحقاف/29، وقوله: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ الجن/1.

ثم عاد الرسول (ﷺ) أدراجه ومعه زيد، يريد دخول مكة، فقال له زيد: ((كيف تدخل عليهم، وهم أخرجوك؟...)) فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإنه ناصر دينه، ومظهر نبيه، ثم أرسل رجلاً من خزاعة إلى "مطعم بن عدي"، يخبره أنه داخل مكة في جواره، فاستجاب مطعم))¹.

وبات عند مطعم ولما أصبح الرسول (ﷺ) خرج، ومعه مطعم وبنوه الستة، وقد تقلدوا السيوف، فدخلوا المسجد وقالوا لرسول الله (ﷺ): ((طف، فأقبل أبو سفيان إلى المطعم، فقال: أمجير أم تابع؟.. قال المطعم: لا بل مجير... قال أبو سفيان: إذا لا تحضر))²، واضطرت قريش أن تمضي جوار المطعم، وقد عرفت أن الرسول سيعرض دعوته إلى قبائل العرب في موسم الحج، وأخذوا يتبادلون الرأي في منع الرسول (ﷺ) من ذلك.

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، 1/196، سيرة ابن هشام، 1/381.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص208.

الدلائل والعبر

1- صبر الرسول (ﷺ):

كان ما لقيه الرسول (ﷺ) من ثقيف جديراً بأن يزعزع الجبال الراسخة، ولكن الرسول (ﷺ) خرج من هذا الامتحان وهو أشد ما يكون ثقة بربه وطمأنينة إلى نصره.

وروى البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله (ﷺ): ((هل أتى عليه يوم كان عليك من يوم أحد؟.. قال: لقد لقيت من قومك، ما لقيت، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على "عبد ياليل" فلم يجيني، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق من الغم إلا وأنا بقرن الثعالب (بين مكة والطائف) فرفعت رأسي، فإذا سحابة قد أظلمتني، فنظرت، فإذا جبريل، فناداني: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت، قال الرسول (ﷺ): فناداني ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت دمدت عليهم الجبال، وإن شئت خسفت بهم الارض، قال الرسول (ﷺ): ﴿لَا بَلَّ أَرْجُو أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُعْبِدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، لقد كان محتماً أن يصبر الرسول (ﷺ) هذا الصبر العجيب ليعلم أصحابه والمسلمين مجابهة الشدائد والصمود أمام المكاره، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ آل عمران/200، ومن جهة أخرى، فلم ينتقم الرسول (ﷺ) من أهل الطائف، كما سيتضح لنا في المستقبل، أو ليست المسألة مسألة مواقف ذاتية تحركها عواطف ونزعات خاصة.

2- دعاء الرسول (ﷺ):

هل كان في دعاء الرسول (ﷺ) ضجر يتنافى مع الصبر؟..

سؤال يطرحه الدكتور البوطي ويجب عليه قائلاً: ((هذا وهم باطل ولأن الشكوى¹ إلى الله من أجل مظاهر العبودية والضراعة والتذلل على باب من أعظم القربات، وليس معنى الصبر الذي أمر به الله، وطبقه الرسول (ﷺ) أن يتظاهر الصابر، بأنه قوي لا يبالي بشيء فذلك يخرج من دائرة العبودية للخالق، ويظهره بمظهر المستقل بقوته المستغني عن ربه وإنما معنى الصبر، أن يستكين المسلم لأمر ربه، مع بيان ضعفه وطلب المعونة منه، وأنه لا يملك من دونه حولاً ولا قوة، وبذلك يجمع معنى الصبر بين طريفي معنى العبودية لله، الخضوع والاستكانة، وإظهار الضعف، ومدبر الاستعانة، بتذلل وانكسار))².

والرسول (ﷺ) بقوله: إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، إنما يعبر عن ضعفه، وأنه لا يملك حولاً ولا قوة بدون توفيق الله، في حين أنه في قوله: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي... في هذا القول يعبر عن رضاه التام بقضاء الله...

3- اللطف والرحمة:

إذا تأملت سيرة الرسول (ﷺ) وجدت في كل مشهد من مشاهد مصائبه لطفاً إلهياً عجبياً، يأتي كمواساة وسلوى تحول دون تجمع الشدائد في نفسه. ففي مشهد هجرته إلى الطائف، وما اكتنفها من عذاب، تجد اللطف الإلهي في سعي "عداس" إليه وفي يده طبق العنب، وفي انكبابه وتقبيله رأسه ويديه وقدميه.

¹ - يقصد بالشكوى هنا قول الرسول (ﷺ) إلى من تكلمي؟؟... الخ.

² - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 125.

4- مسألة الجن:

تأكدت قصة استماع النفر من الجن للرسول (ﷺ) رواية ابن اسحق، وقد ارتقت هذه الدلالة إلى درجة اليقين والقطع في حديث القرآن الكريم عنها، كما سبق إيضاحه.

ومما لا شك فيه أن على المسلم أن يعتقد ويؤمن بوجود الجن، وبأنهم كائنات حية، كلفهم الله بعبادته، وإن كانت حواسنا لا تشعر بهم، وهم لا يتدخلون في حياتنا باعتبارها من طبيعة خاصة ومستقلة. زد على ذلك، فإن إنكار الجن يستلزم الردة والخروج عن الإسلام، لأن ذلك إنكار لشيء هو من الدين، وهو تكذيب للخبر الصادق المتواتر الوارد إلينا من الله ورسوله¹.

هل أثرت الشدة والخيبة على نفس الرسول (ﷺ)

اتضح لنا مما سبق أن زيداً سأل الرسول (ﷺ) متعجباً: ((كيف تعود إلى مكة، وقد أخرجوك منها)).

وقد أجابه الرسول (ﷺ) بكل هدوء وثقة وطمأنينة قال: ﴿يَا زَيْدُ إِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرْجًا وَمَخْرَجًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ وَمُظَهِّرٌ نَبِيِّهِ﴾، ولا يمكن تفسير ذلك «رغم الشدائد التي هي فوق التصور» ألا أن هذه العزيمة البشرية للرسول (ﷺ) لم تكن آتية من الثقة بالنفس والاعتزاز بالذات، بقدر ما هي يقين النبوة المستقر في قلب الرسول (ﷺ) ويقين أنه ينفذ أمر ربه، وإن الله بالغ أمره، مهما كانت الصعوبات.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 129.

وبالطبع، فهذا أمر ينطبق على المسلمين الذين عليهم ألا يهتوا أمام المحن، ماداموا يعملون مخلصين في سبيل الله، إذ لا يمكن أن يتحلف النصر الإلهي إلا إذا تخلف المسلمون على أوامر وصور الله.

معجزة الإسراء والمعراج

يقصد بالإسراء الرحلة التي كرم الله بها الرسول (ﷺ) من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، أما المعراج، فهو أعقب ذلك في العروج به إلى طبقات السماوات العلا، ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وأنس وجن، كل ذلك في ليلة واحدة¹.

يروى ابن سعد في طبقاته الكبرى أن تاريخ هذه الخارقة الكبرى الفريدة كان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً، ولقد روى البخاري ومسلم هذه القصة بتفاصيلها، من ذلك أن الرسول (ﷺ) أتى بالبراق، وهو دابة فوق الحمار، أو دون العقل، وإنه (ﷺ) دخل المسجد الأقصى، فصلى فيه ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختر اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة، وفيها أنه عرج به إلى السماء الأولى: فالثانية، فالثالثة: وهكذا حتى ذهب به إلى سدرة المنتهى، وأوحى إليه ما أوحى وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 130.

ولما كانت صبيحة اليوم الثاني، وجدت الرسول (ﷺ) بما شهد طفق المشركون يضحكون ويتغامزون، وسموا بعضهم أن يصف لهم بيت المقدس، فجلّى له عزّ وجل صورته، وأخذ يصفه لهم وصفاً تفصيلاً¹.

أما أبو بكر (رضي الله عنه) فكان جوابه: ((إن كان قال ذلك لقد صدق، أني لا أصدقه على أبعد من ذلك))، فلقب بالصديق، وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل، وعلم الرسول (ﷺ) كيفية الصلاة وحدد له أوقاتها، وكان قبل ذلك يصلي ركعتين صباحاً، ومثليهما مساءً، كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام².

الدلائل والعبر

1- معجزات الرسول (ﷺ):

هذه الظاهرة «التي ثبتت يقيناً، وتأكدت بالنص القرآني» تهدم كل مقولة تزعم أن حياة الرسول مجرد حياة بشرية خاضعة للنواميس الكونية المعروفة. وهذه الظاهرة تشكل قمة الخوارق والمعجزات، وهي أساس اليقين بنبوة الرسول (ﷺ)، ومن ثم هنالك تلازم لا يقبل الفكك بين المعجزة ونبوته عليه الصلاة والسلام. وبالطبع، فالتأمل في سيرة الرسول (ﷺ) ترينا أن الله تعالى أجرى المعجزات عدة على يديه، من ذلك حديث نبع الماء من بين أصابعه³، وحديث انشقاق القمر¹.

¹ - ينصح د. البوطي بقراءة قصة الإسراء والمعراج في أحد الصحيحين، ويحذر قراءتها في معراج ابن عباس: انظر كتابه فقه السيرة، ص131.

² - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص131.

³ - أخرج البخاري في كتاب الوضوء ومسلم في كتاب الفضائل ومالك بن أنس في الموطأ في كتاب الطهارة.

2- موقع الإسراء والمعراج من الأحداث التي مر بها الرسول (ﷺ):

لقد ذكرنا سابقاً رحلة العذاب الشاقة إلى الطائف، وما لاقى بها من مصاعب، من ذلك أنه (ﷺ) سار على قدميه مسافة لا تقل على الثمانين كيلو متراً فوق التضاريس التي كادت تمزق قدميه.

وإن حدوث هذه الظاهرة بعد خروج الرسول (ﷺ) إلى الطائف، إنما هو تكريم وضيافة من الله، وفي الوقت نفسه تطمين لقلبه، وتجديد لعزيمته.

3- الدلالة المستقاة من الإسراء إلى القدس:

إن الاقتران الزمني بين الإسراء إلى بيت المقدس والعروج بالرسول (ﷺ) إلى السماوات الدلالة باهرة على ما لبيت المقدس من مكانة وقداسة عند الله، كما أن في ذلك دلالة واضحة على العلاقة الوثيقة بين أنبياء الله محمد وعيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من الأنبياء.

وفضلاً عن ذلك ففي هذه الظاهرة، دلالة أكيدة على الواجب الملقى على عاتق المسلمين للحفاظ على هذه الأرض المقدسة، وحمايتها من مطامع الأعداء، وهذا الأمر المطروح بشكل صارخ وثقيل على وحدتنا العربي والإسلامي في ظروفنا المعاصرة، كما ابتلى المسلمون بذلك في الحروب الصليبية، ونجحوا في هذا الابتلاء على يد صلاح الدين وأمثاله من المؤمنين الصادقين.

¹ -تأكد ذلك في سورة القمر، وفي أحاديث متواترة بالأسانيد الصحيحة كما يقول إسماعيل بن

عمر الدمشقي المشهور ب ابن كثير: في تفسيره، تفسير القرآن العظيم، 261/4.

4- هل كان الإسراء بالروح:

يؤكد المسلمون على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً، وفي ذلك بقول النووي في شرحه على صحيح مسلم، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف، وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده (ﷺ)، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه، فيحتاج إلى تأويل¹.

¹ - ويحيى بن شرف النووي على صحيح مسلم، 2/290.

عرض الدعوة على القبائل

عاد الرسول (ﷺ) إلى مكة بعد رحلته إلى الطائف، وحضر موسم الحج، وأقبلت قبائل العرب على البيت الحرام من كل فج عميق لتؤدي مناسك الحج.

ولقد عزم الرسول (ﷺ) أن ينشئ هذه الأسواق، ليعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي.

وبالمقابل، فقد أعدت قريش للأمر عدته، عندما عرفت عزم الرسول (ﷺ)، وأجمعت على تشويه دعوته...

روى ابن اسحق: ((أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، فقال لهم: يا معشر قريش، أن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، قالوا: فأنت يا ابن عبد شمس فقل، قال: بل انتم قولوا، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو يزمزمه الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون... قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، فقد عرفنا الشعر كله رجزه¹ وهزجه²، وقريضه³ ومقبوضه

¹ - الرجز: بحر من بحور الشعر ويسمى حمار الشعراء لسهولة النظم فيه.

² - الهزج: كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب، وهو بحر من بحور الشعر.

³ - قريضه: نظمه.

ومبسوطه¹، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: والله إن القول كحلاوة، وإن أصله لغدق، وأن فرعه لحياة، وما أنتم بقائلين من هذا شيء إلا عرف أنه باطل، وأن أقرب القول أن نقوله لساحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، فتفرقوا عنه بذلك)).

وجعلت قريش تتابع الرسول (ﷺ) أينما ذهب، فكلما ذهب إلى قبيلة يعرض دعوته، وقف عليه رجل من قريش، يحذرها من سحره، ومكره وجنونه.

روى ابن اسحق عن "ربيعة بن عباد الدؤلي" إنه قال: ((إني لغلام مع أبي بمنى، ورسول الله (ﷺ) يقف على منازل القبائل، فيقول: يا ابن فلان إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، قال: وخلفه رجل أجل وضيء له غدیرتان، وعليه حلة عدنية، فإذا فرغ الرسول (ﷺ) من قوله، قال ذلك الرجل: يا ابن فلان، إن هذا يدعوكم أن تتسلخوا عن اللات والعزى، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا له، قال: فقلت لأبي: يا أبت، من هذا الرجل، قال: هذا عمه أبو لهب)).

ورى "البيهقي" عن رجل من كنانة قال: ((رأيت رسول الله يسوق ذي المجاز، وهو يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

وإذا رجل خلفه يسعى عليه التراب، فإذا هو أبو جهل، وهو يقول: يا أيها الناس لا يغركم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى)).

وقد تأثرت القبائل بموقف قريش، وقد كانت طريقة الرد تختلف باختلاف كل قبيلة.

¹ - المبسوط هو الشطر الأول من بيت الشعر، والمقبوض هو شطره الثاني.

روى ابن الأثير وابن اسحاق أن رسول الله (ﷺ): ((أتى كندة في منازلهم، وأتى كليب في منازلهم، وأتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، فلم يك أحد من العرب لأقبح رداً منهم... وأتى بني عامر ابن صعصعة، فدعاهم، فقالوا: رأيت نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله، أيكون لنا الأمر من بعدك؟)).

قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء.. فقالوا: أفتهدف نحو رباً للعرب دونك، فغذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بك)).

وذكر ابن كثير حديثاً مطولاً رواه أبو نعيم، والحاكم والبيهقي عن علي بن أبي طالب، قال: خرج الرسول (ﷺ) «وأنا معه وأبو بكر» إلى متى، حتى وقفنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم، وقال: ((من القوم؟، قالوا: من ربيعة.. وذكر ما كان بين أبو بكر، وبين القوم من حوار طويل.. ثم قال: ثم انتهينا إلى مجلس، فتقدم أبو بكر، فسلم ثم قال، ممن القوم؟... فقالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، وكان في القوم معروف بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك، فتقدم أبو بكر من معروف، وكان قريباً منه، فقال له: كيف العدد فيكم، قال معروف: إن لنزيد على الألف، فقال له أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟ قال معروف: علينا الجهد، ولكل قوم حد، قال له أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال معروف: إنا لأشد ما يكون غضاً حين نلقى، وإن لنؤثر الحياة على الأولاد، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله، فهنا هو هذا... فقال معروف: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، ثم التفت إلى الرسول، فجلس أو قام أبو بكر يظله بثوبه، قال معروف: فالام تدعو يا أبا قريش؟ فقال الرسول: أدعوكم إلى شهادة إلا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن تؤوني وتتصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، واستفتت بالباطل على الحق، قال له: والام تدعو أيضاً؟ فتلا الرسول (ﷺ): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا

بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿١٥٣-١٥١﴾
الأنعام/153-151.

فقال معروف: فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، ثم تلا الرسول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ النحل/90.

فقال له معروف: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومن سنَّ الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك وكأنه أحب أن يشاركه والكلام هانئ بن قبيصة الشيباني، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقاتلتك يا أخا قريش، وصدقت قولك، وأني أرى أن تركنا ديننا لمجلس جلسته إلينا لزلة في الرأي، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وأن من ولائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر)).

وكانه أحب أن يشركه المثني، فقال: وهذا المثني شيخنا وصاحب حرينا، فقال المثني: ((قد سمعت مقاتلتك، واستحسننت قولك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ، وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي سائر العرب دون أنهار كسرى، فعلنا، فإننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى إلا تحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإنني أرى أن هذا الأمر هدف تكرهه الملوك، فقال الرسول (ﷺ): ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق، أنه لا يقوم بدين إلا من حاطه من جميع جوانبه))¹.

قال موسى بن عقبة عن الزهري: ((كان رسول الله (ﷺ) يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، ويكلم كل شريف بقوم، لا يسألهم إلا أن يؤوه، ويمنعوه، فلم يقبله

¹ - نقلنا هذا النص، بتصريف عن أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص214.

أحد منهم، وما يأتي أحد من القبائل إلا قوم: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا، وقد أفسد قومه))¹.

ويظهر من هذه الأخبار أن إعراض القبائل، إنما مرده تأييد قريش عليها، أكثر مما هو راجع إلى عدم التصديق، وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي أكثر دليل على ذلك، فقد كان هذا سيداً في دوس، وقد مكة حاجاً، فاجتمع به أشراف قريش وجذوره، قال الطفيل: ((فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت لا أسمع منه شيئاً، حتى حشوت أذني حيث غدوت إلى المسجد كرسفاً وقطن، فَرَقَّ "خوفاً" من أن يبلغني شيء من قوله: قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله (ﷺ) يصلي عند الكعبة، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت: واثكل أمي! ما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل)).

قال: فمكثت حتى إذا انصرف إلى بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا، حتى سددت أذني بكرسف، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولاً حسناً، وتلا عليّ القرآن: فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق))¹.

وانصرف الطفيل إلى قومه، فجعل يدعوهم إلى الإسلام، وما زال على ذلك حتى أسلم منهم ثمانين بيتاً.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 216.

المفاوضات مع أهل يثرب

كانت يثرب قبل الهجرة مجموعة من المنازل والأطام والمزارع تقوم في واحة مساحتها حوالي عشرين ميلاً مربعاً، وتحيط بها التلال والصخور والأرض المخصبة التي لا تصلح للزراعة، وكان سكانها يعرفون بين (قبيلة) وهو تجمع يضم قبيلتي الأوس والخزرج، وهؤلاء من عرب الجنوب، واستطاعوا أن يفتصبوا السيادة من سكانها، وكان ذلك في منتصف القرن السادس الميلادي¹، كان هنالك قبيلتان يهوديتان سبقتا الأوس والخزرج في سكن يثرب هما: بنو قريظة وبنو النضير، حيث أقامتا في الجزء الخصب من أرض يثرب، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الوافدين، كما ضمت يثرب قبيلة يهودية ثالثة أقل شأناً من القبيلتين السابقتين، هي قبيلة قينقاع.

وكان بين الأوس والخزرج نزاعات كثيرة وحروب، كان آخرها يوم بعث الذي وقع قبل هجرة الرسول (ﷺ) بأعوام قليلة، والذي أقام نوعاً من التوازن القلق بين القبيلتين.

وهكذا، فقد كانت يثرب تعيش أزمة مماثلة لأزمة مكة، سببها شعور الناس (الفئة العربية) بأن المثل العليا السائدة، لاسيما في الميدان الديني لا تتناسب مع موازين الحضارة، وساعد على ذلك وجود اليهود الذين كانوا يطرحون على أسئلة، لا يجدون لها جواباً شافياً.

¹ د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الاسلام، ص422.

وهناك وجه آخر للأزمة هو الوجه الاقتصادي، فقد كان مخزون الطعام لا يغطي تزايد عدد السكان المستمر، إضافة إلى الحروب التي كانت تشتعل باستمرار من أجل الأراضي الخصبة، مما أدى إلى إهمال هذه الأراضي.

وكانت النظم الاجتماعية في يثرب تقوم على العصبية القبلية، وقد أدى ذلك إلى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولة لجماعة القبيلة لا مسؤولية الفرد، وإذا علمنا حدوث الاحتكاك اليومي المستمر في هذه الرقعة الضيقة، أدركنا مدى القلق والاضطراب في هذه المدينة، لاسيما أنها مدينة تقوم على الاستقرار الذاتي، ومن المفروض أن يكون هنالك سلطة واحدة يقوم بضبط الأمن فيها.

والخلاصة، إن المجتمع اليثربي قبل قدوم الرسول (ﷺ) كان مجتمعاً منقسماً على نفسه، وتناخره أمراض كثيرة أهمها فقد الوحدة التي وجدت في قدوم الرسول (ﷺ) دواء ناجماً لها.

وكانت هنالك عوامل أخرى دينية أرهصت لتقيل الدعوة الإسلامية، ولعلنا في حديث ابن اسحق نكشف ستر هذا العامل، يقول ابن اسحق: ((أن الرسول (ﷺ) حين لقي أول مرة رهطاً من الخزرج، وحدثهم عن دينه، ودعاهم إلى الله، عرفوا فيه نبياً، كان يحدثهم جيرانهم من اليهود عن قرب ظهوره، فأسرعوا للانحياز إليه حتى لا يسبقهم إلى ذلك اليهود، ويكون لهم النصير))¹.

أضف إلى ذلك فإذا كان للمكيين مصلحة مادية في الحفاظ على الوثنية، فلا مصلحة لليثريين للدفاع عن إلهتهم التي لا ترضي العقل أو لا تضرب على أي وتر من أوتار المنطق.

¹ - سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص428.

في هذا الجو التقى الرسول (ﷺ) بعد خروجه إلى الطائف برهط من الخروج عند العقبة، فحدثهم، وبين لهم أسس الدين الجديد، فاستجابوا له ووعدوه أن يحدثوا بأمره قومهم، وقالوا: ((إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، تعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين، كان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك))¹.

وكان عدد أفراد هذا الرهط الخزرجي ستة أشخاص وينتمون إلى بطون مختلفة، ولما عادوا إلى يثرب أخذوا يحدثون الناس بما سمعوا، وغدا هذا الدين الشغل الشاغل في يثرب، ويقدر "مونتجومري واط" تاريخ هذا اللقاء² سنة 621م.

¹ -سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص 429.

² - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، 428.

بيعة العقبة الأولى

ولما كان العام الثاني من لقاء الرسول (ﷺ) مع رهط يثرب، وافى الموسم من يثرب اثنا عشر رجلاً، حيث لقي هؤلاء الرسول بالعقبة، وبايعوه، فكان منهم: أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن النبهان.

وقد روى عبادة بن الصامت خبر هذه المبايعة، فقال: قال لنا رسول الله (ﷺ): ﴿بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفِيَ مِنْكُمْ فَاجِرَةٌ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ﴾¹.

فلما أرادوا الانصراف بعث الرسول (ﷺ) منهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرأهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى مقرئ المدينة².

وسميت هذه البيعة، ببيعة النساء، لأنها لم يكن فيها بيعة على القتال، وإنما أخذ للعهد والميثاق فقط.

¹ - سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص 433.

² - المرجع السابق، ص 434.

إحدى عشرة سنة، والرسول (ﷺ) وصحبه يعانون من غربة هائلة مظلمة مع قومهم وجيرانهم وسائر القبائل المحيطة، فلا ييأسون، ولا يضجرون، ولا يؤثر ذلك على ثقتهم بنفسهم، وبالله المعين لقد كان من السهل جداً على الله عز وجل أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي بدون هذا الصبر والمعاناة، ولكنها حكمة الله في عباده، فقد أراد أن يتحقق فيهم التعبد له اختياراً، كما تحققت فيهم صفة العبودية له إجباراً...

وهذا التعبد لا يتحقق إلا بالنصب والتعب، ولا يتمحص الصادق من المؤمن المنافق بدون عذاب أو استشهاد.

الواجبات التي فرضتها البيعة الأولى

باستقرار نص هذه البيعة يتضح إنها تقتصر على تكليف المبايع بالنطق بالشهادتين، بل إنها فرضت على المبايعين، ألا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، وغير ذلك. لقد أدرك الرسول (ﷺ)، وهو في بداية الطريق لبناء المجتمع الإسلامي إن هذا المجتمع لا يبنى بمجرد أن يردد المسلم الشهادتين، أي يحمل الهوية، حسب لغتنا المعاصرة، بل إن بناء هذا المجتمع يستلزم تحمل مسؤوليات وتبعات جسام.

فالمسلم الحقيقي، ليس ذلك الذي يردد الكلمات دون أن يتحمل التبعات، وهذا ما أكدته تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ النساء/60.

الدعوة والدعاة

تروي لنا الموارد التاريخية¹ أن مصعباً ورفاقه انطلقوا يدعون أهل المدينة إلى الإسلام، وإن الرجل من يثرب كان يدخل على مصعبو وفي يده حربة يريد أن يقتله بها، فما هو إلا أن يتلو عليه شيئاً من القرآن، ويعرفه على بعض مبادئه حتى يلقي حربه...

ولكن سؤالاً جديراً بالطرح، هو: هل كان مصعب بن عمير واحد من زملائه ورجل دين، بالمعنى المفهوم، بلغتنا المعاصرة، أي هل كانت له طبقة معينة، أم مجرد شخص عادي، شرح الله صدره للإيمان، فصدع بأمر الله وانخرط في مجتمع يثرب يدعو للإسلام.

إذاً ليس في الإسلام رجال دين، بل هنالك صادقون مخلصون متفقهون بالدين باذلون الغالي والرخيص في سبيل الله، ومن ثم فالمسلمون كلهم رجال دين، اشترى الله منهم أرواحهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 145.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج سنة 622م توجهت جماعة من يثرب عدد أفرادها/73/ رجلاً وثلاث نسوة إلى مكة لأداء فريضة الحج وتواعدت هذه الجماعة على اللقاء ليلاً بالعقبة مع الرسول (ﷺ) في أواسط أيام التشريق، ولما فرغوا من الحج، وكانت الليلة الموعودة، ومضى ثلث الليل، تسللوا متخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وبعد انتظار لم يطل جاء رسول، ومعه عمه العباس، وكان يومئذٍ ما يزال على دين قومه، إلا أنه حضر ليستوثق من أن ابن أخيه في منعة ومأمن، وأنه منتقل من حماية أسرته إلى حماية قوم قادرين على منعته.

وتكلم العباس مستهلاً هذا الاجتماع، فقال: يا معشر الخزرج، رده كان العرب تطلق ذلك من باب التغليب على الأوس والخزرج، أن محمداً منا حيث قم علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعه في بلده، وأنه قد أبي إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون

إنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعه
في قومه وبلده¹.

وتكلم الرسول (ﷺ): ﴿فَتَلَا الْقُرْآنُ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ أَبَايَعُكُمْ عَلَيَّ أَنْ
تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاكُمْ﴾.

فأخذ البراء بن معروف بيده، ثم قال: ((نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك من
تمنع منه أزرنا، فبايعنا رسول الله (ﷺ)، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة
والسلاح، ورثاها كابراً عن كابر)).

فاعترض «البراء يتكلم» أبو الهيثم بن النبهان، فقال: ((يا رسول الله إن بيننا،
وبين الرجال حبلاً، وأنا قاطعوها «يعني اليهود» فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك،
ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ فتيسم الرسول، ثم قال: بل الدم
بالدم، والهدم بالهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من
سالمتم))².

وكان أول من ضرب على يد الرسول (ﷺ) البراء بن معروف، ثم تبعه القوم، وقال
الرسول (ﷺ): ﴿أَخْرَجُوا إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا لِيَكُونُوا عَلَيَّ قَوْمَهُمْ، فَأَخْرَجُوا
تِسْعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ، وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَوْسِ، وَقَالَ الرَّسُولُ (ﷺ) لِلنُّقَبَاءِ: أَنْتَ كَفَلَاءُ عُلُوِّ
قَوْمِكُمْ كَكَفَالَةِ الْحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَيَّ قَوْمِي﴾.

¹ - سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص 441.

² - المرجع السابق، ص 442.

وقال العباس بن عباد بن نفل للرسول (ﷺ): ((والله الذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن على أهل "منى" غداً بأسياقنا، فقال الرسول (ﷺ): لم تؤمر بذلك)).

وعلمت قريش بأنباء المفاوضات بين محمد والوفد اليثربي فجاء فريق منها إلى الجماعة اليثرية، ويهددها، فأنظر بعضها ما كان حقناً للدماء، وخرجوا يريدون بلدهم، فتعقبهم القرشيون، وقبضوا على بعضهم، وضربوهم وعذبوهم¹.

الدلائل والعبر

مما لا شك فيه أن بيعة العقبة الأولى خلت من الإشارة إلى الجهاد بالقوة، والأمر من خلافه بالنسبة للبيعة الثانية....

ذلك لأن البيعة الأولى، هي بيعة مؤقتة، إذ أن أوقات هذه البيعة، انصرفوا، وهم على موعد مع الرسول (ﷺ) في المكان ذاته في الموسم الثاني، فلم يكن ثمة ما يستوجب مبايعتهم على القتال، مادام الأذن به لم يأت بعد، ومادام هؤلاء سيلتقون بعد عام بالرسول (ﷺ).

أما البيعة الثانية، فقد كانت الأساس الذي هاجر الرسول (ﷺ) بموجبها إلى المدينة، ولذا كان لا بد من أن يتمثل القتال، ومن هنا بمشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام أنه إنما شرع قبل الهجرة من بيعة العقبة الثانية².

والدليل على ذلك من أن العباس بن عباد قال بعد البيعة: ((والله إن شئت لتميلن على أهل "منى" بأسياقنا، فقال الرسول (ﷺ): لم تؤمر بذلك)).

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص155 .

² - المرجع السابق، ص155 .

ولا شك أن أول آية تؤذن في القتال هي قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج/39.

ويمكن القول إن سبب تأخر الإذن بالقتال يرجع إلى ما يلي:

- 1- من المناسب التدرج في الدعوة والابتداء بالتفريق بالإسلام.
 - 2- اقتضت رحمة الله ألا يحمل المسلمين واجب القتال إلا بعد أن يحقق لهم دار سلام تكون بمثابة قاعدة وحصون ومعقل تحميهم من أعدائهم.
- وهكذا يتضح أن الجهاد وهو بذل الجهد في سبيل إقامة مجتمع إسلامي يمر بالمرحلة الثلاث الآتية:

- الدعوة السلمية مع الصمود للمحن والشدائد .
 - القتال الدفاعي وهو في صدر الإسلام ابتداء بعد الهجرة .
 - قتال كل من عرف الحق ووقف في سبيله باستثناء أهل الكتاب .
- وبالطبع فالقتال دفاعاً عن النفس أو المال أو العرض أو الأرض، لا يدخل ضمن اصطلاح الجهاد، وإنما ضمن اصطلاح الصيال¹، وهكذا تسقط كل حي تدعي أن الإسلام انتشر بالسيف، كما تسقط الحي الأخرى التي تقول أن الإسلام دين محبة وسلام، وأنه لا يشرع الجهاد فيه إلا لرد غائلة العدوان².

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص151 .

² - المرجع السابق، ص152 .

الإذن بالهجرة إلى المدينة

قال ابن سعد في روايته حديث عائشة (رضي الله عنها): ((لما قام السبعون من عند رسول الله ﷺ) طابت نفسه، إذ أصبحت له منعة جديدة، وإن كان البلاء أخذ يشتد على المسلمين وينال منهم، ما لم ينل من قبل، فاستؤذن الرسول ﷺ) بالهجرة، فقال: قد اخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج، فليخرج إليها، فأخذ القوم يتجهزون، ويتوافقون، ويتواسون، ويخرجون أو يخفون ذلك، وكان أول من قدم المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم عامر بن ربيعة، ومعه امرأته بنت أبي حشمة، ثم قدم أصحاب الرسول ﷺ) إرسالاً، فنزلوا على الأنصار في دورهم))¹.

ولم يهاجر أحد غير متخف إلا عمر بن الخطاب، فقد روى علي بن أبي طالب أنه تقلد سيفه وتكب قوسه، وانتصر في يده أسهماً، واختصر عنزته (عصاه)، ومضى إلى الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً مطمئناً، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف، فقال: ((شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلاقتني وراء هذا الوادي، قال

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 1، ص 210، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 347/1.

عليّ: فما تبعه إلا قوم من المستضعفين، ثم مضى لوجهه¹، وتروي الرواة² إن صهيب من سنان لما أراد الهجرة، قال له كفار قريش: ((أتينا صعلوكاً حقيراً، فكثير مالك عندنا، والله لا يكون لك الخروج أبداً، فقال لهم صهيب رأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم... قال: إني جعلت لكم مالي)).

قال: فبلغ ذلك الرسول (ﷺ)، فجعل يقول: ربح صهيب... وأنزل الله فيه قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ البقرة/207.

وروا أن عياشاً بن أبي ربيعة هاجر إلى المدينة، خرج إليه أبو جهل وأخوه الحارث، وكان عياش أخاهما وابن عمهما، فأخبراه أن أمه نذرت ألا تغسل شعرها، ولا يمس رأسها مشط، ولا تستظل من شمس، حتى تراه، ثم قال له: ((أنت أحب ولد أمك إليها، وانت في دين فيه البر للوالدين إن رجع إلى أمك، فقال عمر بن الخطاب ما يريدان والله - إلا فتتك، وتابع عمر قائلاً... خذ ناقتي هذه، فإنها نجيبة ذلول، فما رأيك من أمرهما ريب ناتج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استتوا بالأرض، عدوا عليه، فأوثقاه بالحبال، وجلداه نحواً من مائة جلدة، ثم دخلا به مكة موثقاً

¹ - عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني، المعروف بابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، 58/4.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص235.

في ضوء النهار، وقالوا: يا أهل مكة، هكذا ما فعلوه بسفهائهم، كما فعلنا بسفهائنا))¹.

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة، حتى خلت منهم ديارهم، حتى هجرت دور بأسرها، وغلقت أبوابها، وغدت تصفر بها الرياح، وكان من هذه الدور دار بني جحش، ودار بني مظعون، دار بني البكير، هجرها سكانها رجالاً ونساء وكباراً وصغاراً².

ذكر ابن اسحق أن عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب، وأبا جهل بن هشام مروا، وهم يصعدون إلى أعلى مكة، بدار بني جحش، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها بباباً ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك، تنفس الصعداء، ثم قال: ((وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً ستدرکها النكباء والموت، ثم قال: أصبحت ذرية جحش خلاء من أهلها، فقال أبو جهل، وهو يشير كالعباس، هذا عمل ابن أخي هذا، فرق جماعتنا، وقطع بيننا))³.

وما زال المسلمون يتلاحقون بالمدينة حتى لم يبق بمكة إلا الرسول (ﷺ) وأبو بكر وعليّ، وإلا من اعتقل مكرها من مفتون أو محبوس، أو مريض أو ضعيف عن الخروج، وهم المستضعفون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَنَاسْتَضِعُّهُمْ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ النساء/99.

أما الرسول (ﷺ)، فقد بقي بمكة ينتظر أن يؤذن له، وكان أبو بكر كلما أراد الهجرة، استمهله الرسول (ﷺ) قائلاً: ﴿لَا تُعْجِلْ، هَلْ لَعَلَّ اللَّهُ يَجْعَلُ لَكَ صَاحِبًا﴾، فأدرك أبو

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 236.

² - المرجع السابق، ص 236.

³ - المرجع السابق، ص 237.

بكر أن الرسول (ﷺ) على نية الهجرة، ولكنه ينتظر الاذن، فاشترى راحلتين، وجعل يعدهما لهذه الهجرة¹.

الدلائل والعبر

1- الإيذاء ومفارقة الوطن:

لقد تحكل المسلمون أعباء الإيذاء، ولكنهم الآن أمام فتنة جديدة، حتى فتنة الوطن والديار، والأهل والمال، بما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة. أجل لقد كانوا أوفياء لدينهم مخلصين لربهم أمام الفتنتين الأولى والثانية، فلما أمرهم الرسول (ﷺ) بالهجرة، لم يباليوا أن يتركوا من ورائهم الوطن، وما فيه من مال ومشب ومتاع.

أما أهل المدينة، فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والحب في الله، لاسيما أن الله جعل أخوة الدين أقوى من أخوة النسب، كان الميراث في صدر الهجرة قائماً على اساس الدين والهجرة دون نظر إلى النسب.

2- رجعت الهجرة إلى دار الإسلام:

روى القرطبي عن ابن العربي أن هذه الهجرة كانت مرضاً في أيام النبي، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة والتي انقطعت بالفتح، فما هي القصد إلى النبي، فإن بقي في دار الحرب عصي².

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص237.

² -تفسير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 5/350.

والذين يتمسكون بوجوب ترك دار الكفر يعتمدون الآية القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسِعَةَ فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿97﴾ إِنَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لِمَا يَسْتَتِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿النساء/97-98﴾.

والهجرة إنما تجد في دار الكفر سواء أكانت دار حرب أم أمان، إلى دار الإسلام، إلا أن كان ثمة قصد شرعي سليم في بقائه، كما الدعوة إلى الإسلام، وكتكلم علم داخل في العروض الكفائية التي يحتاج إليها المسلمون¹.

3- وجوب تناصر المسلمين:

يجب نصره المسلمين بعضهم لبعض مهما اختلفت ديارهم، يقول أبو بكر بن العربي: إذا كان المسلمون أسرى أو مستضعفين، فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة بالبدن، بأن لا تبقى مناعين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عدداً يتحمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحد درهم من ذلك².

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص156.

² - شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، 269/9، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي الدمشقي: المغني من مستودعات الفقه الحنبلي، 247/9، محمد أمين بن عمر ابن عابدين الدمشقي: رد المحتار على الدر المختار، 560/3.

4- العقيدة والدين هما سياج الوطن والأرض:

إن هجرة الرسول (ﷺ) هذه من مكة إلى المدينة أكبر مثل صارخ على ذلك، لقد كانت بحسب الظاهر، تركاً للأوطان، ولكنها في واقع الأمر حفاظاً عليه، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشعوب يبدو في صوبة الترك له. أجل لقد عاد المسلمون بعد بضع سنين إلى أوطانهم عزيز من الجانب منيعي القوة، ولولا تلك التضحية بالأرض والمال في سبيل العقيدة كما تحقق لهم شيء من تلك المكاسب، وكما أصبحوا سادة العالم، والتاريخ العربي الإسلامي يؤكد أنه كان التمسك بالعقيدة السليمة والتضحية في سبيلها بالمال والأرض، كلما رسخ الله أقدامهم وأورثهم اراضيهم وديارهم وأراضي أخرى.

هبة رسول (ﷺ) إلى المدينة

قال ابن اسحق: ((ولما رأت قريش خروج المسلمين، أدركت أن الرسول (ﷺ) سيخرج ليجمع على حربهم، فاجتمعوا في دار الندوة، يتشاورون في الأمر. وقلبت وجهاً النظر، أحيسبونه في الحديد، ويغلقون عليه باباً؟.. ولكن هذا الرأي لم يلق سميعاً، فقد تخوفوا من مجيء أصحابه وانتزاعه... يخرجونه من ديارهم، ثم يتركونه يذهب حيث يشاء؟.. وهذا الرأي لم يلق أيضاً سميعاً، فمحمد (ﷺ) له حلاوة اللسان والقدرة على اجتذاب الأنصار...))

هل تقتلون الرسول؟ من يتحمل ذلك ويتصدى لعداء بني عبد مناف؟ وما زالوا يقدرون ويدعونه، ويتبادلون وحدة الرأي، حتى اتفقوا على طريقة مأمونة العواقب، وهي أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدأً شجاعاً، ثم يذهبون إليه فيضربوه ضربة رجل واحد، فيرضى بنو هاشم بالدية، ولا يفكرون في قتال قريش جميعاً¹، هكذا دبرت الخطة على أن تنفذ ليلاً، ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم، وبدأ فوق أيديهم، فقد أوحى إلى رسوله بما دبروا، وأذن له في الهجرة².

¹ -سيرة ابن هشام، 1/155، ابن سعد: الطبقات الكبرى، 1/212.

² -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص238.

وقدر رسول الله (ﷺ) أن قريشاً ستحضر داره في الليل، وعلى هذا فقد رسم خطته، فأوحى إلى ابن عمه علي أن يبني على فراشه تلك الليلة وأخبره ما كان عزمه على الهجرة، وأمره أن يتخلف عنه حتى يؤدي ما عنده من الودائع إلى أصحابها، لما كانوا يعرفون صدقه، ثم ذهب الرسول (ﷺ) إلى أبي بكر.

روى ابن اسحق عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: ((كان لا يخطئ الرسول (ﷺ) أنه يأتي أبي بكر أحد طريفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن له الله في الهجرة، أتانا الرسول (ﷺ) بالهاجرة، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء الرسول في هذه الساعة إلا لأمر حدث، وقال الرسول (ﷺ): أخرج عني من عندك! قال: يا رسول الله، إنما هما ابتائي وما ذاك؟ فذاك أبي وأمي.. قال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة قالت: فقال أبو بكر، الصحبة.. قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم إن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فسميت بذلك ذات النطاق)).

وكانت الخطة أن يخرجوا إلى غار ثور ويختفيان هنالك حتى ينظر ما يكون من حال القوم في شأنها، حتى إذا هدبت العاصفة، وكن الطلب عنهما، أخذوا في السير إلى المدينة من طريق غير مألوف، وختاروا لذلك دليلاً حاذقاً، هو عبد الله بن أرقد، وواعده أن يوافيهما بعد ثلاث ليال عند غار ثور.

وغار ثور هذا كهف بأعلى جبل ثور، وهو جبل عال على بعد ثلاثة أميال من مكة، ذو مرتقى وعر شديد الانزلاق، كثير المضايق والصخور.

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما ما يقوله الناس عنهما في بياض النهار، ثم يأتيهما بالأخبار ليلاً، وأمر عامر بن فهيرة ومولاه، أن يرعى غنمه نهاره، ثم

يريحها عليها إذا أمس، إلى النار، ليطعمان ألبانها، وأمر أسماء بنته أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما كل مساء.

وروى ابن اسحق والإمام أحمد كلاهما عن يحيى بن عباد بن الزبير عن أسماء بين أبي بكر، قالت: لما خرج الرسول (ﷺ)، احتمل أبو بكر ماله كله معه: خمسة آلاف درهم، قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: واللّه إني لأراه قد فجعكم بماله ونفسه، قالت: كلا إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم فقد أحسن))¹.

واجتمع المشركون في عتمة تلك الليلة، على باب الرسول (ﷺ) يتربصون به ليقتلوه، ولكنه خرج من بينهم، وقد القى عليهم سنة من النوم بعد أن ترك علياً في مكانه، وطمأنه من كل مكروه، وانطلق الرسول (ﷺ) وصاحبه إلى غار ثور، ودخل أبو بكر قبل الرسول (ﷺ) فتمس الغار، لينظر أفيه سبع أو حية يقي الرسول (ﷺ) بنفسه، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر يخبرهما بأخبار مكة، ثم يدلج من عندهما يمسو، فيصبح مع قريش بمكة كبأئت بها، وكان عامر بن فهيرة يروح عليهما بقطعة من الغنم، فإذا خرج من عندهما عبد الله يقضي أثره بالغنم كل لا يظهر لقدميه أثر...

وانطلق المشركون ينتشرون ويفتشون عن الرسول (ﷺ) في كل المكان، حتى وصلوا إلى غار ثور، وسمع الرسول (ﷺ) وصاحبه أقدام المشركين، فأخذ الروع أبا بكر، وهمس يحدث الرسول (ﷺ): لو نظر أحدهم تحت قدمه لرأنا، فأجابه الرسول (ﷺ): ﴿يَا أَبَا بَكْرُ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثَهُمَا﴾².

¹-سيرة ابن هشام: 488/1، والإمام أحمد بن حنبل: المسند، 2/282.

²-متفق عليه.

وأعمى الله أبصار المشركين، ولم يصدر عن أي منهم التفاته إلى داخل الغار، بل مروا فيه فرأوا نسيج العنكبوت على بابه، وقال ابن كثير «وهذا اسناد حسن»، وهو أحسن ما روي في الغار ولما انقطع الطلب عن الرسول (ﷺ) وصاحبه سارا متبعين طريق الساحل بإرشاد من عبد الله بن أرقط.

وقد جعل مشركو مكة مائة ناقة لكل من أتى برسول الله (ﷺ) وأبي بكر، وذات يوم، بينما كان جماعة من بني مدلج في مجلس لهم، وبينهم سراقه بن مالك، إذ أقبل إليهم رجل منهم، فقال: ((إني قد رأيت أنفاً أسودة بالساحل، أراهما محمد (ﷺ) وصاحبه، فعرف سراقه أنهم هم، ولكنه أراد أن يثني عزم غيره عن الطلب، فقال له: إنك قد رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالة لهم، ثم لبث في المجلس ساعة، وقام فركب فرسه، وسار حتى دنا من الرسول (ﷺ)، فغشرت به فرسه، فخر عنها، ثم ركبها ثانية، وسار حتى صار يسمع قراءة النبي (ﷺ)، وهو لا يلتفت، فأخذ قائمًا فرس سراقه في الأرض حتى بلغت الركبتين، فخر عنها، ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تخرج حتى سطع لا ترهما غبار ارتفع في السماء مثل الدخان، فعلم سراقه أنه ممنوع عن الرسول (ﷺ)، وداخله رعب عظيم، فناداهما بالأمان))¹.

فوقف الرسول (ﷺ)، ومن معه حتى وصل إليهم، فاعتذر إليه، وسأله أن يستغفر له، ثم عرض عليها الزاد والمتاع، فقالا: ﴿لَا حَاجَةَ لِنَا، وَلَكِنَّ عَمَّ عَنَّا الْخَبَرَ﴾، فقال كفيتم.

ثم عاد سراقه أدراجه إلى مكة، وهو يصرف أنظار الناس عن الرسول (ﷺ).

¹ -متفق عليه، والتفصيل للبخاري ج4، ص255.

فدوه قباء

ووصل الرسول (ﷺ) قباء، فاستقبله من فيها بضعة أيام نازلاً على كلثوم بن هدم، حيث أدركه بعد أن أدى عنه الودائع إلى أصحابها، وأسس الرسول (ﷺ) هنالك مسجد قباء، وهو المسجد الذي وصفه الله بقوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ التوبة/108 .

ثم واصل سيره إلى المدينة فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فالتفت من حوله الأنصار، كل يمسك زمام راحلته، يرجوه النزول عنده، فكان الرسول (ﷺ) يقول لهم: ﴿رَدُّوْهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ﴾، فلم تزل راحلته تسير في فجاج المدينة، حتى وصلت إلى مربد (أرض يخفف فيها التمر) لفلاحين يتمين من بني النجار أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فقال الرسول (ﷺ): ﴿هَهُنَا الْمُنْزَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ .

وجاء أبو أيوب، فاحتمل الرجل إلى بيته، وخرجت: ولأئد من بني النجار «فيما يرويه ابن هشام» فرحات بمقدم النبي وهن ينشدن: ((نحن جوار من بني النجار: يا حبذا محمد من جار فقال عليه الصلاة والسلام لهن: أتحبيني؟... فقلن: نعم، فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكن)).

إقامة الرسول (ﷺ) في بيت أبي أيوب

روى أبو بكر بن أبي شيبة وابن اسحق والإمام أحمد بن حنبل من طرق متعددة أن أبا أيوب (رضي الله عنه) قال وهو يحدث عن إقامة الرسول (ﷺ) عنده: ((لما نزل الرسول في بيتي، نزل أسفل البيت، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، فقال: يا أبا أيوب، أنه لأرفق بنا وبمن يغشانا أن تكون أسفل البيت.

قال: وكنا نضجع له العشاء، ثم نبعث به إليه، فأزاد علينا فضله وكنت أنا وأم أيوب نتلمس موضع يده، فأكلنا منه ينبغي البركة، حتى بعثنا إليه بشأنه، وقد جعلنا له بصلاً وثوماً، فرده، ولم أرى ليده فيه أثراً، فجئته فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك، فقال: إني وجدت منه ربح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه، قال: فأكلناه))¹.

¹ - أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص 4 - 5، وسيرة ابن هشام: ج1، ص749، وترتيب مسند أحمد، 592/20.

الدلائل والعبر

كثيرة هي الصفحات المشرفة في حياة الرسول (ﷺ)، ولكنه ومن هذه الهجرة من أكثر صفحات الرسول (ﷺ) توهجاً وإشراقاً، ونبضاً بالحياة، وبالتالي فكم يقف القلم فيس حيرته وعجزه عندما يواجه هذا البهاء والجلال والخلود، ومع ذلك فإننا بتكسر وتواضع أمام هذا المشهد الحي لتسجيل الملاحظات الآتية:

1- مكانة أبي بكر:

تدل صحبة أبي بكر الرسول (ﷺ) على تلك المكانة المميزة له، حيث استتبطن العلماء من ذلك أن أبا بكر أولى الصحابة بالخلافة من بعد الرسول (ﷺ)، يعزز ذلك استخلافه في الصلاة إماماً بالناس عند مرض الرسول (ﷺ) وإصراره على ألا يصلي غير أبي بكر، وقوله فيما رواه مسلم لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي، لاتخذت أبا بكر خليلاً.

وقد رأينا مدى التضحيات التي قدمها أبو بكر من ذلك سبقه دخول الغار، كي يجعل نفسه فداء للرسول (ﷺ)، فيما إذا كان هنالك سبع أو حية، ومن ذلك تجنيده وماله وابنه وبنته وقواه، وراعي غنائه في سبيل هذه الرحلة الشاقة.

2- الفرق بين هجرة الرسول (ﷺ) وهجرة عمر:

هل عمر أشد جرأة من الرسول؟!.

في الحقيقة أن تصرف عمر أو غيره، يعتبر تصرفات شخصياً، والأمر على خلافه بالنسبة للرسول (ﷺ)، فهو مشرع، ولنفعل مثل عمر، لحسب الناس عن فعله هو الواجب، وإنه لا حاجة لأخذ الحيطة، والتمسك بالأسباب.

والدليل على رباطة جأش الرسول (ﷺ)، بعد استفادته الأسباب والتدابير المادية، أن أبا بكر امتلكه الرعب عندما وصل المشركون باب الغار، ولكن الرسول (ﷺ)، تكلم بكل طمأنينة وقوة أعصاب قائلاً: ﴿يَا أَبَا بَكْرُ، مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالْتَهُمَا﴾ ومن أبرز الأدلة أيضاً حالته التي كان عليها عندما لحق به "سراقة" يريد قتله، وأصبح على مقربة منه، إذاً تلك الاحتياطات وظيفية نشر بعثة تربية، ولما انتهى منها عاد قلب الرسول (ﷺ) ليرتبط بالله تعالى فيمتلئ قوة على قوة.

3- مكانة عليّ:

ماذا يعني تخلف عليّ (رضي الله عنه)؟
أنه يعني تناقض المشركين، ففي الوقت الذي كذبوا فيه الرسول (ﷺ)، لم يكن ليجدوا أفضل من الرسول (ﷺ) لحفظ ودائعهم.
كما أن اختيار علياً لهذه المهمة يدل على سمو مكانته ورباطة جأشه وأمانته.. كيف لا وقد تربى منذ صغره في مدرسة القرآن وهكذا فتقديرنا لأصحاب رسول الله (ﷺ)، لا يحجب عنا تقدير آل بيته، والعكس.

4- الدور الذي لعبه الشخص العادي في الإسلام:

يبدو ذلك جلياً من الدور لعبه عبد الله بن أبي بكر وأخته أسماء، مع أنها كانت فتاة صغيرة السن.
ويتضح ذلك من موقف الراعي، وهو يعفي سير أغنامه أحد أقدام عبد الله.

5- الخوارق:

من هذه الخوارق خروجه على إسلام من بيته، وقد أحاط به المشركون، فقد علق النوم بأعينهم جميعاً، وما امتلأت به رؤوسهم «ومن باب السخرية» من التراب الذي ألقاه عليهم الرسول، إذ خرج وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يس/9.

ومن ذلك حادثة سراقاة وقصة شاة أم معبد، وكانت شاة خلفها الجهد والضعف والأعباء، عن الغنم، وكان رسول الله (ﷺ) استأذنها في حلب هذه الشاة، فمسح ضرعها، وذكر اسم الله، وقال: ﴿اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَتْ (فَتَحَتْ مَا بَيْنَ أَرْجُلِهَا وَدَرَّتِ اللَّبَنَ)، وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ، فَدَعَا الرَّسُولُ (ﷺ) يَا نَاءَ يَرِيضُ الرَّهْطُ يُشْبِعُ الْجَمَاعَةَ، فَحَلَبَ فِيهِ ثَجَا (لَبْنًا غَزِيرًا) حَتَّى غَلَبَهُ الثُّمَالُ (الرُّغْوَةُ)، فَسَقَاهَا فَشَرِبَتْ حَتَّى رَوَيْتُ، وَسَقَيْ أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا¹، وَشَرِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِرُهُمْ قَائِلًا: سَأَفِي الْقَوْمَ آخِرُهُمْ ❁، مؤكداً في ذلك أدب النبوة في التضحية.

6- استقبال الرسول (ﷺ):

كان يوم دخول الرسول (ﷺ) المدينة يوماً حافلاً بالفرح والابتهاج، فقد تزينت هذه المدينة، وأشرق جوانبها بالبهجة والسرور، فقد لبس الناس أحسن ما عندهم من الملابس، ووقفت ربات الخدور من على سطوح المنازل، وهلل الصبايا يصيحون بفرح وابتهاج، وجاء رسول الله، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويضربن الدفوف، والحبشة تلعب بجرايبها².

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص255.

² - المرجع السابق، ص255.

وجاء في الصحيحين بمسند من أبي بكر قال: ((وخرج الناس حيث قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. الله أكبر... جاء محمد، وروي عن عائشة، قالت: لما قدم الرسول المدينة جعل النساء الصبيات والولائد يقلن: طلع البدر علينا، من ثنيات الوداع)).

ولما ارتفع النهار... ركب الرسول (ﷺ) ناقته القصواء في موكب حافل، والمسلمون يحيطون به مشاة وركباناً، وقد تقلدوا سيوفهم، وتحلوا بأحسن ملابسهم، وعلى وجوههم الزهو والبشر، وبلغ حرصهم على تكريم الرسول (ﷺ)، أنهم كانوا يتزاحمون على زمام ناقته للتبرك من ذلك، وكان الرسول لا يمر بدار من دور الأنصار، إلا اعترضوا طريقه قائلين: هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة والثروة، فيتبسم شاكراً داعياً لهم بالخير قائلاً: ﴿خُلُوْا سَبِيْلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُوْرَةٌ﴾ (يريد الناقة).

كل هذا يدل على مدى محبة المسلمين للرسول (ﷺ)، ولكن هذه المحبة ليست مجرد إتباع، بل هي أساس الإتياع ومصدره، ولولا المحبة العاطفية لما وجد الوازع الذي يحمل على الإتياع.

ولقد تاه قوم حسبوا إن محبة الرسول (ﷺ) ليس لها معنى سوى الإتياع له والاقتياء به، وفاتهم أن الاقتداء لا يأتي إلا بدافع، وإلا فكم من مؤمن بالله ونبوة محمد بعقله الأزل، ولكن عواطفه منصبة إلى محبة شيء من مظاهر الدنيا، فلا يقوده إيمانه خطوة واحدة عن طريق الإتياع¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص168.

ويتعذر لأي إنسان أوتي البلاغة والفصاحة أن يصف السعادة الغامرة في نفس أبي أيوب عندما تركت الناقة أمام باب داره.

وحسبنا أن نتأمل تسابق أبي أيوب وزوجته إلى التبرك بآثار أصابع الرسول (ﷺ) في قصعة الطعام، كلما عاد إليهم، وفيه بقية من الطعام¹.

وقد روى البخاري ومسلم صوراً كثيرة من تبرك الصحابة بآثار النبي عن ذلك ما رواه البخاري في كتاب اللباس في باب (ما يذكر في الشيب) من أن أم سلمة زوج النبي كانت تحتفظ بشعرات من شعر الرسول (ﷺ) في جلجل لها (ما يشبه القارورة).

7- حب الوطن في قلب الرسول (ﷺ):

لقد كان حب الوطن (مكة) يغمر قلب الرسول (ﷺ)، كيف لا وحب الوطن هو أحد مظاهر نظام الفطرة، الذي هو جزء من الطبيعة الإنسانية، وكما ألمعنا إليه عندما عرج الرسول إلى السماء، وتناول إناء اللبن دون الخمر.

لقد تفجر نظام الفطرة - حب الوطن في قلب الرسول (ﷺ) بأحلى معانيه وأشكاله عندما اتجه ركب الرسول (ﷺ) إلى المدينة، فقد نظر إلى مكة نظرة وداع ثم قال: ﴿وَاللَّهِ إِنِّي لَأُخْرِجُ مِنْكَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَأَكْرَمُهَا عَلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ﴾.

وفي رواية أخرى، قال: ﴿وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ اللَّهُ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ فَهَرًّا مَا خَرَجْتُ﴾¹.

¹ - المرجع السابق، ص 169.

وفي نظرنا أن الرواية الثانية هي السليمة لأن حب الوطن ينبع من القلب، وإن الرسول ودع وطنه وداعاً يفطر حباً وحناناً إلى هذا الوطن الحبيب، أو ينقبض حسرة وأسى على فراقه.

8- الناهض الحقوقي:

قال ابن اسحق: ((فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، قدم له أفضلها، ثم قال: ((اركب، فذاك أبي وأمي، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أني لأركب بغيراً ليس لي... قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي!!، قال: لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا... قال: قد أخذتها به))².

وفي هذه الظروف الحالكات لا ينسى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذكر بأهمية الناهض الحقوقي في حياة الأمم، وتحديده تحديداً دقيقاً، ذلك إن الراحلة هي لأبي بكر، ولا يسوغ «في مقام النبوة» أن يتغول الرسول صلى الله عليه وسلم على حقوق عليه، أن أدب النبوة المثل الأعلى تقضي بمعالجة كل شيء وتحديد كل شيء، ولو كان صغيراً أو جزئياً.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص246.

² - المرجع السابق، ص245.

9- تأسيس مسجد قباء:

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن الشموسي بنت النعمان فقالت: ((نظرت إلى الرسول (ﷺ) حين قدم، فنزل، فيأتي الرسول (ﷺ) مع أصحابه، فيقول: يا رسول الله، بأبي وأمي، تعطيني أكفك، فيقول: لا أخذ مثله، حتى أسسه))¹.
إذاً فرحلة الرسول (ﷺ) إلى المدينة لم تكن نزهة للاستمتاع، أنها رحلة عذاب شاقة، أنها رحلة الواجب العظيم، للنبا العظيم.
وهكذا وقبل أن تطأ أقدامه المدينة التي هاجر إليها، كان حريصاً على البناء والعمران الذي هو صلب هذا الدين العظيم.

¹ - المرجع السابق، ص252.

أول صلاة جمعة في الإسلام

لما وصل الرسول (ﷺ) إلى دار بني سالم بن عوف، وهو يطوف في يثرب، أول قدمه أدركته صلاة الجمعة، فصلاها هنالك بمن كان معه من المسلمين، فكانت أول جمعة أقامها في الإسلام، وكانت أول خطبة خطبها أن قام فيهم، فحمد الله وأتى عليه بما هو أهله، ثم قال: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ، فَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ، تَعْلَمَنَّ وَاللَّهِ لِيَصَفَعَنَّ أَحَدُكُمْ (المَوْتُ المَفْاجِئُ)، ثُمَّ لِيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهُ رَابِحٌ، لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ، لَيْسَ لَهُ تَرْجِمَانٌ، وَلَا حَاجِبٌ يَحْجِبُهُ دُونَهُ، أَلَمْ يَأْتِكِ رَسُولِي فَيُلْغِكَ، وَأَتَيْتَكَ فَلَا، أَفَضَلْتَ عَلَيْكَ، فَمَا قَدِمْتَ لِنَفْسِكَ... فَلْيَنْظُرَنَّ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْئًا، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قُدَامَهُ، فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ مِمَّنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَفِيَّ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ بَشِقٌ مِنْ تَمْرَةٍ فَلِيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنَّهَا تَجْزِي عَشْرًا مِثْلَهَا إِلَى سَبْقِ عَلَى ضَعْفٍ¹.

لا شك أن أهم منهج الأحلاف هو المنهج الارتقائي الذي يعي الإنسان ويجيش طاقاته من أجل عمل الخير.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص254.

وهذا العمل واضح في القرآن: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ المائدة/48، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آل عمران/133، ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ البقرة/11.

أليست هذه الخطبة بحد ذاتها تعبئة للمسلمين، وتحريك كافة طاقاتهم من أجل العمل الصالح، وكم يحتاج المسلمون إلى ذلك، وهم على عتبة انتشار أعظم دولة.

بناء المسجد

ليس عبثاً أن تكون الصلاة أول فرائض الإسلام، لأنها أول حقائق التدين، وأقوى وسائل اتصال العبد بربه ..

ذلك أن وقوف العبد بين يدي مولاه خاشعاً متذللاً متجرداً منهم كل معاني الحول والقوة، داعياً مناجياً مستعيناً مستهدياً، موقناً إن الله وحده مصدر النعم وواجب القوة، ومالك الأمر في الدنيا والآخرة، هذا الوقوف على هذا الخشوع والتذلل والابتهاال في طلب المعونة .. هو لب الدين وحقيقته وملاك أمره .

من أجل هذا كانت الصلاة عن الدين، وكانت المحافظة عليها واجبة بغية السفر والإقامة والأمن والخوف والصحة والمرض، كان تكرارها خمس مرات في اليوم توثيقاً لهذه الصلة .

والصلاة لقاء محبة وأنس بين العبد وربيه يفرح بها المؤمن الصادق، كما يفرح الحبيب بلقاء الحبيب، ولعل هذا هو سر قول الرسول (ﷺ): ﴿جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ﴾، فقد كان رسول الله (ﷺ)، إذا انتظر الصلاة هامت إليها أشواقه، فيقول: ﴿أَرْحَنًا بِهَا يَا بِلَالٍ﴾ .

لهذه الأسباب كان أول ما اهتم به الرسول (ﷺ) بناء المسجد، حيث بنى مسجد "قبا" قبل أن يدخل المدينة، ولم يكن "مكثه بقبا" غير بضعة أيام، ولما دخل المدينة كان أول ما فكر فيه بناء مسجده وكان الوضع الذي بركت فيه ناقته مريداً لفلاحين يتمين من بني النجار، فاختره الرسول (ﷺ) لمسجده، وكان فضاءً واسعاً يخفف فيه التمر، وفيه بعض أشجار النخيل والفرقد وبعض القبور المهجورة، وكان أسعد بن زرار قد اتخذ في ناحية منه مسجداً صغيراً أحاطه بجدار من الحجارة، وجعل عليه عريشاً من سعف النخل، فكان يصلي فيه وأصحابه، قبل أن يقدم الرسول (ﷺ) إلى المدينة، فلما قدمها رسول الله (ﷺ)، كان يصلي حيثما تدرکه الصلاة، في هذا المسجد أحياناً، وفي غيره أحياناً أخرى¹.

وشرع الرسول (ﷺ) في بناء المسجد فأمر بقطع الشجر، ونبش القبور، وتغيب العظام، وتسريب المياه المتجمع في الأغوار ثم ردمت الحفر وسويت الأرض وشرع بالبناء بأبسط صورة... فعناء من الأرض طوله خمس وثلاثون ذراعاً، وعرضه ثلاثون، يحيط به حائط من البنيان لا يزيد على قامة الرجل، أساسه من الحجارة وحيطانه من الليف، وله ثلاثة أبواب، وفي ناحية منه أقيمت ظلّه في الجريد على قوائم من جذوع النخل، كانت تسمى "الصفة"... أما باقي المسجد فقد ترك مكشوفاً بلا غطاء، وظلت أرض المسجد على حالها لم تفرش بشيء، حتى نزل ذات ليلة المطر، فابتلت، فجل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه، فيبسطه تحته ليصلي، فلما قضى رسول الله (ﷺ) الصلاة، قال: مَا أَحْسَنَ هَذَا الْبِسَاطُ.

ويروى أن الرسول (ﷺ) قال: ﴿ابْنُوا لِي عَلَى رِيشَا كَعُرِّي مُوسَى، بِشَمَامَاتٍ وَخَشَبَاتٍ وَظِلُّهُ كظِلَّةِ مُوسَى... قِيلَ وَمَا ظِلَّةُ مُوسَى؟، قَالَ: كَانَ إِذَا قَامَ أَصَابَ رَأْسَهُ السَّقْفُ﴾، ومعنى ذلك إن الرسول (ﷺ) كان لا يبغي من المسجد إلا أن يكون

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، دار المعارف، القاهرة 1953، ص 260.

مكاناً صالحاً لأداء الصلاة: وكفى دون زخرف أو زينة وكان عليه الصلاة والسلام يعمل مع أصحابه في بناء هذا المسجد، فكان يحمل الحجارة واللبن حتى يغبر صدره، وحتى دفع ذلك بعض الصحابة إلى أن يقول: ((لئن قعدنا والنبي يعمل: لذاك منا العمل المضلل فجعل الصحابة ينشدونها، ويتغنون بها، وهم يعملون)).

لقد لقي الرسول (ﷺ) رجل من أصحابه، حاملاً لبنة، فقال: ((أعطينها يا رسول الله، فقال له الرسول (ﷺ): أذهب فخذ غيرها، فلست بأفقر إلى الله مني))، وكان الجميع يعملون مبتهجين، يرتجزون الأراجيز وينشدونها.. ولما تم البناء جعله النبي (ﷺ) مجتمعاً لأصحابه يصلي بهم فيه، ويخطبهم، ويعلمهم أصول دينهم، وكان يخطب فيهم قائماً، مستنداً إلى جذع من جذوع النخل، حتى كبرت سنة، وضعف عن القيام، فصنعوا له منبراً بسيطاً من الخشب، يتكون من درجتين، ومجلس يجلس فوقه، حتى يقوم للخطبة، فيقف على أدنى درجتين، ثم يخطب، ولم يكن بالمسجد مصابيح تتيه بالليل، فكانوا إذا اشتد الظلام أحضروا بعض الحطب، وأشعلوا فيه النار ومازالوا على ذلك حتى قدم عليهم تميم الداري من الشام، فأوقد فيه المصابيح، وعلقها في سواري المسجد، فسر بذلك الرسول (ﷺ)، وقال له: ﴿نُورُ الْإِسْلَامِ نُورُ اللَّهِ عَلَيْكَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لِي ابْنَةٌ لَأُنْكحْتُهَا﴾¹.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص261.

وبقي المسجد على هذه الحال من حيث البساطة، اللهم إلا التغيير الذي حدث في السنة السابعة من الهجرة، حيث زاد الرسول (ﷺ) مساحته فجعلها خمسة وثلاثين ذراعاً في خمسة وثلاثين، وقيل: خمسين في خمسين¹.

ثم أخذ (ﷺ)، في بناء مساكنه إلى جوار المسجد، فبنى حجرتين إحداهما لزوجته سودة بنت زمعة، والأخرى لعروسه عائشة بنت أبي بكر.

ثم جعل يزيد في مساكنه شيئاً فشيئاً كلما اتخذ زوجة بنى لها بيتاً، حتى صارت بيوته تسعة، وكانت في غاية التواضع والتقشف، محطبيها الخارجي من اللبن، وسقفها من جذوع النخل وجريدة، وقواطعها الداخلية من الجريد المكسو بالطين، ومن المسوح الصوفية.

وكانوا إذا جاء وقت الصلاة ونادى منادي رسول الله: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس، وقيل أنهم يجتمعون لوقت الصلاة دون دعوى.

وكان الرسول (ﷺ) قد أهمه أمر الأذان وإعلام الناس بالصلاة حتى قال: لقد هممت أن أبعث رجالاً، فيقومون على أطام المدينة فيؤننون الناس بالصلاة.

واستشار في ذلك أصحابه، فقال بعضهم: ((نستعمل الناقوس، كما يفعل النصارى، وقال بعضهم: ننفخ في البوق، كما يفعل اليهود، وقال بعضهم: نضرب بالدف، كما يفعل الروم، وقال بعضهم: نوقد ناراً، كما يفعل المجوس، واقترح بعضهم أن ترفع راية، ولكن الرسول (ﷺ) رفض كل ذلك))².

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 262.

² - المرجع السابق، ص 262.

قال ابن اسحق: ﴿فَبَيَّنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ رَأَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ، بِنَ ثَعْلَبَةَ
النداء فَأَتَى الرَّسُولُ (ﷺ)، فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّهُ طَافَ بِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ طَائِفٌ:
مَرَّ بِي رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ،
أَتَبِيعُ هَذَا النَّاقُوسَ؟ قَالَ وَمَا تَصْنَعُ بِهِ، قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ
عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ،
أَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...)).. فَلَمَّا أَخْبَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ
(ﷺ)، قَالَ: إِنَّهَا لِرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فُقِّمَ يَا بِلَالُ، فَأَلْقَهَا عَلَيْهِ، فَلِيُوَدِّنَ بِهَا، فَإِنَّهُ
أَنْدَى (أَعْلَى وَأَبْعَدَ مَدَى) صَوْتًا مِنْكَ، فَلَمَّا أَدِنَ بِهَا بِلَالُ، سَمِعَهَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ،
وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَى الرَّسُولِ (ﷺ)، وَهُوَ يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعُثَكَ بِالْحَقِّ
لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِي رَأَى، فَقَالَ الرَّسُولُ (ﷺ): فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ... ﴿

قال ابن سعد: ((وبقي ينادي في الناس: الصلاة جامعة: للأمر يحدث، فيحضرون
له، مثل فتح يقرأ، أو أمر يؤمر به، فينادي: الصلاة جامعة، وإن كان في غير وقت
الصلاة)).

الدلائل والعبر

يمكننا أن نسجل في هذا المقام الملاحظات الآتية:

1- أهمية المسجد في المجتمع الإسلامي:

اتضح لنا من أخبار بناء المسجد أن الرسول (ﷺ) وضع هذا الأمر في سلم الأولويات، وأنه كان حريصاً على ذلك قبل أن يقدم على أي شيء آخر.

وهذا أمر في منتهى البداهة لأن المسجد حجر الزاوية في الحياة الإسلامية، ذلك أن هذه الحياة تكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام العقيدة الإسلامية وآدابها، وهذا كله ينبع من روح المسجد ووحيه.

إن التقاء المسلمين يوماً خميس مرات في بيت من بيوت الله، وقد تساقطت بينهم فوارق الجاه والمال، هذا الالتقاء هو البوتقة التي تنصهر بها نفوسهم، وتجبل طباعهم على التآلف والتآخي والمحبة ويمكن القول إن المسجد أبرز أعمدة الحضارة ومظاهرها ومرتكزاتها، فهو بيت الصلاة، ومحل بيعة الخليفة، ومجلس الشورى لبحث أمور الحرب والسلم، ومعقد الرايات وأخيراً وليس آخراً هو المدرسة التي يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة وشؤون الحياة.

وأبعد من ذلك، فمن المتعذر أن نرى مظهراً من مظاهر الحياة، إلا ويأتي أدب المسجد ليقدمها ويرسخ أحكامها، الأمر الذي يمكننا أن نقول إن المسجد هو ذلك العالم الأصغر الذي تتمثل به كافة مظاهر العالم الأكبر بامتداده، وتشعباته.

2- جواز نبش القبور الدارسة واتخاذ موضعها مسجداً:

علق الإمام النووي على هذا الحديث، فقال فيه جواز نبش القبور الدارسة، وإنه إذا أزيل ترابها المختلط بصددهم ودمائهم، جازت الصلاة في تلك الأثر وجواز اتخاذ موضعها مسجداً، إذا طيبت أرضه، كما أن الحديث يدل على أن الأرض التي دفن فيها الموتى، ودرست، يجوز بيعها، وإنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده إذا لم توقف¹.

وقال علماء السيرة عن تلك القبور التي كانت في المريدة أنها كانت قبوراً قديمة دارسة، فلا يتأتى فيها تصور الصديد والدم، ومع ذلك وقد نبشت، وأزيل ما فيها من بقايا قلت: ((ومحل جواز نبش القبور الدارسة، واتخاذ موضعها مسجداً إذا لم تكن الأرض موقوفة، أما إذا كانت كذلك، فلا يجوز تحويلها إلى شيء آخر غير ما وقفت عليه))².

3- حكم تشييد المساجد وزخرفتها:

لا جدال أنه في تشييد المساجد مصلحة مرسله باعتباره يحقق الحكمة التي من أجلها شرع بناء المساجد، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ التوبة/18، كما يستدل على ذلك بما فعله عمر وعثمان من إعادة بناء مسجده عليه الصلاة والسلام.

¹ - أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن الزركشي: إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص236.

² - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص177.

أما النقش والزخرفة، فقد كرههما عامة العلماء، وهم في ذلك بين محرم ومكره كراهة تنزيه، وإن كانوا قد اتفقوا على تحريم صرف المال الموقوف لعمارة المسجد على شيء مهم من الزخرفة والنقش، أما إذا كان المال المصروف عليهما من الباقي نفسه، وبرغبة منه، فيرد فيه الخلاف المذكور¹.

والحكمة من كراهية النقش وحرمة أن من شابه المسجد الذي زين بالنقوش أن يشغل قلب المصلين، فلا تنتهياً لهم فيه أسباب الخشوع والخضوع لله عز وجل².

ولكن ألا يمكن أن نستخلص من بناء مسجد الرسول (ﷺ) مبدأ أساسياً هو تلك البساطة الفاتحة في بناء هذا المسجد، وبالتالي فإن أي تزويد لا يرقى إلى مستوى سد حاجات المسلمين المعوزين، وإن حفظ لنفس «حسب تدرج مقاصد الشرع» أثقل في الميزان والاعتبار عند الله في هذا التزويد في الزخرفة والنقش...

4- العبر الأخرى:

ومن هذه العبر حرص الرسول (ﷺ) الشديد على عدم انتزاع مال اليتيمين، إلا بعد موافقة عمهما المسؤول عنهما احتراماً لحقوق الملكية التي عززها الإسلام بشتى التعزز والترسخ.

ومن جهة أخرى، فقد اتضح لنا كيف أن الرسول (ﷺ) كان حريصاً على ألا يتميز على أحد من المسلمين، حيث انخرط في بناء المسجد بكد وبكدح منصّباً منه العرق راسماً صورة عن القدوة والأسوة الحسنة.

¹ - المرجع السابق، ص 177.

² - المرجع السابق، ص 177.

نظام المؤاخاة

وطبة الرسول (ﷺ) المخططات والتصاميم لإشادة مجتمع جديد في المدينة المنورة (يثرب) بما يتفق مع الدين الحنيف، وبما يجعل من هذه المدينة قاعدة رصينة وصلة للإشعاع والعطاء.

وكانت المشكلة الأولى التي واجهته هي المشكلة الاقتصادية، ومردّها أن أصحابه المهاجرين كانوا قد انسلخوا عن الوطن بكل ما يمتون له بصلة، ثم انخرطوا في هذا المجتمع الجديد دون أن يملكوا شروى نقير.

أضف إلى ذلك فقد صمم الرسول (ﷺ) الفئتين الأساسيتين الفاعلتين فب المجتمع الجديد ألا وهما لمهاجرين والأنصار، صهرهما بوتقة واحدة هي بوتقة الإيمان، لذلك كان نظام المؤاخاة الوسيط الكيمائي الذي قام بهذا التفاعل.

يقول ابن سعد: ((إن عملية المؤاخاة تمت على مرحلتين، مرحلة أولى آخى فيها الرسول (ﷺ) بين المهاجرين بعضهم مع بعض، ومرحلة أخرى آخى فيها بين المهاجرين والأنصار))¹.

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص238.

وكانت المؤاخاة على الحق والمؤاساة، حيث نص نظامها على حق التوازن بين

المتآخين دون الأرحام¹.

وفي المرحلة الأولى التي كانت المؤاخاة فيها بين المهاجرين أنفسهم، قال رسول الله
لأتباعه: ﴿تَأَخَّوا فِي اللَّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: هَذَا
أَخِي﴾.

ثم آخى بين عمه حمزة، ومولاه زيد بن حارثة، حتى حمزة أوصى لزيد يوم أحد إن
حدث به حادث الموت².

كما آخى بين جعفر بن أبي طالب رغم غيابه في الحبشة ومعاذ بن جبل وغيرهم،
أن المتآخين من المهاجرين والأنصار، فكانوا بتسعين رجلاً، خمسة وأربعون من
المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، على ما تزعم إحدى الروايات، أو فئة
على رواية أخرى، خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار³، ولا حاجة للقول
بأن أساس هذه المؤاخاة قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات/10.

وقوله (ﷺ): ﴿الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَأَيُّظْلِمُهُ، وَلَا يُسَلِّمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ
اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ﴾.

أجل لقد تحركت مشاعر الإيمان والتضحية في كل هذه المبادئ الإنسانية،
فتفجرت عن أعظم مظاهر التعاون والتعاقد الإنسانيين، إذ كان الأنصاري

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص238.

² - سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص505.

³ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص238.

يتشاطر أخاه المهاجر داره وماله، وهو بذلك طيب النفس قريير العين، حتى لقد عرض سعد بن الربيع الأنصاري على عبد الرحمن بن عوف أن يشاطره ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها¹.

فقد حفظ الله سبحانه للأنصار هذه المكرمة، ونوه بذكرها لهم في كتابه، إذ قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر/9.

ولكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة في إخوانهم الانصار ليعيشوا كلاً عليهم، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش، فاشتغل بعضهم في التجارة في أسواق المدينة، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار، وكانوا يجهدون أنفسهم في العمل حتى ينصب العرق منهم، وتظهر آثاره في ثيابهم وأبدانهم².

ولقد قاسى المهاجرون في المدينة كثيراً من ضنك العيش، ومررت بهم أزمت شديدة قاسية، ولم يكن ذلك تقصيراً من الأنصار في معونتهم، بل أن عدوهم أخذ يتزايد في المدينة، حتى غدا أكثر مما تحتمله طاقتها، لكن رابطة الأخوة الحميمة الصادقة التي جمعت بينهم، هونت عليهم كل شدة، وسهلت لهم كل صعب وعوضهم عن شعائر الاجسام نعيم الارواح وسعدة الأنفس.

لقد كانت هذه الأخوة شيئاً جديداً على المجتمع العربي، إذ قطعت أوصال عصبية القبيلة، وفككت رابطة الدم، بل كانت نوعاً فريداً في تاريخ الأخوة الإنسانية، قضى على كل تعصب للجنس واللون والقرابة والوطن.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص264.

² - المرجع السابق، ص264.

وقد جرت هذه العملية قبل غزوة بدر، وكان مبررها، لما يذكر كلا السهيلي في الروض الآنف، أن (ﷺ) أراد أن يذهب من المسلمين المهاجرين وحشية الغربية، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض.

ويرى الدكتور "نبيه عاقل" أن هذا التبرير ينقص ناهية هامة هي الناحية الاقتصادية، أو بالوضع المادي المزدي الذي كان يعاني منه المهاجرون، فجاء هذا النظام حلاً مؤقتاً لأزمته، ودليل صدق تفسيرنا، «والكلام للدكتور عاقل» إن العمل بهذا النظام وما استتبعه من تنظيم لعملية الميراث قد توقف بعد النصر الذي حققه المسلمون في غزوة بدر، وما أفاء الله عليهم من غنائم وأموال سدت عوز المحتاجين، فلم يعد له ما يبرره¹.

وعلى أثر نصر بدر تنزلت الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأنفال/75، حيث نسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الإسلام، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوي رحمه، فكان من حملة التدابير التي اتخذها الرسول لتفريج كرب الفقراء من المسلمين المهاجرين إن أذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم ان يناموا في المسجد، وكان يطعم بعضهم معه، ويطلب من أصحابه القادرين أن يطعموا الآخرين، وقد أطلق على هؤلاء اسم أهل الصفة، لأنهم كانوا يأدون إلى (صفة) المسجد، أي المكان المسقوف فيه، وكان أبو ذر واحداً منهم².

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1، ص238.

² - المرجع السابق، ج1، ص255.

الدلائل والعبر

يتضح من بيعتي العقبة أن الرسول (ﷺ) كان مصمماً على بناء مجتمع سياسي في يثرب بدليل إن المبايعين استفسروا عن مصير بقائه في مدينتهم بعد الانتصار على قريش، وكان جوابه لهم البقاء بين ظهرانيتهم.

وهكذا فقد كان على الرسول (ﷺ)، وفقاً لطبائع الأشياء التداعي المنطقي للأمر أن يبتدئ بالتحذير والترسيخ وخلق قوة الأساس، أي بناء المجتمع المدني الأهلي، ثم يعزز ذلك ببناء المجتمع السياسي.

وهكذا كانت تجربة المؤاخاة والأساس الذي قامت عليه، ألا وهو خلق أوامر وغرس التآخي والتحابب والمحبة والألفة والمودة، ثم تلا ذلك التجربة السياسية، أي بناء المجتمع السياسي القانوني في إطار الصحيفة.

إن إلقاء نظرة سريعة على المادة الأولى من الصحيفة ترينا أن هنالك أوضاعاً جديدة طرأت على هذا المجتمع، حيث تقول هذه المادة:

((هذا كتاب من محمد بين المؤمنين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم.

فهؤلاء ليسوا مؤمنين، وإنما قبلوا أن ينخرطوا في هذا المجتمع وأن ينصروه بأسنتهم لا بإيمانهم)).

ومن جهة أخرى، فقد أصبح اليهود جزءاً لا يتجزأ، من هذا المجتمع، بدليل قول الصحيفة: وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين.

وقد وردت بنود أخرى بنفس المعنى اللغوي تتعلق ببقية بطون يهود العرب،
إذاً فمهمة التآخي لا يمكن أن تبقى فردية وشخصية، "لاسيما أنها كانت محدودة
وفي إطار مائة شخص، كما سبق ذكره، وإنما تحتاج إلى تنظيم جديد يلقي عبء
المسؤولية على الدولة والمجتمع لا لأفراد، وهذا يتضح من قول الصحيفة.
وإن المؤمنين يتغافلون فيما بينهم، ويغدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
وقولها أيضاً: وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً "مثقل بالدين" بينهم أن يعطوه فنحن
هنا أمام تقنين لتجربة المؤاخاة، ونقله في المسؤولية تلقي عبء التعاون على
المجتمع والدولة.

حماية العفيفة

لقد كانت هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة قراراً بدعوته الحبيبة ليست قراراً بنفسه بعد أن وقفت قريش لها بكل سبيل تحول بينها وبين الظهور والانتشار، فهل من المعقول أن تسكت قريش عن الرسول وتتركه في المدينة ينشر دعوته؟¹

هذا ما أخذت قريش تعمل له وتسعى إليه، وقد جعلت أعداء الإسلام في داخلها، وهكذا فقد قضى المسلمون أيامهم الأولى بالمدينة بين خوف وحذر، يتربصون الهجوم عليهم من الخارج¹، إذاً من الطبيعي أن يحمي المؤمنون دعوتهم، وأن يدفعوا عنها ممن يعتدي، ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين بالقتال، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿39﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج/39-40.

ولكن هل كانت قريش العدو الأول والأخير؟

الجواب بالنفي، فقد كان هنالك اليهود من أهل المدينة ومن حولها، وكان هنالك المنافقون من أهل المدينة ومن حولها، وكان هنالك المشركون من أهل المدينة، ومن قبائل العرب جميعاً.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 271.

أما اليهود، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار في الأرض، وأن الرسل والأنبياء لا يكونوا إلا منهم، ولهذا فإن نفوسهم امتلأت حسداً وغيرة، وأكل قلوبهم الحقد والغيظ، كراهية في الإسلام، وهكذا فقد أخذوا يشككون في نبوة الرسول (ﷺ)، ويقولون: ليس محمد هو الرسول الذي كنا ننتظر، وليس دينه هو الدين الذي كنا نبتغي، وحرّفوا ما جاء في كتابهم عنه، وغيروا كل ما يدل عليه من اسم، أو وصف أو إشارة، وأضمرّوا العدوان والبغضاء، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ آل عمران/183، يريدون اقحام الرسول (ﷺ)¹.

ومع هذا، فقد جعل الرسول (ﷺ) يدعوهم إلى الإسلام برفق، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويقول لهم في هواده: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ آل عمران/64، ويعتبهم في هواده: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران/98.

ويذكرهم بنعمة الله عليهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة/40.

وقد جعل الرسول (ﷺ) يلاينهم ويتراضاهم ويصابرهم، فيصوم معهم يوم عاشوراء ويتوجه إلى بيت المقدس ويؤمنهم على حريتهم ودينهم ودماؤهم وأموالهم، فقدموا يده إليهم للتعاون على حماية يثرب وطنهم²، ولكن نيران الحسد كانت تغلى في

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص273.

² - المرجع السابق، ص274.

نفوسهم، قال تعالى: ﴿مَا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ البقرة/105 .

روى ابن اسحق فيما كان من حديث بن سلام -خبر اليهود وعالمهم حين أسلم أنه قال: ((لما سمعت رسول (ﷺ)، وعرفت صفته واسمه وهيئته كنا أتولف له، فلما قدم المدينة، فأقبل رجل منا أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدم الرسول كبرت، فقالت عمتي حيث سمعت ذلك... لو كانت سمعت بموسى بن عمران فازدت، (قال): قلت لها: ابن عمه، هو والله أخو موسى وعلى دينه بعث بما بعث به، (قال): فقالت: يا ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة، (قال): قلت لها: نعم.. قالت: فذاك إذأ... قال: خرجت إلى الرسول، فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا))¹ .

وروى ابن اسحق من حديث صفية بنت حيي من أخطب زوج الرسول الله (ﷺ)، قالت: ((لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة، ونزل بقباء غدا عليه أبي وعمي مفلسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا فاترين كسلانين ساخطين، فو الله ما التفت إلي واحد منها، مما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال أتعرفه وثية؟ قال... نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت)) .

أما المنافقون فهم الذين قالوا: ((أما بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، يصلون كما يصلي المسلمون ويصومون كما يصوم المسلمون، ولكن قلوبهم تضمم العداوة والبغضاء)) .

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص275.

ويقول الرواة: ((إن عبد الله بن أبي بن سلول كان رأس المنافقين، وإن الذي دعاه إلى ذلك أن أهل المدينة كانوا أوشكوا أن يملكوه عليهم، وذلك حيث قدم الرسول ﷺ)) المدينة)).

كذلك كان الأعراب الذين يحيطون بالمدينة، فقد كانوا لا يزالون على شركهم، فاستغلت قريش سلطانها الذي عليهم، وجعلت تحرضهم على الإسلام.

إذاً كان الإسلام في حاجة للدفاع عن نفسه، وهكذا فقد أذن الله للمؤمنين في القتال، وذلك في حدود الدفاع عن العقيدة وحمائيتها، ونزلت الآيات لهذه الغاية¹.

■ فالقتال للذين يقاتلون المسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة/190.

■ والقتال للذين يخرجون المسلمين من ديارهم، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ البقرة/191.

■ وللذين يفتنون المسلمين: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة/191.

■ وللذين يقفون في سبيل الدعوة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ البقرة/193.

■ وللذين يخونون العهد: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الأنفال/58.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص278.

■ والمبدأ العام هو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا
اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة/194 .

■ على أن يكون القتال كله في سبيل الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/194 .

■ والأساس هو الجنوح للسلم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنفال/61 .

وبالطبع، فلم يكن القتال وسيلة لإكراه الناس على العقيدة، لأن هذه مسألة قلبية
تتأتى بطبعها الغرض، وهذا ما أكدته تعالى بقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة/256، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾
الكهف/29 .

تنظيم الرسول للعلاقات بين العناصر المختلفة

الذي كانت تسكن المدينة

«ومسألة الصحيفة- دستور المدينة»

لما استقر الرسول (ﷺ) في المدينة رأى أن يضع الأسس اللازمة لتنظيم الحياة العامة فيها، وذلك حتى تنضج الأمور، وتتحدد العلاقات وتضبط المسؤوليات التي تترتب على جميع الفرقاء الذين يشتركون في مدينة واحدة، لاسيما أنهم من أصول مختلفة، ويعتقون أكثر من ديانة، ولا يجمعهم وحدة الموقف أو المصلحة، وقد حفظ لنا ابن هشام¹ نص كتاب أورده ابن اسحق في سيرته ونسبته إلى الرسول (ﷺ)، وهذا الكاتب على ما يقول ابن اسحاق هو النص الذي كتبه الرسول (ﷺ)، وحدد فيه صورة العلاقات في المجتمع المدني الجديد وفتاته المختلفة، وما يترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات.

¹ - سيرة ابن هشام، ج2، 119، ابن كثير: البداية والنهاية، ج3، ص215.

الأفكار الأساسية في هذا الدستور

لا مجال لاستيعاب ثراء وخصوبة هذا الدستور، وحسبنا التعرض إلى أمهات الأفكار الواردة فيه:

1- الأمة ومصدر وحدتها:

والغريب أن العرب لم يكونوا يرددون كلمة الأمة، ولا يستعملونها، حتى ولا مفهومها الوحدوي في مهد الإسلام، على لسان الرسول (ﷺ) وفي كتاب الله عز وجل. فلقد كانت الكلمات التي تستعمل مكان الأمة، إلى يوم ميلاد هذه الوثيقة هي القبيلة، البطن، الجماعة... إلخ، وكان واقع التمزق الميرير مصداقاً أليماً لحيوية هذه الكلمات وسيادتها على أرض الجزيرة العربية¹.

وكان الإسلام هو البوتقة التي صهرت أشتات القبائل والبطون في كتلة واحدة متماسكة، تفجر من خلالها في أذهان العرب لأول مرة مفهوم الأمة على تجسيد هذا المفهوم، وترسخ في أول بند من بنود هذه الوثيقة لتنهض عليه بقية المبادئ والأسس التي لا يدفعها لترسيخ المجتمع الإسلامي.

2- تحديد أساس المواطنة في الدولة:

نصت الوثيقة على كون الإسلام أساساً للمواطنة في الدولة الإسلامية الجديدة التي قامت في المدينة المنورة، وأصلت هذه الوثيقة الرابطة الدينية، محل الرابطة القبلية، فعبرت عن المؤمنين بأنهم (أمة من دون الناس)/فقرة: 2/.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 184.

وحقيقة الأمر أن مؤد هذا الدستور حددت أن الذين آمنوا بالدين الجديد من المهاجرين والأنصار (من قريش ويثرب) يكونون (أمة واحدة من دون الناس)، ولكن أضافت إلى هؤلاء المؤمنين (من تبعهم الحق بهم، وجاهد معهم).

وإذا علمنا أمة كان من بين الذين جاهدوا مع المؤمنين أقوام من الأعراب والمنافقين والمؤلفة قلوبهم الذين يحاربون للأجر لا للعقيدة، إذا علمنا ذلك، أدركنا أن هذه الأمة كانت القيادة النواة، وأنها قد استقطبت، وقادت كل الذين ارتبطوا سياسياً بالمجتمع والنظام الجديد، وفي هذا الأمر ما فيه من وضوح الطابع السياسي والمدني لهذا البناء السياسي الجديد¹.

وهذا الدستور، لم يحصر المواطنة في المؤمنين فحسب، بل نصت الوثيقة على اعتبار اليهود المقيمين في المدينة من مواطنين الدولة، وحددت ما لهم من الحقوق، وما عليهم من الواجبات، وهذا ما يتضح من قول الصحيفة: وإن يهود بني عوف مع المؤمنين.

وأبعد من ذلك فالفقرة/20/ من هذا الدستور حددت ببعض الواجبات على المشركين، بما يشير إلى أنهم دخلوا في حكم الدولة الجديدة لأسس تنظيمها التي وردت في الوثيقة، وإلا فكيف يلتزم المشركون بالنص الذي يقرر أنه (لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن).

¹ - د. محمد عمارة: مقال موسوم بعنوان محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، منشور في كتاب محمد نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1972، ص100.

3- تحديد شخص رئيس للدولة:

حددت نصوص الصحيفة شخص رئيس الدولة بأنه رسول وذلك بنصها على أن (ما اختلف فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد)¹، ونصها على (أن ما وقع من حدث أو شجار يخاف فساده بين أهل الصحيفة فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله)²، ولعل المقصود بالنص الأول الخلافات التي تتصل بتغيير نصوص الصحيفة، أو بتطبيق أحكامها، فهذه الخلافات مهما كان شأنها يجب أن يفصل فيها الرسول (ﷺ) بنفسه.

أما النص الثاني، فالمقصود به، هو الخلافات المعتادة بين الناس، إذا وقعت بين القبائل والعشائر التي انضمت إلى الصحيفة على الالتزام بأحكامها، فهذه الخلافات لا ترفع إلى الرسول (ﷺ) إلا إذا (خيف فسادها)، أي كانت من الخطورة، بحيث يخاف منها أن يفسد ما بين أهل الصحيفة من البر والود، وبالتالي يخشى أن تعرض كيان الدولة، واستقرارها، وترابط الجماعات المكونة لها، وهذه هي فكرة النظام العام المتداولة في أدبنا القانوني المعاصر.

ونصت الفقرة/36/ من الصحيفة على أنه لا يخرج من المدينة أحد إلا بأذن محمد، وهو نص واضح الدولة على اعتراف المتعاقدين برئاسة النبي (ﷺ) للدولة الإسلامية.

والخروج هنا للحرب، وليس الانتقال العادي بدلالة أن المادة الأخيرة من الصحيفة أعطت حرية الانتقال بقولها: وأنه من خرج آمن، ومن بالمدينة إلا من ظلم وأثم.

¹ -فقرة/3/ من الصحيفة.

² -فقرة/42/ من الصحيفة.

4- جواز الانضمام إلى الصحيفة بعد إبرامها :

هذا الدستور هو أول وثيقة سياسية متعددة الأطراف تقرر مبدأ جواز الانضمام إليها بعد توقيفها، وهذا المبدأ الذي أصبح اليوم من المسلمات في الفقه الدولي، وتسمى المعاهدات التي تضمنه بالمعاهدات المفتوحة، أو المعاهدات الشارعة هذا المبدأ لم يكن معروف قبل أن تنص الوثيقة المذكورة على سريان أحكامها على أطرافها الأصليين، وعلى من (تبعهم فلقح بهم وجاهد معهم). وهذا النص الذي يفتح مجتمع المدينة على مصراعيه يتفق على مبادئ الدين الإسلامي كخطاب وبيان للعالمين.

5- منع إبرام صلح منفرد مع أعداء الأمة:

نصت الفقرة السابعة عشرة من الوثيقة على ما يلي:
(إن سالم المؤمنين واحد، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم)).

وهذا النص يقتضي عدم جواز إلزام صلح منفرد مع أعداء الأمة الإسلامية، وهناك فرق بين الصلح الذي يبرمه عادة مسؤول ذو صفة رسمية، وبين الأمان الذي يجوز لأي فرد من المؤمنين منحه، حتى جاز أمان المؤمن غير المحارب كالنساء، وأقره الرسول (ﷺ).

فالدولة الإسلامية تلتزم بالأمان الفردي، ولكنه لا يجوز لأحد أن يلزم الأمة بصلح «مع عدوهم» له صفات الصلح، من الدوام والاستمرار، إلا إذا رضوا به جميعاً، وكانت شروطه عادلة تضمن للمسلمين حقوقهم، وهذا هو معنى قول النص:

((لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم)، والسواء هنا الاتفاق الذي يقبله جميع المسلمين، ومعنى العدل يتضمن الصلح حيفاً على أحد من المسلمين)).

6- تقرير مبدأ العدل والمساواة:

قررت الوثيقة مبدأ المساواة في كثير من نص، وكما يتضح من الفقرات/15-16-36-147/ إلى مبدأ عدم جواز إقرار الظلم.

7- تضمن الوثيقة مبادئ غير سياسية:

وذلك بسبب أهمية هذه المبادئ وجدتها في تنظيم الحياة الإسلامية الجديدة، ومن أهم هذه المبادئ وجوب العداة في القتلى/فقرة21/، وهو مبدأ يضع حداً لتوالي القتل بين أولى الجاني والمخبي عليه، ومبدأ هدم جواز إيواء المجرمين/فقرة22/ لأن الإجازة الجائزة ينبغي ألا تحول دون تطبيق شريعة الدولة القائمة ونظامها، مبدأ شخصية العفوية/فقرة37/، وهو مبدأ جديد في ذلك الوقت، حيث كان الانتقام لا يقتصر على الجاني، بل يتعداه إلى أقربائه وأوليائه.

8- مبدأ التكافل والتضامن:

لقد حرصت الصحيفة على ترسيخ مرتكزات التضامن بتقرير ذلك في دفع الدية، وفداء العاني (الأسير)،/الفقرة2/..

ولقد مدت مظلة هذا التكافل إلى المفلوج، وهو المثقل بالدين والعيال/فقرة11/.

ولقد أقرت الصحيفة بعض الأعراف الحسنة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية فيما يتعلق بالتضامن في دفع الدية وفداء الأسير -قالت الصحيفة: المهاجرون من

قريش على ربعتهم (ما كانوا عليه)، يقاتلون بينهم (يتضامنون في دفع الدية)، وهم يقدون عانيهم (أسيرهم).

9- حاكمية الشريعة:

تضمنت هذه الوثيقة أن الحكم العدل الذي يهرع إليه الناس في سائر مشكلاتهم وخصوصاً ما بينهم، إنما هو شريعة الله، تقول الصحيفة: وإنكم لها اختلفتم من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد (ﷺ).

10- مشروعية السلطة:

والكلمة الأولى في هذا المجتمع هو حكم الله، وما على السلطة السياسية متمثلة في الرسول إلا الرجوع إلى الشريعة، وهذا ما يتضح من النص السابق، إذ عرض إلى الله كمرجعية أولى، ثم أتى على ذكر المرجعية الثانية (الرسول): مرده إلى الله وإلى الجد.

11- الأساس المدني للدستور:

ذكر ابن اسحق، وابن كثير في البداية والنهاية، إن رسول الله (ﷺ) كتب كتاباً بين الأنصار والمهاجرين، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم¹.

وهذا يؤكد الطبيعة التعاقدية في هذا الدستور، وفضلاً عن ذلك فقد طرح الدستور المذكور على الشعب في المدينة للموافقة عليه، وهذا ما يتضح من قول الصحيفة، وأنه لا يحل لمؤمن أقر يماه في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينضر محدثاً... والإقرار هو التصديق لأمر موضوع من جهة غير الجهة التي تقوم بالتصديق.

¹ - ذكر ابن اسحق هذا الكتاب بدون إسناد، وذكره ابن حثمة فأسنده، انظر ترتيب مسند الإمام

12- حقوق الافراد :

لقد قرر هذا الدستور حماية المواطنين في أموالهم، قال: إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى وسيعة "عطية" أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

13- الشورى:

لقد كرس هذا الدستور مبادئ الشورى بقوله: وإن بينهم النصح والنصيحة والعبير دون الأثم.

تقييمنا لهذا الدستور

لقد عزز هذا الدستور الحقوق العلمية أو الأصلية للمواطن (حماية الفرد وذاته وماله وحقه في الانتقال).

وفضلاً عن ذلك فقد عرض للحقوق الاجتماعية (فداء العاني والأسير والمثقل بالدين)، مع العلم إن هذه الحقوق لم تكن موضع تنظيم دستوري في العالم إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

ولقد كرس هذا الدستور مبدأ الأصل المدني للسلطة، وشرعيتها ومرجعيتها وخضوعها للقانون، كما عزز مبادئ وأصول الحكم: العدل، الشورى، المساواة، التضامن.

وهذه المسائل هي من أولويات القانون الدستوري لإجماع الفقهاء المعاصرين، ولكن تعتبر هذه الوثيقة أول قانون وشورى في العالم¹.

¹ - هذا ما أكدته الموسوعة الفلسفية للدكتور كيالي، ص708، وما أكدته الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه الموسوم بعنوان: عن العروبة والإسلام، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986، ص285.

الجواب على ذلك بسيط لأن الوثائق القانونية التاريخية المشهورة، مثل قانون "حمورابي"، والألواح لأثني عشرية وقانون "دراكون وصولون" وغيرها، هذه الوثائق قررت حقوقاً للأفراد فيما بينهم، دون أن تقرر أية حقوق للأفراد في مواجهة السلطة.

يكفي أن نسير على سبيل المقارنة إلى أن أول الدساتير التي ظهرت في العالم هي التي وصفتها المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية أثر استقلالها عن الدولة الأم (بريطانية)، فقد ظهر دستور أول رسول عام 1776، وتلاه دستور ولاية ثانية عام 1778، ثم استكملت بقية الولايات وضع دساتيرها عام 1780¹.

صحيح أن مآرب القانون يسعفنا ببعض النصوص التي نظمت مسائل دستورية عام 1212، وتلاه العهد الصادر في إنجلترا عام 1225، ثم تأكيد العهد الصادر عام 1297، وملتمس، الحقوق الصادر عام 1650، وأخيراً وثيقة الحقوق Bill of reyhua الصادر عام 1689².

ولكن هذه النصوص تضمنت تقرير بعض المسائل الدستورية مثل توازن العرش، وحق فرض الضرائب وغير ذلك، وهكذا يبدو السيف واضحاً للدستور المدينة سواء لتكامل النظرة والتنظيم أم للناحية الزمنية.

¹ - د. ثروت بدوي: النظام الدستوري العربي، القاهرة، 1964، (دار النهضة العربية)، ص 34.

² - المرجع السابق، ص 34.

أجبهة الدولة

الرفعت أصوات متعددة تدلل بأن الرسول لم يكن صاحب وحدة دينية سياسية، ومن ثم فهو لم يقم دولة، ومن هؤلاء على عبد الرزاق في كتابه الإسلام وأصول الحكم ذلك الكتاب الذي كان سبباً في فصله بشيخه الأزهر، وإثارة ضجة كثيرة حوله كما حركت أقلام عدة نددت بهذا الكتاب وأثبتت خواءه ذلك إن الرأي القائل بأن البناء الذي أقامه الرسول (ﷺ) بالمدينة، إنما هو بناء ديني ولا علاقة له بالدولة والسياسة، إنما ينبع من موقف فكري يفصل بين الدين والمجتمع، ويباعد بين مقومات الدين وحياة الذين اعتنقوا هذا الدين، وهو موقف فكري يعني أن يرفض أصحابه إقامة أية خيوط أو صلات بين تعاليم الدين والعصر والمجتمع الذي جاء فيه.. هذا الموقف الفكري هو أبعد المواقف الفكرية عن المنهج العلمي في التفكير والمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ.

ولا أدل على فساد هذا الرأي من تلك الملامح والقسمات التي قامت وتمت بالمدينة عند هجرة الرسول إليها، ومن ذلك الدستور الذي حدد رعية الدولة الجديدة، ثم ذلك البناء الذي نسميه جهاز الدولة، والذي نستطيع رؤية معالجة إذا تمن جمعنا تلك الشذرات المتفرقة التي تناثرت عنه، ومختلف صفحات التاريخ وكتب الحديث، وهي الشذرات التي إذا جمعناها أظهرت لنا بوضوح أنه قامت للإسلام دولة منذ

هجرة الرسول (ﷺ)، وإن دستور هذه الدولة، وبعض أجهزتها تدل على أنها كانت أوسع مدى من إطار "الجماعة المؤمنة"، ومن ثم فقد كان لها جوانبها "المدنية السياسية" وأنها أقامت روابط وخيوطاً بين الجانب الديني والجانب المجني السياسي وأنها لم تكن "دولة دينية"، إلا أنها لم يفصل الدين عن الدولة، أي أنها ميزت بين الدين والدولة، ولكنها لم تفصل بينهما، فهي لم تقتصر على السلطة الدينية التي تعيش في إطار الجماعة المؤمنة، وهي في الوقت ذاته لم تقم بالفصل والانقطاع بين مقومات الدين والإيمان، وبين مقومات السياسة وعناصر الحياة¹.

فما هي هذه الأجهزة الفنية التي أقيمت في المدينة؟

1- الكتبة:

ومهمتهم القيام بأعمال الكتابة للوثائق والمراسلات والعقود والعهود، ومن هؤلاء من كانت مهمته تحرير الرسائل التي يبعث بها الرسول (ﷺ) إلى القبائل والملوك والأمراء ومنهم من كان يحرر العهود والمعاهدات التي تبرم بين الرسول والأطراف الأخرى، ومنهم من كان يحرر الشروط والمدانيات والمعاملات المالية والمنح والإقطاعات التي تعطي إلى أمراء الأخبار، أو إلى من يرغب في إحياء الأراضي واستصلاحها واستزراعها، ومنهم من كان يدون الأموال التي تجمع من الزكاة وغيرها من الصدقات، ومنهم من كان يكتب قوائم المحاربين في الجيش، ومقدار العطاء الذي يخص كل محارب، وما يحتاجه في تجهيز نفسه للحرب، من خيل وأدوات قتال².

ومن هؤلاء الكتاب الذين نهضوا بهذه المهمة، أبي بن كعب الأنصاري - زيد بن ثابت - عبد الله بن الأرقم الزهري - علي بن أبي طالب - عبد الله بن عمر - مُعيقب

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص93.

² - المرجع السابق، ص95.

- المغيرة بن شعبة - الحصين - الزبير بن عوام - جهيم بن الصلت - حذيفة بن اليمان، وغيرهم¹.

وقد كان لبعضهم اختصاصات محددة، وأنواع معينة من الكتابة يختص بها، ويستدعى لها، دون غيره من الكتابة².

2- المترجمون:

وهم الذين كانوا يقومون بأعمال الكتابة باللغات غير العربية إلى غير العرب، وبترجمة الرسائل غير العربية الواردة إلى الدولة الجديدة، كما كانوا يقومون بالترجمة بين يدي الرسول (ﷺ) للخطب والأحاديث المتبادلة في حضرة الفراء والوفود القادمة من خارج شبه الجزيرة العربية وفي مقدمة الذين ذكرتهم لنا كتب التاريخ من الذين قاموا بذلك زيد بن ثابت الأنصاري البخاري الذي كان يكتب للملوك ويجب بحضرة النبي (ﷺ)، وكان ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وقد تعلم ذلك بالمدينة، من أهل هذه الألسن³.

3- السفراء:

وهم الذين أهلتهم إمكانياتهم للقيام بالسفارة لدى الأمراء والملوك والحكام الذين بعث إليهم الرسول (ﷺ) بالرسائل والمكاتبات وفي مقدمة هؤلاء رمية الكلبي وعبد

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص95.

² - المرجع السابق، ص95.

³ - المرجع السابق، ص95.

اللّه حذاقة السهمي وعمر بن عمير بن سلمة واللخمي وعمر بن أمية الضميري، وهؤلاء ذهبوا في سفارات على بلاد الروم وفارس ومصر والحبشة¹.

4- الشعراء:

الذين كانوا يتصدون لدعايات الخصوم وأكاذيبهم فكانوا بمثابة أجهزة إعلام ومناظرة ودعاية وإثارة وتوجيه، وفي مقدمة هؤلاء حساب بن ثابت الأنصاري - عبد الله بن كعب بن مالك.

5- دار الحكومة وشعارها:

ولقد أقامت هذه الدولة داراً للضيافة ينزل فيها الزوار والوفود، وهي دار رملة بنت الحارث النجارية، ولقد كانت هذه الدار واسعة وفيها نخل وكان يقوم على أمر دار الضيافة هذه خالد بن سعيد بن العاص وبلال بن رباح ويثوبان غلام الرسول².

وفضلاً عن ذلك فقد كان لمراسلات الدولة شعار رسمي هو الخاتم الذي تصطنعه الرسول لهذا الغرض، وكان لهذا الخاتم من يختص بحمله، وهو المعيقب بن أبي فاطمة الدوسي حليف آل سعد بن العاص³.

6- حكام الأقاليم:

ومنذ وقت مبكر عرفت هذه الدولة الحكام الأذرييين على المدن والأقاليم، وأول ما عرفت هذا النظام العاصمة، عندما كان الرسول يغادرها على رأس الجيش

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص96.

² - المرجع السابق، ص96.

³ - المرجع السابق، ص96.

المحارب في الغزوات، فكان يستخلف عليها من ينوب عنه فيها فترة غيابه، وممن قام مقام الرسول (ﷺ) في مهمته الحكم السياسي والإداري في تلك الفترات على بن أبي طالب وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة الأنصاري¹، وعندما أمن سلطات الدولة الجديدة إلى ما وراء المدينة، فكانت تقترن هذه السلطة، وتتمثل ضمن ما تتمثل في ذلك الوالي والأمير الذي يعين حاكماً على هذه المدينة أو ذلك الإقليم فعندما فتحت عين الرسول (ﷺ) عليها والياً هو عقاب بن اسير بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، ولقد اجتمعت لعناب هذا إمارة الحج إلى جانب إمارة مكة، واستمر في هذه الإمارة حتى توفي مع أبي بكر الصديق².

ولقد عين الرسول (ﷺ) حاكماً على اليمن (ياذان) وهو أحد أمرائها السابقين الذين أسلموا، وبعد وفاته عين ابنه حاكماً على صنعاء كما عين فروة بن المسيك الغطيفي المرادي حاكماً على مراد وزبيد ومذحج، كما عين العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين³.

5- الجهاز المالي:

لقد قام الرسول (ﷺ) عند هجرته إلى المدينة بتوحيد المكايل والموازين في المجتمع الجديد مختاراً في ذلك وحدات المكايل التي كانت مستعملة في المدينة باعتبارها موطن الزراعة والمحاصيل، كما اختار وحدات الموازين المستعملة في مكة باعتبارها موطن التجارة وسوق العرب الكبرى آنذاك⁴.

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص 96.

² - المرجع السابق، ص 97.

³ - المرجع السابق، ص 97.

⁴ - المرجع السابق، ص 97.

ولقد غير بذلك عن الارتباط الوثيق بين بناء الدولة وواقع المجتمع الذي تبنى فيه، ومن أن شؤون الحياة تملكها مصالح السياسة، ولقد نشأت وظائف متعددة للاضطلاع بالجانب المالي والاقتصادي تحديد ما عليها من الضرائب، حيث تولى ذلك عبد الله بن رواحة وجبار بن صخر بن أمية وأبو حثمة¹.

وكان لجباية الأموال حدود ومهام يتولاها موظف متخصص يقوم إلى جانب الحاكم الإداري السياسي للإقليم، ويتولى وظيفته هذه بكتاب خاص (وعهد) متميز يقرؤه على أهل الإقليم الذي تعين فيه.

ومن تولى هذا العمل على عهد الرسول عمر بن الخطاب - خالد بن سعيد بن العاص - معاذ بن جبل - أبي بن كعب - عدي بن حاتم الطائي - الزبيرقان بن بدر - قيس بن عاصم - علي بن أبي طالب - ابن اللثبية².

وقد تولى جمع الضريبة من غير المسلمين: أبو عبيدة بن الجراح - معاذ بن جبل الأنصاري - مروان بن الجعد بن زيد بن الحارث - مرداس بن مروان³.

إن غنائم الحرب، فقد تولاها أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصاري وأبو سفيان بن حرب وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم القرشي، وبديل بن ورقاء الخزاعي ومسعود بن عمرو الفارسي¹.

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص98.

² - المرجع السابق، ص98.

³ - المرجع السابق، ص98.

أما مراقبة السوق وقوانينه وأسعار السلعة، وهي الوظيفة التي كانت فيما بعد جزءاً من عمل المحتسب، فقد عرفها ذلك المجتمع على عهد الرسول (ﷺ)، وقد تولاها سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية².

أما المواريث، وما كانت تحتاجه من حسابات، فقد تولاها زيد بن ثابت، وكانت تسمى بقارض المواريث³.

6- الجهاز القضائي:

ولقد تولى هذه المهمة في اليمن علي بن أبي طالب، كما تولى، معاذ بن جبل، المهمة المذكورة في إقليم الجند، كما ثبت أن الرسول (ﷺ) قام بالنظر بالخصومات، وكذلك عمر بن الخطاب⁴، ولقد كان هذا الجانب من جوانب القضاء يسمى بالإيجاب أي إيجاب الحكم، وما كان يكمله جانب الاستيعاب، أي تنفيذ الحكم، حيث تولى علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري هذه المهمة الأخيرة⁵. وأبعد من ذلك، فقد عرفت هذه الدولة الوليدة السجن كجهاز للعقاب، واتخذ دار بنت الحارث الأنصارية مقراً لذلك، كما اتخذ بباب المسجد بالمدينة (حظيرة)

1 - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص98.

2 - المرجع السابق، ص98.

3 - المرجع السابق، ص99.

4 - المرجع السابق، ص99.

5 - المرجع السابق، ص99.

حبست بها بعض النساء¹، كما قام بالمدينة نظام اليد للشرطة (العسس)، علاوة على الحرس الذي كان يقوم على حماية الرسول (ﷺ) في بعض الأماكن والمناسبات، أما الجيش فأمره معروف ومشهور².

¹ - د. محمد عمارة: مقاله، محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، ص99.

² - المرجع السابق، ص99.

مرحلة الحرب الدفاعية

أثره الرسول (ﷺ) قوله «فيما رواه البخاري» لدى متصرفه عن بني قريظة: لأن نغزوهم، ولا يغزونا¹.

ولقد قلنا سابقاً أن الأذن بالقتال شرع بعد الهجرة، وناقشنا مقولة ابن هشام المتضمنة أن هذا الأذن كان عند بيعة العقبة الثانية.

وفي الحقيقة أن الدعوة الإسلامية ظاهرة إنسانية تخضع «مثلها في ذلك مثل أية ظاهرة إنسانية» لعوامل التمدد والتقلص القوة والضعف، الدفاع والهجوم، السرية والعلنية، يحكمها في ذلك قوانين الصراع البشري، وقوانين موازين القوى وغير ذلك.

أجل لقد أصبح للمسلمين في المدينة المنورة قاعدة مادية صلبة، وهذا يعني «حسب طبائع الأشياء» نقلة سياسية وعسكرية جديدة تتميز عن المرحلة السابقة، من حيث الطبيعة والجوهر ويقسم الدكتور البوطي المرحلة المدنية إلى قسمين²:

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 189.

² - د. البوطي: مقاله الموسوم: نظرية الثورة والتنظيم، منشور في كتاب محمد نظرة عصرية جديدة، ص 173.

المرحلة الأولى: وهي مرحلة الحرب الدفاعية، وتنتهي هذه المرحلة في صلح الحديبية، وهي غزوات دفاعية، فعلاً، وكل منها رد على مؤامرة أو عدوان بدأ به المشركون، ولذلك فهي تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية.

المرحلة الثانية: التي تلي صلح الحديبية، وهي تعبير عن الحكم الذي استقر على أساسه الجهار في الإسلام ويرى الأستاذ "حسين كروم" أن العلاقة بين المسلمين والمشركين محكوم عليها أن تكون عدائية، وأنه كان على الرسول (ﷺ) أن يقوم بمهمتين:

- النضال لهدم النظام القائم وتدميره من أساسه.
- إقامة النظام الجديد.

فقد كان على الرسول (ﷺ) أن يقوم بثورة شاملة مستخدماً سلاح العنف الثوري لمواجهة العنف الرجعي.

ولقد اختار الرسول (ﷺ) الطائف كقاعدة للثورة، ولما فشل هذا الخيار، أخذ يخطط لقاعدة ثورية جديدة، فكانت يثرب، وكانت الهجرة، وبقي الرسول (ﷺ) في مكة حتى لا يلفت نظر قريش إلى ما يجري تنفيذه سراً ليضلها بوجوده، وحتى يشرف بنفسه على عمليات الهجرة، ثم يهاجر هو في النهاية، فيحقق عنصر المفاجأة، ويشل قدرة قادة قريش، وتفكيرهم، ويثير البلبل.

ويتابع الأستاذ حسين رأيه مؤكداً أن الانتقال إلى قاعدة الثورة هو إيدان للمسلمين أن يتمركزوا فيها ويشنوا فيها نضالاً لا هوادة فيه ضد كل القوى المعادية، ليستقطوها، وليفرضوا سلطة الثورة، ومن ثم فإن وصول الرسول (ﷺ) إلى يثرب حدد نهائياً نتيجة الصراع الدامي والميرير الذي خاضه المسلمون.

وهكذا يتضح من الرأي الأخير أن وصول الرسول (ﷺ) إلى يثرب، إنما يعني بداية مرحلة هجومية ضد الشرك، خلافاً لرأي الدكتور البوطي.

وبالطبع فإن معركة بدر تعتبر متميزة في تاريخ العلاقة بين الرسول (ﷺ) وقريش، باعتبارها إحدى قمم الصراع الذمي.

وعلى هذا فإننا سنمهد للمرحلة التي تسبق هذه المعركة في المواضيع الآتية:

- الأزمات التي مر بها المهاجرون في المدينة.
- أسباب نزول الأذن بالقتال.
- بدء القتال (السرايا السبع الأولى).

1- الأزمات التي مر بها المهاجرون في المدينة:

كم هي العواقب التي يمكن أن تترتب على اقتلاع جماعة بشرية من وطنها وهجرتها إلى وطن آخر.

وعلى الرغم من أن تجربة المؤاخاة اقتضت جزءاً من هذه الأزمة إلا أنه ما كان باستطاعة مجتمع المدينة الفقير أن يستوعب كافة أبعاد هذه المشكلة.

لقد مرت بالمسلمين أزمات شديدة وقاسية، وأيام كانوا لا يجدون فيها ما يسد الرمق من خشن الطعام، حتى كان المسلم يسأل أخاه المسلم عن شيء من الطعام بيتلعه به، فيجده قد شداً على بطنه من شدة الجوع، وحتى كان الرسول (ﷺ) نفسه

تمرُّ به الليالي لا يوقد في بيته نار ولا يطهى طعام، حتى اضطر ذات يوم إلى رهن درعه عند يهودي لخلو بيته من صاع شعير¹.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لقد رأيتني، وأني لأخر مغشياً عليّ، فيجيء الآتي فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون... ما بي إلا الجوع))،/رواه البخاري/.

وعن فضالة بن عبيد إن الرسول ﷺ كان إذا صلى بالناس، يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة «وهم أصحاب الصفة» حتى يقول الأعراب: ((هؤلاء مجانين))،/رواه الترمذي/.

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((جئت الرسول ﷺ) يوماً، فوجدته مع أصحابه، وقد عصب بطنه بعُصابة، فقلت لبعض أصحابه، لم عصب الرسول ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة، فقلت: يا أبتاه قد رأيت الرسول ﷺ قد عصب بطنه من الجوع، فدخل أبو طلحة على أمي، فقال: هل من شيء؟، فقالت: عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاء الرسول ﷺ) وحده اشبعناه، وإن جاء آخر معه قلّ عنهم))،/رواه مسلم والبخاري/.

وعن جابر بن عبد الله، قال: ((بعثنا الرسول ﷺ)، وأمر علينا أبا عبيدة نتلقى عبداً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم نجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرّة، فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟، قال: نمصها، كما يمص الصبي، ثم نشرب

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص285.

عليها الماء، فتكفيننا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصنا الخيط (ورق شجر معروف)، ثم نبله بالماء))، فنأكله/رواه مسلم/.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، أما إزار، وأما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته))،/رواه البخاري/.

وعن أبي هريرة قال: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم)، فقال: إني مجهود فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم): من يضيف هذه الليلة؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: عليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنومهم، وإذا دخل ضيفنا، فأطفئ السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا، وأكل الضيف، وياتا طاويين، فلما أصبحا غدا على النبي، فقال صلى الله عليه وسلم): لقد عجب الله من صنعكما))،/رواه مسلم والبخاري/.

وعن عروة بن الزبير عن عائشة، أنها كانت تقول: ((والله يا ابن أخي أن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهله في شهرين، وما أوقد في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم) نار، قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله جيران من الأنصار، وكانت لهم منايح¹، وكانوا يرسلون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) من ألبانها، فيسقيننا))،/رواه البخاري ومسلم/.

إذاً أفلا يحق لهؤلاء أن يستردوا بعض أموالهم، ليفرجوا بها عن أنفسهم، أو لا يحق لهم أن يعودوا إلى ديارهم التي أخرجوا منها ظملاً، أو لا يحق لهم أن يستتقدوا

¹ - المنايح هي مجموعة من الإبل التي يقل عددها عن عشرين.

المستضعفين من أزواجهم وأولادهم، ومن آبائهم وأمهاتهم، وإخوانهم وعشيرتهم؟^{٤٤} أو لا يحق لهم أن يأمنوا على دينهم الذين هاجروا من أجله، وأن يؤمنوا الراغبين فيه على حريتهم حتى لا يفتنوا كما فتنوا؟^{٤٥} لا شك أن كل سبب من هذه الأسباب كان كافياً وحده لأن يدفع المسلمين إلى قتال قريش، قال تعالى:

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿41﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
الشورى/41-42.

2- أسباب نزول الإذن بالقتال:

في السنة الثانية للهجرة، وحين استقر للمسلمين الأمر في المدينة، وقويت شوكتهم فرض الله عليهم الجهاد، وتشريع الجهاد تبدأ فترة جديدة في حياة الإسلامية، تستحق وقفه وتحلل فيها الظروف التي دعت إلى قيام هذا التشريع.

وفي الحقيقة أن الأسباب التي يعلل بها المؤرخون نزول الأذن بالقتال هي التالية¹:

أ- الدفاع عن النفس في حالة تعدي على أحد المسلمين.

ب- الدفاع عن الدعوة وصد من يقف في سبيلها حتى لا يفتن المسلمون عن دينهم، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من عذاب أو إيذاء.

ت- محاربة من أخرجوهم من ديارهم، واغتصبوا أموالهم وأموالهم بغير حق.

¹ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص451.

وتتضح هذه المبررات في الآيات التي جاء فيها الإذن بالقتال، فقد نصت

الآية/39/ من سورة الحج على ما يلي:

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿39﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج/39-40.

وواضح أن المبرر الذي تقدمه هذه الآية للإذن بالقتال هو الظلم الذي لحق بالمسلمين في مكة، حيث أخرجوا من ديارهم، وتلا هذه الآية، الآية/193/ من سورة الأنفال، وقد جاء فيها: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ انْتِهَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

إذاً فقد شرع القتال حتى لا يفتن مؤمن عن دينه.

أما الآية/216/ من سورة البقرة، فتقرر أن الجهاد واجب على المسلم، أحبه أم كرهه، وهي عامة، لا تقدم سبباً محدداً:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم إن للقتال في سورة التوبة (مدنية) مبرراً آخر هو نكث العهد، إذ تقول الآية/12/: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَنْتُمْ أَكْفَرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾، وكان أمر القتال قاصراً أول الأمر على قريش، ومن لم لها من يهود المدينة، فلما انضمت بعض قبائل الجزيرة إلى قريش، مخاصمة الرسول وحرابه، نزلت الآية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ التوبة/36.

والسلم هو الأساس في الإسلام: ﴿لَأَيُّهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿8﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
المتحنة/8-9.

1- بدء العمليات العسكرية (السرايا السبع الأولى):

لقد اتصفت أعمال الرسول (ﷺ) الحربية الأولى بأنها كانت منسجمة مع الأهداف التي من أجلها تنزل التشريع بالجهاد، إذ من المعروف أن سراياه الأولى كانت استطلاعية، والمقصود فيها رصد قريش في تحركاتها المختلفة، وبصورة خاصة في ميدان النشاط التجاري، وأن القرشيين اغتصبوا أموال المسلمين وطردتهم من ديارهم، فحق للمسلمين استرداد هذه الأموال والثأر للكرامة.

ويرى الدكتور نبيه عاقل¹ «وخلافاً للدكتور البوطي» المسلمين كانوا في موقف المهاجم بالنسبة للأعمال العسكرية الأولى، فمن السرايا السبع الأولى التي وجهها الرسول (ﷺ)، كانت ست ضد قوافل قريش التجارية، وقد ساعد على هذا الوضع الجغرافي للمنطقة، إذ كان لابد للقافلة المتجهة من مكة إلى بلاد الشام أن تمر بين المدينة وشاطئ الأحمر، لكان بعدها عن المدينة لا يتجاوز الثمانين ميلاً، وهنا يجعل القوافل المكية عن بلدها مسافة تعادل ضعفي بعدها عن مدينة الرسول (ﷺ)، وهذا الوضع الجغرافي أعطى المسلمين امتيازاً واضحاً، إذ كل ما كان عليهم أن يهاجموا حرس القوافل، ويعود إلى المدينة دون أن تستطيع قريش نجدة القافلة.

¹ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص452.

السرايا السبع الأولى

أولى هذه السرايا هي سرية حمزة بن عبد المطلب¹، وكانت مؤلفة من ثلاثين رجلاً نصفهم من المهاجرين، والنصف الآخر من الأنصار، وقد بلغوا سيف البحر ليعترضوا غير قريش القادمة من الشام إلى مكة، وعلى رأسها أبو جهل، ومعه ثلاثمائة راكب من أهل مكة.

وكاد القتال أن يقع لولا تدخل مجدي بن عمرو الجهني راجعاً إلى المدينة الذي كان حليف الفريقين، فانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة.

ويرجح الواقدي أنه لم يكن بين رحلات هذه السرية أي أنصاري لأن بيعة العقبة لم تكن لتضمن سوق الدفاع عن الرسول (ﷺ) في المدينة، وقد بقى ذلك حتى معركة بدر².

¹ - أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي الواقدي: كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسون جونسون، مطبعة جامعة إكسفورد، 1966، ج1، ص9.

² - المرجع السابق، ج1، ص10.

وفي الشهر التالي لغزوة حمزة (الشهر الثامن للهجرة)، أرسل الرسول (ﷺ) سرية عبدة بن الحارث إلى رابع، وكان في صحبته ستين رجلاً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان، ومعه مائتي رجل، وحدث بين الفريقين مناوشات وتراشق بالسهام¹.

وفي الشهر التاسع عقد الرسول (ﷺ) لواءً لسعد بن أبي وقاص إلى الحزر، وأعلمه أن عيراً لقريش ستمر، وكان مع سعد عشرين رجلاً، وكانت مهمته استطلاعية.

أما الغزوات الأربع التالية: الأبواء - بواط - بدر الأولى - ذي العشيرة، فقد كانت بقيادة الرسول (ﷺ)، غايتها الاستطلاع والتحرش، فيما عدا غزوة بدر الأولى التي كانت تستهدف تأديب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح (الماشية التي ترعى) المدينة وهرب²، ويتساءل الدكتور نبيه عاقل عن هدف الرسول (ﷺ) من وراء هذه الغزوات، هل هو ضرب قريش ومهاجمتها، إلى مجرد جعلها في حال قلق، ويجب مرجحاً الافتراض الثاني³.

ويرى الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم أن الغاية من هذه الغزوات هي ألا تؤخذ المدينة على غره، وجعل قريش في حال استعداد دائم بما هو قريب من حرب الأعصاب ضدها، وهو في الوقت نفسه كسب معنوي للمسلمين، إذ كانت

¹ - الواقدي: كتاب المغازي، ج 1، ص 10.

² - المرجع السابق، ص 13.

³ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص 457.

هذه السرايا تعود، ومعها معلومات قيمة عن نبات قريش، وكانت من جهة أخرى نوعاً من الحصار الأنصاري.

سرية نخلة

يذكر ابن اسحق¹ أن الرسول (ﷺ) بعث عبد الله بن جحش مع جماعة مؤلفة من ثمانية رجال أو اثنا عشر رجلاً²، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، دون أن يستكره أحداً من أصحابه، وفتح عبد الله الكتاب، فإذا فيه: سر حتى تأتي بطن نخلة (موقع بين الطائف والمدينة) على اسم الله وبركاته، فترصد بها غير قريش، وقرب الكتاب، فأجمعوا على متابعة السير، فسار حتى وصل نخلة، فوجدا عيراً لقريش، ومعها أربعة رجال وتظاهر عبد الله بن جحش وصحبه بأنهم جماعة من العرب تريد الذهاب إلى مكة من أجل أداء العمرة، واطمأن المكيون لذلك، فسرحوا غيرهم، وصنعوا طعاماً، وتشاور عبد الله وصحبه فيما إذا كان يجوز لهم القتال في الشهر الحرام، وبعد نقاش تغلب رأي الذين يريدون القتال، ودهموا عدوهم، وقتلوا عمرو بن الحضري، وأسروا اثنين آخرين، واستاقوا العير والأسيرين، وهنالك أعلموا الرسول (ﷺ) فقال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، واحتفظ بالعير والأسيرين، ولم يوزع غنائم هذه السرية على أصحابه، كما رفض أن يأخذ خمس الغنيمة، فاشتد الأمر على عبد الله وصحبه، وعنفهم إخوانهم من المسلمين على فعلتهم، وكما كثر الكلام حول ذلك نزلت الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ البقرة/217.

¹ - سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص601.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص292.

وفرَّجَ اللهُ بهذه الآيات عن كرب المسلمين، وقد أسلم أحد الأسيرين، وافتدت قريش الأسير الثاني.

الدلائل والعبر في هذه الغزوة

لقد استعان الرسول (ﷺ) في هذه الغزوة بالكتمان الشديد حرصاً منه على أصحابه من كل مكروه، لاسيما أن الموقع (نخلة) الذي يقصدونه كان أقرب إلى مكة منه إلى المدينة، ووصول أخباره السرية المسلمة إلى قريش، قد يعرضها للخطر.

ولقد أخبر الرسول (ﷺ) الرجال بأن يتابعوا طريقهم إلى نخلة، أو الرجوع إدراكاً منه بفكرة الواجب الذي هو الالتزام العميق والسر وراء نجاح أي عمل، إذ مادام الإيمان نفسه بالله يقوم على الرضا، فكل شيء في الإسلام نسجت خيوطه من ذلك ومن جهة أخرى، فقد وجدنا كيف أن الآية القرآنية قد نزلت لتصوب الأمور، وتأخذ بنظر عبد الله بن جحش، وصحبه، بما يترتب على ذلك من نتائج هي إظهار أهمية المواطن، الإنسان في الإسلام، ودوره كفاعل تاريخي، هذا فضلاً عن أن نزول آية في موقف شخصي محدد، يعطي صاحب هذا الموقف الثقة بالنفس والاطمئنان بأهميته في حياة الإسلام. زد على ذلك فالآية القرآنية توازن بين قيمتين الشعائر الدينية متمثلة في القتال في الأشهر الحرم، ثم الاعتداء على الإنسان المسلم ذاته «والإسلام الذي كرم الإنسان» يجعل من الاعتداء على المسلمين وإخراجهم من ديارهم أكبر الكبائر عند الله من القتال في الأشهر الحرم.

غزوة بدر الكبرى

أخذت قريش بعد سرية (نخلة) تشهر بالمسلمين، وتشيع أن محمد وأصحابه استحلوا القتال في الشهر الحرام، وفي الوقت نفسه فقد أدركت أن وجود المسلمين في المدينة خطر كبير على تجارتهم إضافة على الخطر المتزايد على مقدساتها الدينية، وبصورة عامة على مركزها العام في الجزيرة العربية، ولهذا فقد أخذت تخطط لضرب المسلمين، والأمر نفسه بالنسبة للمسلمين، فقد أخذوا يفكرون، ويخططون للقضاء على نفوذ القرشيين، حتى يتيسر لهم نشر الدعوة، وهكذا فقد كانت معركة بدر تداع حتمي لهذه الأسباب والظروف المتوترة.

ولقد جرت هذه الغزوة في شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة، وسببها¹، أن عيراً خرجت من مكة على رأسها أبو سفيان بن حرب، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش، فذهبت، وبأنها قافلة غنية محملة إلى الشام، وباعت وابتاعت، وحين همّت بالعودة علم الرسول (ﷺ) بذلك، وبأنها قافلة غنية محملة بالضائع الكثيرة، وكانت أموال هذه القافلة المشتركة بين جميع رحلات قريش البارزين، وقد توقع أبو سفيان قافلته لخطر المسلمين، لذلك وقبل أن يصل إلى مواقع الخطر،

¹ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص421، الواقدي، ج1، ص19، سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص606.

أرسل، رجلاً من قبله إلى مكة يستنفرها، ولقي نداؤه استجابة سريعة، حيث قام أبو جهل بدور بارز في تجميع قوة قوامها 950 رجلاً.

أما المسلمون فقد خرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب الذي معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، ولا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم، وهذا ما يفسر ضالة عدو المسلمين الذي لا يتجاوز 314 رجلاً، وهنالك سبب آخر يفسر ضالة عدو المسلمين هو أنهم لم يكونوا يعلمون أن أبا سفيان استنفر قريشاً فأنجده¹.

خرج القرشيون للقاء القافلة، وما كادوا يسيرون بضعة أيام حتى عرفوا أن قافلتهم نجت من قبضة المسلمين، ولكن أبا جهل أبى العودة، وقال: ((والله لا نرجع حتى نرد²، فتقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور، وتطعم الطعام، ونسقى الخمر وتعزف القيان، وتسمع العرب بيسرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا)).

ولقد وجد الرسول (ﷺ) ضرورة استشارة أصحابه، لاسيما الأنصار لأن عقده معهم (بيعة العقبة) دفاعي، فكان يخشى ألا ينصروه إلا على مداهمة المدينة.

ولقد تنبه إلى هذا الحرج سيد من أسياد الأنصار وهو سعد بن معاذ، فقال للرسول (ﷺ): ((لعلك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، فقال له سعد: قد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا إن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، فسر بنا على بركة الله)).

¹ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج1، ص422.

² - كانت بدر من مواسم العرب يقيمون به سوقاً كل عام.

وقد سرُّ الرسول (ﷺ) بهذه البيعة الجديدة، وارتحل بصحبه حتى وصل قريباً من بدر، فبلغه إلى أبا سفيان، قد نجا بالعر، وإن قريشاً وراء وادي بدر. وننوه بأن الجبهة المكية لم تكن كلها مؤيدة لأبي جهل في موقفه المتصلب لاسيما بعد نجاد القافلة، بدليل أن الأخنس بن شريق الثقفي عاد، وتبعه حلفاؤه من بني زهرة، والأمر نفسه بالنسبة لنبي عدي¹.

ولقد اطمأن الرسول (ﷺ) إلى متانة جبهته بعد النقاش الذي دار بينه وبين صحبه، لذلك فقد سار بالمسلمين، ونزل على أول ماء من بدر، ونزل القرشيون بعد الوادي ولما رأى الحباب بن المنذر المكان الذي نزل به الرسول (ﷺ) جاء إليه، وسأله قائلاً: ((يا رسول الله، أرايت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس إلى أدنى ماء من القوم، فتنزله ثم نفور ما وراءه، من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فتملاه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال الرسول (ﷺ): لقد أشرت بالرأي، وفعل كما أشار إليه، ونام المسلمون نوماً هادئاً، مما جعلهم يتمتعون بالراحة في اليوم التالي حين دارت المعركة، أما قريش، فقد باتت ليلتها ساهرة، لذلك فقد أمطرت السماء مطراً غزيراً في الجهة التي كانت فيها قريش في حين لم تمطر إلا رزازاً في جهة المسلمين، كما أن المسلمين كانوا قد قبضوا على غلام من قريش استطاعوا أن يطلعوا منه على كافة المعلومات المتعلقة بعدوهم))².

¹ - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص462.

² - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص422.

وابتدأت الحرب بالمبارزة، وكان من المتبارزين المسلمين حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ومن القرشيين، عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة، وانتهت المبارزة بمقتل شيبة والوليد، وجرح عبيدة من الجانب المسلم.

وابتدأت المعركة بعد الانتهاء من المبارزة، ولم تطل، وحلّت الهزيمة في صفوف قريش، حيث قتل من رجالهم بين الـ45-70 رجلاً، كما أسر السبعين، أما قتلى المسلمين، فكانوا أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

وأمر الرسول (ﷺ) بدفن القتلى من الطرفين، كما أمر بجمع الغنائم، وفي عودته إلى المدينة أمر بقتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث لأنه كان من الغلاة القساة الذين ساموا المسلمين أنواع العذاب، كما كان يعلم القيان الشعر لهجاء المسلمين، أما الثاني فهو عقبة بن أبي معيط، وكان من أشد المكيين غلظة وعداء، وفرّق الرسول (ﷺ) الأسرى بين أصحابه، وأوصاهم بهم خيراً، واستشار أصحابه في أمر قبول فداء أسرى قريش، وكان بعض الصحابة يريدون قتلهم من هؤلاء عمر بن سعد بن معاذ، وكان رأي أبي بكر وغالبية الصحابة عكس ذلك، ولقد أخذ الرسول (ﷺ) برأي الفريق الثاني، حيث أبلغت قريش ذلك، ومن حضر فداؤه أرسل، ومنهم من منّ عليه بغير فداء: كالشاعر أبي عزة الجمحي الذي تعهد ألا يهجو المسلمين، كما تنزل بعد هذه الغزوة حكم الغنيمة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الأنفال/41، خمس لله والرسول وذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة أخماس للمقاتلين...

هذا ويرد الدكتور عاقل هذا النصر المؤزر إلى ضعف التماسك في الجبهة المكية، والعكس بالنسبة للجبهة الإسلامية يضاف إلى ذلك الحالة المعنوية للمسلمين والمثل العليا التي تحلو بها، وقيادة الرسول (ﷺ) الحكيمة وتطره الثاقب، وحصانته في إدارة دفة القتال والأعداء للمعركة¹.

وكان من نتائج هذه المعركة وقوع خسارة بالغة في قريش تتمثل في مقتل عدد كبير من قادتها وشجعانها منهم: أبو جهل، حنظلة بن أبي سفيان، عبدة بن سعيد بن العاص بن أمية وأخيه العاص وعقبة بن أبي معيط وعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وغيرهم².

وكانت من نتائج هذه المعركة قوة نفوذ المسلمين في عيون العرب، وهبوط مركز قريش السياسي والاقتصادي، إضافة إلى قوة نفوذ الرسول (ﷺ) في المدينة، حيث تبين للمشككين في مقدرته أن دعوهم تنهار.

وإذا تركنا الجانب المعنوي، فإن أهم ما نتج عن هذا الانتصار انتعاش حال المسلمين المادي بعد بؤس وفقر دام ما يقارب العامين، فلم يعد في حاجة لنظام المؤاخاة، ولم يعد هنالك من لا يجد ما يسد رمقه، فألغيت المؤاخاة، وعاد التوارث³.

¹ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص465.

² -انظر في قائمة القتلى: سيرة ابن هشام، القسم الأول، ص708.

³ - د. نبيه عاقل: المرجع السالف الذكر، ص267، وتنفقد أن سبب إلغاء نظام المؤاخاة هو اتساع عدد المسلمين، وصدور الصحيفة التي قننت نظام المؤاخاة، وألقت المسؤولية على عاتق الدولة بعد أن كان نظام المؤاخاة فردياً.

إذاً كان لمعركة بدر نتائج وآثار بعيدة في تقرير معنويات المسلمين ورفع شأنهم لدى الغير، فقد كان لهذه المعركة آثار عميقة على القوى الاجتماعية والدينية التي تسكن المدينة المنورة، أما المشركون، فقد رأى أكثرهم أن محمداً (ﷺ) وصحبه أصبحوا قوة يحسب حسابها، وإن المستقبل قد يكون لهم، ولكن اعتقادهم هذا كان مشوباً بحذر وقلق وخوف من أن يكون هذا النصر مؤقتاً، لذلك فقد كان أفضل طريق للتعبير عن هذا الموقف هو النفاق، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ البقرة/14.

ولقد وقع المسلمون في حيرة من أمر هؤلاء، فلا هم كافرون ظاهراً، ولا هم مسلمون مخلصون، قال تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ النساء/143.

من أجل هذا الموقف الخادع، شنع الله عليهم، وتوعدهم بأشد العذاب قائلاً: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ النساء/145.

ويرى الأستاذ "محمد عزة دروزة" في كتابه سيرة الرسول (ﷺ)، إن ما جاءك القرآن الكريم من وصف هذه الطائفة بالمنافقين في بعض الآيات وبالذين في قلوبهم مرض، في بعضها الآخر وإن اجتماع الوصفين في آية واحدة، وتفاوت الشدة في الحملة عليهم هذا الأمر يسوغ القول إن هذه الفئة كانت فريقين: واحدة كافرة كل

الكفر عدوة كل العداوة، وأخرى ضعيفة النفس مريضة القلب، تميل مع المنفعة، وترغب عن المخاطر والمجازفات¹.

أما انعكاس نتائج معركة بدر على اليهود، فهو موضوع بحث مقبل مستقل.

الدلائل والعبر

لقد انطوت هذه الغزوة على نتائج وآثار عميقة، وإن كنا نجتزئ أهمها:

1- أموال الحريين:

دلت أحداث هذه الغزوة على أنه يحق للمسلمين الاستيلاء على كافة ممتلكات الحريين، وإن كان لا يجوز للمحاربين أن يتوزعوها فيما بينهم، وإنما يتم ذلك عن طريق إمام المسلمين يقسمها طبق قواعد الشرع.

ودليل ذلك أن الرسول (ﷺ) ندب أصحابه للخروج لملاقاة عبر قريش قائلاً لهم: ﴿لَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يَنْفَلِكُمُوهَا﴾.

هذا ونوه بأنه شجرٌ خلاف بين المسلمين قبل نزول حكم الله - حول توزيع غنائم هذه المعركة.

وبيان ذلك أنه عقب هزيمة العدو انطلقت طائفة في آثار قريش تفتك بهم، وأكبت أخرى على المغنم يجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله (ﷺ) لا يصيب منه غيره، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين خرجوا الغنائم: ((نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو:

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 335.

لستم بأحق منا، نحن هزمناهم، وقال الذين أحدقوا بالرسول (ﷺ): خفنا أن يصيب العدو منه غره¹، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الأنفال/1.

وربما كان سبب هذا الخلاف هو شدة ما كان فيه المسلمون، إذ ذاك من الفقر والحاجة، فقد روي أن الرسول (ﷺ) نظر إلى أصحابه حين خرجوا إلى بدر، فأثر في نفسه، فدعا الله قائلاً: اللهم إنهم حفاة، فأحملهم، وعراة فأكسهم، وجياع فأشبعهم، وعالة فأغنهم من فضلك.

ومع ذلك فقد عاتبهم الله ودعاهم إلى التطلع إلى ما هو أسمى وأجل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الأنفال/2-4.

وبالطبع فقد قسم الرسول (ﷺ) النفل على أصحابه بالسواء جاعلاً للفرس نصيباً وللفارسي نصيباً، وجعل للورثة حصة من استشهد، وكان فريق من المؤمنين لم يحضروا الموقعة وإن الرسول (ﷺ) كلفهم أعمالاً غير أعمال القتال، وفريق آخر حجزه عذر قاهر، فأسهم لهم الرسول (ﷺ) مع المقاتلين، فكانوا كمن حضر القتال²، ويقول الرواة أن بعض الصحابة عجبوا لهذا القسم الذي سوى بين القوي والضعيف، قال سعد بن أبي وقاص: قلت: يا رسول الله، أتعطي فارس القوم الذي

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص317.

² - المرجع السابق، ص318.

يغیظهم مثل ما تعطي الضعیف؟.. فقال الرسول (ﷺ): ﴿تَكَاتِكَ أُمُكَ! وَهَلْ تَنْصُرُونَ إِلَّا بضعفائكم﴾¹.

فالقضية هي قضية تضامن في نظر الرسول (ﷺ)، وهي ما أطلق عليها اربطوا العدالة التوزيعية.

ومن جهة أخرى فالتوزيع شمل من المسلمين من لم يقاتل، وهذا الأمر منطقي، لأن ذلك يجب أن يشمل كل نشاط يتصل بالقتال، استناداً إلى القاعدة الفقهية المشهورة: التابع تابع.

ولقد ذكرنا سابقاً أن الرسول (ﷺ) ندب المسلمين لملاقاة عير قريش قائلاً: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَلِكُمُوهَا﴾.

وفضلاً عن ذلك، فقد نزل الرسول (ﷺ) إلى أصحابه يشد عزائمهم وبشرهم بنصر الله، ويقول لهم: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ، وَيُوَلُّونَ الدَّبْرَ، مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلْبُهُ، وَمَنْ أُسِرَ أُسِيرًا، فَهُوَ لَهُ﴾².

وبذلك يكون الرسول (ﷺ) قد مرر قاعدة الحافز الفردي إضافة إلى المجهود العام للجماعة، وبذلك فإننا نجد أكثر من مبدئين في هذا السياق..

أ- الحض على الجهاد، وإعلاء كلمة الله، ونحن هنا أمام حقيقة دينية، أجرها الثواب عند الله.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص318.

² - المرجع السابق، ص318.

ب- مخاطبة الدافع البشري المادي في نفس المقاتل بصفته إنساناً من لحم ودم، ولكن دون غلو وإفراط وبالتوازن مع الحقيقة الأولى، بدليل تأنيب هؤلاء الغلاة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال/2.

ت- التوازن بين الفرد والجماعة في مسألة توزيع الغنائم ضمن قاعدة موضوعية: كل فارس له نصيب كذا، وكل فرس لها نصيب كذا.

2- أرادوا العير وأراد الله الفقير:

وعلى الرغم من مشروعية الغنيمة، فإن الله أراد لعباده قصداً أرفع وأجل، ولذلك شاء أن ينقذ عير أبي سفيان، وأن يواجهوا بدلاً من ذلك جيشاً لجباً. ولكن أيهما أبقى عند الله، وفي ذاكرة التاريخ؟؟.. القافلة إلى الانتصار على تضاريس الشرك؟؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ الأنفال/7.

3- التزام الشورى:

اتضح لنا أن الرسول (ﷺ) لم يتخذ قراراً في هذه المعركة إلا بعد استشارة أصحابه وخاصة الأنصار، وهكذا كان شأنه دائماً وهذا دليل على أن الإمام مكلف باستشارة وجوه المسلمين وعلمائهم بكل ما يدخل في حكم الإمامة، بل كل حكم اجتهادي، لم يستقر حكمه بنص من قرآن وسنة.

ولكن هل يلزم الحاكم المسلم الذي توافرت لديه شروط، الإمامة بما انتهى إليه مجلس الشورى؟^١

يقول "القرطبي" في تفسيره: ((المستشير ينظر في اختلاف الآراء وينظر أقربها إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا رشده الله إلى ما شاء منها عزم عليه وأنقذه متوكلاً عليه))^١...

أي أن الشورى واجبة على الإمام، ولكنها غير ملزمة له، لكن إذا لم تكن شروط الإمامة متوافرة في شخص الإمام، لاسيما شرط العلم والاجتهاد، فالراجح أن على الإمام أن يتقيد بما ينتهي إليه مجلس الشورى، لاسيما عندما يكون أعضاؤه علماء مخلصين^٢.

وفي نظرنا أن المسألة ليست بهذا التبسيط، ومن ثم فإذا كان مبدأ الشورى في الأساس يسبغ المجتمع الإسلامي بكافة مجالاته وأنشطته، فإنه يجب التعامل مع هذه الظاهرة حسب مظاهرها ومجالاتها، والفارق كبير جداً بين الشورى على الصعيد الإداري، وبين ذلك على الصعيد السياسي.

فعلي الصعيد الأول يعتبر رجل الإدارة مسؤولاً عن المرفق الإداري، وهو إذا ما استشار أحداً، وغير ملزم بذلك، والأمر على خلافه بالنسبة لأمر الحرب مثلاً التي تجر الويلات على البلاد، ومن غير المعقد أن يطرح الإمام رأي شعبه، وعلى ضوء ذلك تناقش رأي القرطبي والبوطي لتمييز بين حكم الشريعة في مسألة

^١ - أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي: تفسيره الجامع لأحكام القرآن، 4/253.

^٢ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 195.

معينة، أما المسألة التي طرحها القرطبي تتعلق بالأمور الإدارية، وهذه تخضع للملاءمات ويعطي رجل الإدارة في ذلك المزيد من التقدير.

4- الاستعانة في الحرب بالعيون:

تدلنا أخبار هذه المعركة إن الرسول (ﷺ) لما نزل قرب بدر، ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش ومحمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: ((لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال الرسول (ﷺ): إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال: أذاك بذلك؟.. قال: نعم فأخبره الشيخ أمر المشركين، حتى إذا فرغ من كلامه، فقال: من أنتما))...

وبعث الرسول (ﷺ) علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي ونصر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر، فوجدوا سقاة قريش يستقون لهم، فأمسكوا بفلاحين منهم، فأخذ الرسول (ﷺ) يسألهم عن قريش، فقالا: ((هم والله وراء هذا الكتيب الذي تراني بالعدوة القصوى، فقال الرسول (ﷺ): كم القوم؟ قال: كثير، قال: فأعدتهم؟ قال: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟.. قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً من الحزر، فقال الرسول (ﷺ): القوم ما بين التسعمائة والألف)).

5- تصرفات الرسول (ﷺ):

يدلنا الحديث الذي جرى بين الرسول (ﷺ) والحباب بن المنذر في شأن المكان الذي نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد) أن تصرفاته عليه الصلاة والسلام ليست كلها من نوع التشريع، بل هو يتصرف في كثير من الأحيان يفكر ويدبر، كما يفكر غيره، وبالطبع، فنحن في مثل هذه الحال غير ملزمين بإتباع مثل هذه التصرفات إلا من الناحية الأدبية الاستثنائية.

وعلى هذا الأساس، فالإمام القرأف فقسف السنة النبوية إلى أقسام أربعة¹:

أولها- تصرفات الرسول (ﷺ) بالرسالة: أي فحكم كونه رسولاً فبلغ رسالة ربه، وفسر وفسر وفسر بوحى السماء .

ثانفهما- تصرفات بالفئفيا: أي ففعلق بالفئفوى الفف ففسر بها فغامض الوحى وفسل بواسطها فمفلة .

ثالفها- تصرفات بالفكم: أي الفضا فبن الناس فف المنازعات .

رابعها- تصرفات بالإمامة: أي الفياسة، وفشمل على كل أقواله وأفعاله وأقراراته الفاصة بالدولة والفسياسة فف مفلفل المفاىن والمجالاا .

وفؤكف القرأف أن القسفاىن الأول والثانى من السنة ففءلون فف باب الفىن، أما القسفاىن الثالث والرابع، فلسنا ملزماىن بالإفباع والففبفق والفأسفس، وإنما ففبباع المبءأ الذى افبعه الرسول (ﷺ) فف ذلك .

¹ - ء . محمد عمارة: الدولة الإسلامفة فبن العلمانية والسلطة الفىنفة، المؤسسة العربفة

للفراساا والنشر، بفروا، 1980، طء، ص127 وما بعءها .

أهمية التضرع إلى الله

بأينا كيف أن الرسول (ﷺ) كان يطمئن أصحابه بالنصر حتى أنه كان يشير إلى أماكن متفرقة من الأرض، ويقول: هنا مصرع فلان.

لقد وقف الرسول (ﷺ) طوال ليلة الجمعة في العريش الذي اهتم له، يجأر إلى الله بالتضرع والدعاء باسماً كفيه إلى السماء يناشد الله أن ينصره، ولقد بالغ في الدعاء حتى سقط عنه رداؤه، وأشفق عليه أبو بكر قائلاً: ((كفى يا رسول الله أن الله منجز لك ما وعد)).

أن اطمئنان الرسول (ﷺ) بالنصر إنما كان تصديقاً منه للوعد الذي وعده الله به، أما الاستغراق في التضرع، فهو عبودية الإنسان لربه، وهو ثمن النصر، وهذا ما أكدته الآية القرآنية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ الأنفال/9.

الإمداد بالملائكة وعناية الله

وروى ابن هشام أن الرسول (ﷺ) خفق خفقه في العريش، ثم انتبه، فقال: ﴿أُبَشِّرُ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ النَّصْرُ، هَذَا جَبْرِيْلُ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسِهِ يَقُوْدُهُ عَلَى النَّقْعِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بَلْفِظٍ: هَذَا جَبْرِيْلُ أَخَذَ بِزِمَامِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ...﴾.

لقد تأول بعضهم أن الله نصر المؤمنين معنوياً، ولكن هذا التفسير غير سليم لأن العبارة القرآنية: "بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ" تستعيد هذا التفسير المعنوي، إذ نحن أمام تحديد عددي وفي القضايا المعنوية لا حاجة للاستعانة بالعدد في التعبير عن ذلك¹، ولقد ذكرنا سابقاً أن أبا سفيان نجا بالعين التي هي سبب خروج الفريقين، وكان في هذا كفاية لرجوعهما بسبب زوال السبب الذي خرجا من أجله، ولكن لله تدبيراً فوق تدبير البشر، وإرادة تحيط بإرادات الناس، وله الحكمة العليا في كل ما يدبر وما يريد، فقد جمع بين الفريقين على غير موعد، ليكون هذا اللقاء العجيب الذي اجتمعت فيه كل عوامل النصر الظاهرية في جانب المؤمنين فرقاناً بين الحق والباطل، وميزاناً يزن به الناس أسباب الهزيمة في حقيقتها لا في ظواهرها.

لقد أراد الله أن تجري المعركة على هذا النحو، وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشتركة والقلة المؤمنة - لتكون فرقاناً بين تصورين لأسباب النصر، ولتبين الناس أن النصر للعقيدة القوية لا للسلاح أو العتاد.

وهكذا تجلت العناية الإلهية في تقليل المشركين في أعين المسلمين، والعكس، قال تعالى موضعاً هذه الحقيقة: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِمْ قَلِيلاً وَكُثْرَهُمْ كَثِيراً

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 198.

لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿43﴾ وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّبَاتِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿الأنفال/43-44﴾.

صور حية للنضية والفداء

النضية لنا الفارق الكبير بين عدد المسلمين وهذه المعركة، وعدد المشركين. ولكن المسلمين إذا أعوزهم العدو، فقد استطاعوا أن يسدوا هذه الثغرة بإيمانهم وتمحيصاتهم المنقطعة النظر.

روى "الواقدي" عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ((رأيت أخي عمير يتواري، فقلت: مالك يا أخي؟.. قال: إني أخاف أن يراني الرسول، ويستصغرنني، فيردني، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة! (قال): نعرض على الرسول فاستصغره، فقال له: ارجع، فيكي عمير، فأجازه الرسول (ﷺ)، قال: فكان سعد يقول: كنت أعقد له حمائل سيفه... فقتل ببدر، وهو ابن ست عشرة سنة)).

وخرج رسول الله (ﷺ) في نحو خمسة وثلاثمائة مقاتل، ولم يكن معهم من الخيل غير فرسين اثنين، ولا من الركاب سوى سبعين بغيراً، فكانوا يتبادلون الركوب عليها، وكان الرسول (ﷺ) يأبى إلا أن يشارك أصحابه في تعبهم وراحتهم، وإلا أن يأخذ دوره في المشي وفي الركوب كواحد منهم، وكان إذا انتهت نوبته في الركوب نزل، فيقول له رفيقاه: اركب يا رسول الله، فيقول: ما أنتم بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى بمن الأجر منكما.

يحكى أن عمير بن الحمام صاح من فرط سروره في المعركة: ((بخ بخ!!، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء...)). ثم يرمي من يده تمرات كان يأكل

منها، ويقول: لكن أن حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة))، وحتى إن عوف بن الحارث ليسأل الرسول (ﷺ): ﴿يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُضْحِكُ الرَّبَّ مِنْ عَبْدِهِ، فيقول له الرسول (ﷺ): غَمَسَهُ يَدُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَاسِرًا، قَالَ: فَتَزَعُ دَرْعًا كَانَ عَلَيْهِ، ثُمَّ شَدَّ عَلَى الْقَوْمِ، فَقَتَلَ بَشْرًا كَثِيرًا، ثُمَّ قَتَلَ﴾.

ومقابل هذه الصورة الحية في الجانب الإسلامي، فإننا نجد الصورة معكوسة في الجانب القرشي.

يقول الرواة: ((أن أمية بن خلف أراد أن يتخلف عن النفير، فجاء عقبة بن أبي معيط، ومعه مجمرة وبخور، فوضعها أمامه، وهو جالس، وقال له: استجمر أبا علي، فإنما أنت من النساء، فخجل واستحيا، وسار في الناس))¹.

لنتأمل الصورة المقابلة في صفوف المسلمين.

أجل لقد أرسل المشركون عمير الجمحي ليتعرف على أحوال المسلمين، فلما أطلع عمير على المسلمين رآهم في منظر يبعث الرعب، ويستوجب الحذر!! قوم قليل عددهم، ولكن صور الموت تتراءى من مناظرهم، قد تراصت صفوفهم، كما يتراصى البنيان، وتلاحمت أجسامهم، كما يتلاحم الحديد، وجثوا على الركب مستقزين، يتمرون تنمر الأسود، ويتمظون تلمظ الأفاعي، ويدورون بعيون تبعث الموت حيثما دارت، وتتحرك شفاههم بما لا تظهره أصواتهم.. يسودهم صمت رهيب، وتصميم عجيب، وعزم صارم على الاستماتة في سبيل العقيدة التي آمنوا بها، حتى لآخرتهم باعوا لها نفوسهم، فلا يريدون أن يثوبوا إلى أهلهم².

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص300.

² - المرجع السابق، ص310.

تحاشي المسلمين القتال

الأصل في الإسلام تجنب القتال، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾، وقوله: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" البقرة/216.

وعلى هذا فقد أراد الرسول (ﷺ) أن يعذر إلى قريش من نفسه، فأرسل إليهم عمر بن الخطاب يقول لهم: ((أرجعوا، فقال حكيم بن حزام: قد عرض والله نصفاً، فاقبلوه، وقام عتبة بن ربيعة في المشركين يقول: يا قوم أطيعوني، ولا تقاتلوا هذا الرجل وأصحابه، واعصبوا هذا الأمر برأسي واجعلوا جنبها بي، فإن منهم رجالاً قرابتهم قريبة)).

ولكن أبا جهل كان شيطان هذه المعركة، فأخذ بسيفه رأى عتبة، ويصفه بالجبن، وجعل يحرض الناس على الشر حتى مالوا إلى رأيه¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص312.

النبوة والسلطة

النبوة إشعاع وتآلق يعكس آمال المسلمين، ويحرك فيهم الواجب والضمير، فمثل بسيط يوضح لنا الفارق بين النبوة القائمة على فكرة الواجب والسلطة القائمة على الإلزام والأمر.

روى ابن اسحق أن الرسول (ﷺ) عدل صفوفه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية، وهو مستثقل (بارز) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: ﴿اسْتَوِ يَا سَوَادُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْجَعْتَنِي، وَقَدْ بَعَيْتَ اللَّهَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، فَأَقْدَنِي¹ فَكَشَفَ الرَّسُولُ (ﷺ) عَنْ بَطْنِهِ، قَائِلًا: اسْتَقْد، قَالَ: فَأَعْتَقَهُ سَوَادٌ فَقَبِلَ بَطْنَهُ²﴾.

وصدق تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ البقرة/151.

إن قراءة أحداث هذه المعركة والدور الذي لعبه الرسول (ﷺ) فيها تؤكد لنا أننا في مواجهة نبوة.

فقد كان الرسول (ﷺ) في عريشه يتابع المعركة، وقلبه متعلق بالله عز وجل، تارة ينزل إلى المععمة، فينهض الهمم، ويقوي القلوب، ويحث على القتال، وتارة يصعد إلى العريش يدعو ربه ويستغيثه، ويسأله وعده له بالنصر، ويقول فيما يقول:

¹ -مكني من نفسك لأفعل بك مثل ما فعلت بي وهو القصاص.

² -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص325.

﴿اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَأُتَعَبَدَ فِي الْأَرْضِ!!﴾ .

تحكي الموارد التاريخية أن أصحاب الرسول (ﷺ) باتوا نياماً ليلة المعركة، وبات هو قائماً، ويدعو ربه، أن ينجز له ما وعده، وما زال كذلك حتى طلع الفجر، فدعا أصحابه إلى الصلاة، فصلى بهم وحرصهم على القتال¹.

في تلك الليلة راح الرسول (ﷺ) يجأر إلى الله تعالى بالدعاء، ويقول: ﴿اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك، وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنيهم﴾ الغداة²، لهذه الأسباب فقد تعلق المؤمنون برسولهم وأحاطوه كما تحيط الأجنان حدقة العين، وحرصوا ألا يقع عليه أي أذى، وهكذا فقد اقترح سعد بن معاذ أن يبني عريش للنبي يكون بمأمن فيه رجاء أن يعود سالماً إلى من تخلف من المسلمين في المدينة، وأن لا ينكبوا بفقدته، فوافق عليه الصلاة والسلام على ذلك³.

¹ - المرجع السابق، ص 308.

² - سيرة ابن هشام، ج 1، ص 25، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج 1، ص 87.

³ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 191.

الحياة البرزخية للأموات

لقد ألقى المسلمون جثث المشركين الذين صرعوا في هذه المعركة «وفيهام عامة صناديدهم» في قلب بدر، وقام الرسول (ﷺ) على شفة البئر، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: ﴿يَا فُلَانُ بُنُ فُلَانٍ، وَيَا فُلَانُ بُنُ فُلَانٍ، ايسِرْكُمُ أَنْكُمُ اطْعَمْتُمُ اللّٰهَ وَرَسُوْلَهُ؟، فَاِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَلَّ وَوَعَدْنَا رِبْنَا حَقًّا، فَهَلَّ وَوَجَدْتُمُ مَا وَعَدَكُمُ رِبْكُمُ حَقًّا؟، فَقَالَ عَمْرٌ: يَا رَسُوْلُ اللّٰهِ مَا تَكَلَّمُ مِنْ اَجْسَادٍ لَّا اَرْوَاحَ لَهَا؟ فَقَالَ الرَّسُوْلُ (ﷺ) اَللّٰهُمَّ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا اَنْتُمْ بِاَسْمِعَ لَمَّا اَقُوْلُ مِنْهُمْ¹، وهذا دليل واضح على أن للميت حياة برزخية خاصة به، وإن كنا لا ندري حقيقتها، ومن هنا يتصور نعيم القبر وعذابه، وبالطبع فهذا يخضع لموازين خاصة تتأبى على مفاهيمنا العقلية، وتدخل بعالم الملكوت الذي يجب التسليم به، طالما وردنا عن رسول الله بنقل مسلم².

¹ - البخاري، 5-8، وروى أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري نحوه: في صحيحه 8-163.

² - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص198.

الشورى حول الأسرى

دلتنا هذه الواقعة أن للنبي اللهم أن يجتهد فيما يطرأ من المشكلات إذا انقطع عنه الوحي، ومن أبرز أدلة العلماء على ذلك اجتهاده في أسرى المشركين في غزوة بدر.

ويرى الدكتور البوطي أنه من الممكن للرسول (ﷺ) أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب، غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد أن يتداركه وحي يصحح له اجتهاده، فإما إذا لم ينزل عليه شيء، فهو دليل على أن اجتهاده قد وقع على ما هو الحق من علم الله¹، ولكن كيف يمكن التوفيق بين رأي البوطي والقرايف ومن ثم إذا كانت التصرفات البشرية للرسول تصحح حتماً من السماء "البوطي" فكيف نسبغ عليها السمة البشرية "القرايف".

التربية الإلهية بشأن الغنائم

اتضح لنا وجهات النظر المسلمين حول الغنائم والخلاف الذي كاد أن يدب بينهم حول ذلك.

ولكن التربية الإسلامية أنقذت الموقف كما يتضح من تأملنا البسيط للآيات التي نزلت في ذلك: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿1﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

¹ - المرجع السابق، ص 199.

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿الأنفال/1-2﴾.

فأنت ترى أن الآيتين لا تنطويان على جواب عن سؤالهم، وإنما فيهما صدق لهم، عن الموضوع كله، لأن الأنفال (الغنائم)، ليست لأحد منهم، بل هي لله ورسوله (ﷺ) أما هم فعليهم أن يتركوا الأموال في مكانها، وأن يتصرفوا إلى إصلاح هذا الشقاق الذي دب فيهم، وأن يتذكروا أنهم لم يقاتلوا ابتغاء مغنم أو مال، وإنما انتصاراً لدين الله.

ولما تاب هؤلاء المسلمون إلى هدف هاتين الآيتين، وندموا، وصرفوا النظر عما اشتجروا فيه، واطمأنت نفوسهم متعلقة بما عند الله، عندئذ نزل قوله تعالى، في تقييم الغنائم، واعلموا إنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه.

وهذا الموقف التربوي هو السبب ذاته في معاتبة الله لرسوله على افتداء الأسرى بالمال، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/67.

ونعتقد أن الذي دفع الرسول (ﷺ) لأن يلجأ إلى الافتداء هو شففته الزائدة على أصحابه الذين هاجروا، وتركوا أموالهم، فيعوض لهم قسماً من خسرانهم.

بنو قينقاع وأول خيانة لليهود

كان من نتيجة معركة بدر أن اليهود جزعوا أشد الجزع حين بلغهم نبأ انهزام قريش في هذه المعركة، حتى قال قائلهم كعب بن الأشرف: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

ولقد نقضوا عهد المسالمة الذي عاهدوا عليه رسول الله (ﷺ) منذ قدم المدينة، فانطلق شعراؤهم يستهزئون بالمسلمين، ويهونون من شأن انتصارهم في بدر، ويهجون رسول الله (ﷺ) بالكلام القارص والفعل الساخر¹.

وكان بنو قينقاع أول من جاهر بالعداوة، إذ كانوا أشجع اليهود، وأقربهم إلى المسلمين منازل، فقد كانوا يسكنون بين المسلمين في وسط المدينة، وكانوا أظهر اليهود عداوة للمسلمين، وأكثرهم احتكاكاً بهم ومخالطة لهم، وكان من أشد اليهود مجاهرة بالعداوة كعب بن الأشرف، وكان هذا شاعراً وسيداً من ساداتهم، فجعل يستهزئ بالمسلمين، ويشيب بنسائهم، ويهجوا الرسول (ﷺ) ويحرض على قتله، كما جعل يشيد بأشراف قريش، وينفجع على قتلاهم، بل ذهب به الأمر أن ذهب إلى مكة يحرض على رسول الله (ﷺ)، ويبيكي أصحاب القليب، ويستثير حمية قريش لتأخذ بالتأر.

وهكذا فقد أصبح الجو مشحوناً بين المسلمين واليهود، وكانت الشرارة حادثة امرأة مسلمة ذهبت إلى سوق بني قينقاع، فجلست في حاجة لها عند صائغ، فانتكح

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص336.

أحد اليهود حرمتها بفعله تؤذي الكرامة، فاندفع أحد المسلمين إلى اليهودي فقتله، فتجمع اليهود على المسلم فقتلوه، وتتادي المسلمون واليهود، وأوشكت مذبحه أن تقع لولا حكمة الرسول (ﷺ) التي أطفأت ذلك¹، ولقد دعا الرسول (ﷺ) رؤسائهم، فحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد، قال: يا معشر يهود، احذروا الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهداً لله إليكم.

فتجهموا له وقالوا: ((يا محمد، أرايت إنا قومك؟؟ لا يغرنك إن لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة!!... إنا والله لئن حاربناك، لتعلمن إنا نحن الناس...)).

قال ابن اسحق: ((وكانوا آل يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول (ﷺ) أجل لقد أصبحوا أعداء بعد أن كانوا أولياء، واخذوا يدفعون بأموالهم وأفعالهم إلى الحرب، فهل يأمن المسلمون جانبهم؟؟))، ونزل قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الأنفال/58.

إذاً كان لابد من عمل حاكم، وهذا ما فعله الرسول (ﷺ)، فقد نبذ إليهم عهدهم، فصارحهم بالعداوة، وأنذرهم بالحرب، فاعتصموا بحصونهم، فحاصرهم خمسة عشر يوماً، لا يصل إليهم طعام أو شراب ولا معونة، وكان بنو قينقاع حلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي، فتبرأ منهم عبادة، أما عبد الله فقد ظل على الولاء، لكنه لم يقدم إليهم أية معونة، كذلك الأمر بالنسبة لبني قريظة وبني النضير.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص337.

وفي أمر موالاه عبادة وعبد الله بن أبي لليهود نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المائدة/51.

ولما طال عليهم الحصار، سألوا الرسول (ﷺ) أن يخلي سبيلهم على أن يخرجوا من المدينة، ولهم النساء والذرية، وقبل الرسول (ﷺ) ذلك، وأمهلهم ثلاثة أيام، ووكل بجلائهم عبادة بن الصامت، فرحلوا إلى أذرعات من بلاد الشام، وغنم المسلمون أموالهم، وكانت شيئاً كثيراً لأنهم كانوا صاغة¹.

وإذا رجعنا إلى العهد الذي أبرم بين الرسول (ﷺ) واليهود وجدنا تطبيقين هامين هما: أن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، أما من ظلم وأثم فإنه لا يمنع نفسه وأهل بيته، فهل كان اليهود مخلصين في النصح والنصيحة للمسلمين، وهل دعوا للبر دون الإثم؟ ألم تتضمن المعاهدة نصاً متضمناً ألا تجار قريش ولا من نصرها؟ فلماذا ذهب كعب بن الأشرف إلى قريش ستثير حماسهم؟ ولم يكتف بذلك، بل أطلق لسانه بالفحش في أعراض المسلمين.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص338.

الدلائل والعبر

1- غدر اليهود:

هذه الواقعة تدل في جملتها على ما ركب في اليهود من طبيعة الغدر والخيانة، فلا تروق لهم الحياة مع من يحاورونهم إلا أن يبیتوا لهم شراً، وقد تجلى ذلك في حديثهم للرسول (ﷺ) عندما وقف ينصحهم أن يؤمنوا به طبقاً لما هو ثابت في كتابهم.

وستأكد طبيعة الخيانة هذه فيما سيبدو من القبائل اليهودية الأخرى مع أن المسلمين لم ينتقضوا لهم حقاً، ولم يتسببوا لهم بأذى.

2- احتجاج المرأة المسلمة عن اليهود:

لم تكن آية الحجاب قد نزلت عندما وقفت هذه الحادثة، وثم على أثرها، جلاء يهود بني قينقاع، فلماذا أصرت هذه المرأة على أن تتنقب عن اليهود عندما جلست إلى صائغ منهم؟

الجواب: كان ذلك بدافع شعور فطري ديني منها، نظراً لأنها وجدت نفسها بين اليهود، ولعلها أحست بريبة منهم أو من بعضهم، ولقد أكد لها صدق هذا الشعور إرادتهم لها على كشف وجهها، ثم سعيهم إلى مغايرتها عندما أبت ذلك¹.

3- معاملة المنافقين في الإسلام:

رأينا موقف عبد الله بن أبي من اليهود ودفاعه عنهم، غير أن الرسول (ﷺ) عامله رغم ذلك على أنه مسلم، بل أجابه إلى ما أصر وألح عليه، وهذا يدل على

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 203.

المنافقين، إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، حتى وإن ظهر من الأدلة ما جعل نطاقه مقطوعاً به .

ذلك أن الأحكام الإسلامية تتكون من جانبين:

• الأول يطبق في الدنيا مستنداً إلى الأدلة القضائية المادية المحسوسة، ويعكف المسلمون بتطبيقه فيما بينهم.

• والثاني يقوم على ما استقر في القلوب، ومرده إلى الله.

وهذا ما يؤكده قول الرسول (ﷺ) فيما رواه البخاري عن عمر رضي الله عنه موقوفاً، إنما تأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، وقول الرسول (ﷺ) فيما رواه الشيخان: ﴿إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِمَا يَقُولُ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ﴾ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِقَوْلِهِ «وَفِي رِوَايَةٍ: فَأَظُنُّهُ صَادِقًا» فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذُهَا، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ» .

ولاية غير المسلمين

لقد قضى الله - في الآيتين اللتين نزلتا في عبادة وعبد الله بن أبي، بأنه لا يجوز لأي مسلم أن يتخذ من غير المسلم ولياً له، أي صاحباً يتمتع بسلطة توليه والإشراف عليه، ولا فرق في حرمة ذلك بين المجتمع والفرد.

ويستثنى من ذلك حالة ما إذا أُلجئ المسلمون إلى ذلك بسبب ضعف شديد، وهذا ما يتضح من قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ آل عمران/28.

بيان يجب ملاحظة الأمرين الآتيين¹:

- عدم الموالاة لا يحول دون التعامل والمصاحبة على مستوى الندم مع الند، فهذا غير محرم، وللمسلم أن يجاور كافراً ويشاركه ويصاحبه.
- إن النهي عن موالاة غير المسلمين لا يعني الحقد عليهم.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص206.

غزوة أحد

كان وقع معركة بدر مؤلماً على قريش، ولهذا فقد وجدت نفسها أمام موقف حاسم أخذت تعد له كل العدة، وترصد الأموال وتعبئ القوى وتجمع السلاح، وبعثت رسلها فيمن حولها من قبائل العرب تستنفرهم، وتستعين بهم على تمكين هذه الضربة، وكان من هؤلاء الرسل أبو عزة الشاعر الذي منَّ عليه الرسول (ﷺ) في أسار بدر، فأطلقه بلا فداء، وأخذ عليه العهد ألا يظهر عليه أحداً، فنقض العهد والميثاق.

وهكذا لم يكد يستدير العام حتى غدت قريش في أتم أهبه وأكمل استعداد، فإذا هي تخرج في جيش كبير من رجالها، وممن والاهها من تهامة وكنانة، ومن حالفاها من الأحابيش من بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة، وتوجهت إلى المدينة في حماسة الموتور، وأبت نساء قريش ألا أن يكون مع الجيش يحمسن ويثرن الحمية على رأسهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

وفي أوائل شهر شوال من السنة الثانية للهجرة خرج الجيش الجرار من مكة يقوده أبو سفيان، ويحمل لواءه طلحة بن أبي طلحة، وعلى ميمنته خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وعلى رجائته صفوان بن أمية، ثلاثة آلاف مقاتل في أكمل استعداد، من بينهم مائتان من الفرسان المدربين على ظهور الخيل، وسبعمائة من الدارعين المحصنين بالزرد والدروع الواقية، يحملهم عدد وفير من الركائب، ويتبعهم حشد كبير من العبيد والغلمان يساعدهم، ويقضون حوائجهم.

وكانت خطة قريش مفاجأة المسلمين في عقر دارهم والفتك بالرسول (ﷺ)، ثم برؤوس أصحابه من المهاجرين¹، ولولا أن العباس بن عبد المطلب كتب إلى الرسول (ﷺ) يخبره بذلك.

وبعث الرسول (ﷺ) بعيونه، فجاءوا إليه، فأخبروه بمنزلهم من وادي أحد وحزروا له أعدادهم وعتادهم، وأطلق المشركون خيولهم وجمالهم في مزارع، تأكل الزرع والشجر، وبات الخطر جاثماً على الأبواب وحرس المدينة طوال الليل، وجمع الرسول (ﷺ) أهل الرأي من أصحابه، وجعلوا يتشاورون في لقاء العدو.

روى "الواقدي" أن الرسول (ﷺ) قال لأصحابه: ((أشيروا عليّ، فقام عبد الله بن أبي، فقال: يا رسول الله، كنا في الجاهلية، نقاتل فيها، وتجعل النساء والذراري في هذه الصباحي، وتجعل معهم الحجارة، وتشبك المدينة بالبنيان، فتكون كالحصن، وترمي المرأة والصبي من فوق الصباحي والآطام، وقاتل بأسيا فانا في السكك، يا رسول الله، أن مدينتنا عذراء، ما قضت علينا قط، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه،، وأعلم إنني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي))².

وكان رأي الرسول (ﷺ) مع رأي ابن أبي، وكان ذلك رأي الأكابر من المهاجرين والأنصار، غير أن كثيراً من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بدر رغبوا في الخروج، وقالوا: ((يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم... ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله (ﷺ) حتى وافقهم، فدخل بيته، فلبس

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص353.

² -المرجع السابق، ص354.

درعه، وأخذ سلاحه، وظن الذين ألحوا على الرسول (ﷺ) بالخروج أنهم قد استكروها، فندموا، ولما خرج عليهم قالوا: استكروها يا رسول الله، فإن شئت، فاقعد، فقال الرسول (ﷺ): ما ينبغي لنبي، إذا لبس لأمته (درعه) أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، وامضوا على اسم الله، فلکم النصر ما صبرتم¹.

ولقد دفع الرسول (ﷺ) لواء الأول إلى أسيد بن حضير، ولواء الخروج إلى الحباب بن المنذر، ولواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير، وخرج في ألف من أصحابه، منهم مائة دارع، وكان ذلك يوم الجمعة ليست خلون من شوال².

ومضى الرسول (ﷺ) حتى أتى مكاناً يقال له الشيخين، فعسكر به، ثم أخذ يستعرض فرد الصغار، وكان من هؤلاء رافع بن خديج وسمرة بن جندب، فقبل للرسول (ﷺ): ((أن رافعاً يحسن الرماية، فأجازه فبكى سمرة، فسمع الرسول (ﷺ)، فأمرهما أن يتصارعا، فكان الغالب سمرة، فأجازه.

وبلغ الرسول (ﷺ) الشرط، وهو بستان بين المدينة وأحد، وهنالك انشق ثلث الجيش، حيث رجع عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أصحابه، وهو يقول: أطاع الغلمان وعصاني³.

¹ -وراه ابن اسحق والإمام أحمد وروى الطبري: تاريخ الأمم والملوك، قريباً منه وانظر ابن هشام:

2-62، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 2-500 وترتيب مسند الإمام أحمد، 22-52.

² -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 357.

³ -المرجع السابق، ص 357.

ولقد أحدثت هذه الفعلة خلخلة في صفوف المسلمين، حتى لقد همت بنو حارثة من الخزرج، وبنو سلمة من الأوس، أن تفعلوا فعل أصحاب ابن أبي، ولكن الله عصمهم بإيمانهم.

ومضى الرسول (ﷺ) إلى "أحد" وهو جبل كثير المسالك والشعاب تقطعه عدة وديان، كما أن تعرجات الأرض جعلت في انحداره فجوات تشبه الحفر تصلح للاختفاء في الحرب إلى جانب تل مشرف، وهنالك أخذ يصف أصحابه، فجعل ظهورهم إلى الجبل، وجعل خمسين من الرماة على الجبل، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم أن يحموا الظهر، وألا يمكنوا العدو من اقتحام هذا الحصن، وألا يبرحوا مكانهم أبداً.

والتقى الجمعان، وحاولت قريش أن تطوق المسلمين، وتضم عليهم جناحيها بحركة التفاف سريعة، فتحرك لواء عكرمة من الميسرة، فلم يستطع، وحاول خالد من الميمنة، فأمطره الرماة وابلاً من النبال، فارتدت الخيل على أعقابها، وعاد المشركون إلى أماكنهم¹.

وبدأ القتال بالمبارزة، فخرج رجل من قريش مبرز له الزبير بن العوام فقتله، ففرح الرسول (ﷺ) والمسلمين، وهم يتصايحون، وهم علي بن أبي طالب على حامل لوائهم طلحة بن أبي طلحة فقتله، فأخذ اللواء أخوه عثمان، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فقتله، فتناوب اللواء أخوهما أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم، فقتله، فتناوب اللواء بعده أربعة من أولاد طلحة، فقتلوا، فحمل اللواء غلام لهم اسمه "صواب" فقتل، وسقط اللواء على الأرض، فأخذ المشركون بذلك أخذاً

¹ - المرجع السابق، ص 359.

شديداً، وانكسرت شوكتهم، وانفرجت صفوفهم، وحمل المسلمون عليهم حملة صادقة، وأمضوا فيهم الضرب والطعن والرمي، فانكشفوا وولوا الأدبار، وجعلت نساؤهم تصيح وتولول، وأخذن يتسابقن في الهرب، ويضرب المسلمون أعداءهم يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أبعدهم عن المعسكر، ثم وقفوا على الغنائم وهم مطمئنون أن ظهورهم محمية.

أما الرماة فقد خيل لهم أن المعركة قد انتهت، فاندفعوا إلى يجمعون الغنائم، ولم يلتفتوا إلى أميرهم الذي حذرهم ذلك، ولم يبق مع هذا الأمير إلا عشرة، وانكشف بذلك الحصن الذي كان يحمي الظهور.

وكان خالد بن الوليد يتقهقر وعينه إلى النبل، فلما رأى الرماة يتركون مواقعهم انقلب راجعاً وتبعه عكرمة بلوائه، متسللين من الخلف، وجعلوا يتنادون، فأقبل المشركون بعدا ديارهم، وفوجئ المسلمون بأعدائهم يحاصرونهم، فاضطرب أمرهم وانتقصت صفوفهم، وصاروا كما يقول الطبري "ثلاثاً" ثلث قتيل وثلث جريح، وثلث منهزم¹.

وفي وسط هذه الدهشة صرخ صارخ أن محمداً قد قتل، فأخذ المسلمون، وزلزلوا زلزالاً شديداً، فتفرقوا طرائق قديداً، كل ذلك والرسول (ﷺ) من ورائهم يدعوهم ويصيح: ﴿إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِلِيَّ يَا فُلَانُ. إِلِيَّ يَا فُلَانُ... أَنَا رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهم يصعدون لا يلوون على أحد ممعنون في القرار، حتى قال بعض المسلمين، علام نقاتل إذا كان محمد قد قتل؟ وحتى ظن آخرون أنها النهاية.

¹ - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص514.

أما الرسول (ﷺ) فقد ثبت في وجه العدو، وظل يرمي بالنبل حتى فني نبله، وانكسرت سبه قوسه، وانقطع وتره، ثم ظل يرمي بالحجارة، وثبت معه نفر، قبل أنهم دون العشرة، فبايعوه حتى الموت، وأحاطوا به يصدون عنه العدو الذين شدوا عليه يريدون قتله، ولكن هذا النفر من الصحابة استطاعوا أن يحولوا بين الأعداء والرسول (ﷺ).

وقد أبلى هذا النفر أحسن البلاء، فقد قاتل طلحة بن عبيد الله قتالاً شديداً، وصار يذود بالسيف من بين يدي الرسول (ﷺ)، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ويدور حوله يترس بنفسه دونه والسيوف تغشاه، والنبل يأتيه من كل جانب، ولم يزل جنة (وقاية) للرسول حتى انكشف المشركون، فجعل الرسول (ﷺ) يقول: قد أوجب طلحة، أي أوجب لنفسه الجنة.

وترس شماس بن عثمان المخزومي بنفسه دون الرسول (ﷺ) حتى قتل، وفي ذلك قال الرسول (ﷺ): ﴿مَا وَجَدْتُ لَشَّمَّاسٍ شَبَهَا إِلَّا الْجَنَّةَ﴾، وكان أبو طلحة رامياً شديداً يرمي عنه، وكلما رمى سهماً نظر الرسول (ﷺ) من ورائه ليرى موقع السهم، فيقول له أبو طلحة: ((يا نبي الله، بأبي وأمي، لا تنظر يصيبك سهم، نحري دون نحرك، ووجهي لوجهك فداء)).

وترس أبو دجانة بنفسه دون الرسول (ﷺ)، فجعل النبل يقع في ظهره، وهو فنحن عليه كثيراً فيه النبل.

ورمى سعد بن أبي وقاص دون الرسول (ﷺ)، فجعل الرسول (ﷺ) يناوله النبل، وهو يقول: ((ارم فداك أبي وأمي)).

ودافعت عن الرسول (ﷺ) أم عمارة، وهي نسيبة بنت كعب الأنصارية، وكانت تسقي الناس، فوضعت سقاءها وأخذت سيفاً، وقاتلت قتالاً شديداً، حتى جرحت

ثلاثة عشر جرحاً، وقد سمع الرسول (ﷺ) يقول: ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا أراها تدافع دوني.

وكان الحباب بن المنذر يحوش المشركين، كما تحاش الغنم، واشتعلوا عليه حتى قيل، قد قتل، ثم برز والسيف في يده، وقد افترقوا عنه.

وقام زياد بن السكن في نفر من الأنصار، فقاتلوا دون الرسول (ﷺ)، رجلاً ثم رجلاً، وهم يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد، فقاتل حتى قتل.

ومات مصعب بن عمير وهو يتلقى عن الرسول (ﷺ) ضربة قد سدت إليه، وقد قتله ابن قمئه وهو يحسبه الرسول (ﷺ)، فذهب يذيع بذلك بين المشركين.

روى "الواقدي" عن سفيان بن عيينه، قال: ((لقد أصيب مع الرسول (ﷺ)، يوم أحد نحو من الثلاثين، كلهم يجيء حتى يتقدم بين يديه، ثم يقول: وجهي لوجهك فداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مودع)).

وكان أربعة من قريش قد تعاهدوا على قتل الرسول (ﷺ)، وهم عبد الله بن شهاب، وعتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قمئه وأبي بن خلف، فأما عبد الله، فقد شج الرسول (ﷺ) في جبهته، فاخضلت لحيته بالدم، وأما عتبة فقد أصاب شفته السفلى وكسر رباعيته اليمنى (السن الذي تجاوز الناب)، وأما عمرو، فقد أصاب وجنته، حتى دخلت فيها حلقتان، ثم ضربه بالسيف على عاتقه، فوقع في حفرة، فأخذ بيده علي بن أبي طالب، ورفع طلحة بن عبيد الله، وأما أبي بن خلف فقد شد على الرسول (ﷺ)، وهو يقول: يا كذاب أين تفر؟.. قطعنه الرسول (ﷺ) بحربة في عنقه فمال على فرسه، وهو يخور خوار الثور، ومات في الطريق إلى

مكة¹، وعرف المسلمون إن الرسول (ﷺ) حياً فأحاطوا به وكشفوا عنه العدو، وكان أول من عرف الرسول (ﷺ) كعب بن مالك، فنادى: ((يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله، فأشار الرسول (ﷺ): أن أنصت، وفاءت إلى الرسول فئته، فنهضوا به إلى الشعب، فاحتمى به مع من كان يحتمي هناك من أصحابه)).

وظن المشركون أنهم انتقموا لبدر بقتل الرسول (ﷺ)، واكتفوا بذلك نصراً، وأخذت المعركة تهدأ، وأخذت نسائهم يمثلن بالقتلى من المسلمين، ومثلت هند بنت عتبة بحمزة عم الرسول أفضع تمثيل، فلم يكفها أن جدعت أنفه وأذنيه، بل بعرت بطنه، وأخرجت كبده، وجعلت تقضمها وتأكلها أكل المغيظ المحنق، فلما لم تستطع أن تستسيغها لفظتها .

وكان همّ أبي سفيان أن يجد الرسول (ﷺ) في القتلى، فلما لم يجده أخذ الشك يخامرهم، فذهب إلى ناحية الشعب، وجعل ينادي: ((أفيكم محمد؟.. أفيكم ابن أبي قحافة؟.. أفيكم ابن الخطاب؟.. فنهى أصحابه أن يجيبوه، فلما لم يجبه أحد، أقبل على أصحابه، فقال لهم: أما هؤلاء، فقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله، ثم قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، فقال الرسول (ﷺ): قولوا له: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال الرسول (ﷺ): قولوا له: الله مولانا، ولا مولى لكم، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، فقال الرسول (ﷺ): قولوا له: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، فصاح أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال الرسول (ﷺ): قولوا له: هو بيننا وبينكم موعد)).

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص363.

ثم نزل الرسول (ﷺ) إلى مكان المعركة لينظر القتلى من أصحابه، فلما رأى عمه حمزة، قد فعل به ما فعل، حزن عليه حزناً شديداً، وقال: ما وقفت موقفاً أغيظ إلي من هذا الموقف.

ونظر إلى مصعب بن عمير في برده، فقال: ﴿لَقَدْ رَأَيْتِكَ بِمَكَّةَ، وَمَا بِهَا أَحَدٌ أَرْقَ حَلَّةً مِنْكَ، وَأَحْسَنَ لِمَةٍ مِنْكَ، ثُمَّ أَنْتَ أَشْعَثُ الرَّأْسِ فِي بَرْدِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْقَتْلَى جَمِيعاً، فَقَالَ: أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ... أَنَّهُ مَا مِنْ جَرِيحٍ يَخْرُجُ فِي اللَّهِ إِلَّا وَبِعْتَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدْمِي جُرْحُهُ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمَسْكَ وَكَانَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ حَدِيثٌ عَهْدَ بَعْرَسٍ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ (ﷺ) قَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ لَتَغْسِلُهُ، الْمَلَائِكَةُ.﴾

وأمر الرسول (ﷺ) أن يدفن القتلى، حيث صرعوا، وقال: لفوهم بدمائهم وجراحهم، وانظر أكثرهم جميعاً للقرآن، فاجعلوه إمام أصحابه في القبر، وكان عدد القتلى نحو سبعين قتيلاً، أما قتلى المشركين فكانوا أربعة وعشرين، وأذن الرسول (ﷺ) في البكاء على القتلى لما في ذرف الدموع من التنفيس عن القلب، ولكنه نهى عن نتف الشعور وخمش الوجوه وشق الجيوب، ونباحه الجاهلية¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 367.

الدلائل و العبر

إن الذي يستعرض مواقف الغزوة، يعتقد أنها كانت شيئاً لا بد أن يكون، دروساً لا بد أن يتلقاه المسلمون.

أجل لقد انتصروا «وهم قلة في بدر» فكأنما وقر في نفوسهم أن النصير في كل موقعة أمر طبيعي لا يتخلف، أياً كانت الأحوال والظروف مما يكن تصرفهم وبعدهم عن أسباب النصر الحقيقية من استعداد وطاعة، فأراد الله أن يعلمهم أن النصر لا يكون إلا لمن يأخذ بالأسباب.

أجل لقد خرج المسلمون وهم «في ظاهر الأمر» جمع ملتهم، فما كادوا يقطعون الطريق، حتى ظهر الخلاف، ورجع عبد الله بن أبي بثلث الجيش، فتصدع البناء، وتزلزلت أركانه، لولا لطف الله، ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران/122.

فلما التحمت المعركة بدت ظاهرة أخرى من ظواهر الضعف في تنازع الرماة، وتهافتهم على الغنيمة، ومخالفتهم أمر الرسول رغم تحذيره لهم ألا يغادروا أماكنهم.

ويذهب بعض الرواة إلى أن الرماة لم ينزلوا «حين نزلوا» مخالفين أمر الرسول (ﷺ)، ولكنهم تأولوا قوله، وظنوا أنه مادام العدو قد انهزم، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم وقد وصف القرآن الكريم هذا الضعف، فكان الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمَ لَكُمْ لَكَيْلًا تَحَزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمُ وَلَآ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران/153.

وهكذا أدرك المؤمنون سنة من سنن الله، فعرفوا أن النصر لا يكون إلا بأسبابه، وإن الله معهم حين يكون معه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران/152.

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف كشفتها هذه المعركة، إذ أن المسلمين لم ينضاموا، ويتكتلوا حين أحاط بهم العدو، بل تفرقوا في كل وجه حق قيل أن بعضهم فر إلى المدينة، فلم يمنعه من دخولها إلا الحياء، وحتى شغلهم أمر أنفسهم عن الرسول (ﷺ)، فتكوه في قلة من الرجال، قال تعالى مصوراً ذلك: ﴿إِذِ تَصْعَدُونَ لَنَا تُلُونَنَا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ آل عمران/153.

لقد كانت زلة من زلات الضعف البشري، كشفها الله للمؤمنين حتى يلمسوها بأيديهم، ثم غفر لهم بعد ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ آل عمران/155.

وظاهرة ثالثة كشفتها هذه الواقعة حين شاع نبأ موت الرسول (ﷺ)، فقد كف بعض المؤمنين عن القتال، وألقوا بأيديهم، وقال بعضهم: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي، فياًخذ لنا أمنه من أبي سفيان¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص371.

هذا خطأ كبير لا بد أن يعرفه المسلمون، إذ ما كان الهدف هو محمد، وإنما نصر الله، وإذا مات الرسول (ﷺ) أو قتل، فإن الله حي لا يموت: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران/144.

وظاهرة أخرى من ظواهر الضعف سجلتها هذه المعركة، وهي أن فريقاً من المسلمين، قاسوا صلاح العقيدة وفسادها بما يصيب إتباع العقيدة من نصر أو هزيمة، فلما هزموا تساءلوا: هل لنا من الأمر من شيء؟... أهى عقيدة صالحة ودين حق؟... ماذا كان الأمر كذلك، فلم هذه الهزيمة؟.

وقد صور الله حال هذه الطائفة، وصحيح خطأها، قال تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَّا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ آل عمران/154.

على أنه كانت إلى جانب الصورة السابقة صورة أخرى مشرقة متألفة لطليعة قدمت توضيحات لا حدود لها:

فقد كان حمزة بن عبد المطلب يخوض في هذه المعركة، كما يخوض الجمل الأورق (جمل معروف بالقوة)، يهد الناس بسيفه هذا، ما يقوم له شيء، حتى قتله

وحشي¹.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص373.

وكان أبو دجانة مثلاً للبطل الواثق بنفسه، المدل بقوته وشجاعته، فقد روى أن الرسول (ﷺ) صف أصحابه للقتال، ثم أخذ سيفاً، فجعل يحرضه على أصحابه، قائلاً: ((من يأخذ هذا السيف بحقه؟)) فقال أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟.. قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني، فقال أبو دجانة: أنا يا رسول الله، وكانت له عصابة حمراء تسمى عصابة الموت، ثم أمسك السيف، فجعل يتمايل به أمام الصفوف في تخايل وعجب، ويقول منشداً:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحوه في السفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكبول¹ اضرب بسيف الله والرسول

فقال الرسول (ﷺ) أنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموقف، ثم نزل إلى المعركة، فأبلى بها بلاء منقطع النظير).

وكان انس بن النضير مثلاً، للمؤمن الصادق، فقد مر بنفر من المؤمنين، وهم قعود، قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: ((قتل رسول الله، قال أنس: فما تصنعون بالحياة بعده؟... قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جعل يقاتل حتى قتل، ووجد به ثمانون ضربة))².

وقاتل سعد بن الربيع حتى أثخن بالجراح فمر به بعض الصحابة، وهو يجود بنفسه، فقال له: ((أما علمت أن محمداً قد قتل؟)) فقال سعد: أشهد أن محمداً قد بلغ رسالة ربه، فقاتل عن دينك فإن الله حي لا يموت)).

¹ - الكبول: مؤخرة الصف.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص374.

وضرب عبد الله بن جحش مثلاً عالياً في تمني الشهادة والرغبة في ثواب الآخرة، فقد روى أنه تمنى على الله الموت شهيداً، وأن يمثل الأعداء به، فقاتل حتى قتل، ووجده وقد صنع به الأعداء ما تمنى¹.

إذاً فهذه الكوكبة فهمت جوهر الأمر، وإن هذا الجوهر يكمن في الدفاع عن العقيدة لا عن شخص محمد، ولقد اتضح لنا سابقاً مدى تضحيات هذه الكوكبة في الدفاع عن الرسول (ﷺ) وكيف أنهم تترسوا حوله لتلقى أجسادهم الضربات التي تأنسه.

وقد ضرب الله مثلاً لهذا النوع من المجاهدين الصادقين في قوله سبحانه: ﴿وَكَايِّنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿146﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿147﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ آل عمران/146-148.

ولقد أعطى الرسول (ﷺ) أصحابه في هذه الغزة دروساً عالية في احترام الشورى، وصدق العزيمة، وثبات القلب، وفي احتمال الأذى، والعضو عن المسيء، فقد خرج، وهو كاره الخروج، ولكنه نزل على رأي الصحابة، فلما أحس أصحابه أنهم استكرهوه أرادوا أن ينزلوا عند رأيه، فأبى التردد بعد أن عقد العزم، ذلك لأن المرء أن يترث ويستشير، ويقلب وجوه الرأي ما يشاء، أما حين ينهى من ذلك ثم يختار

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص374.

طريقه، ويعتزم، فلا سبيل إلى التردد، وليمض فيما اعتزم والعودة إلى تقلب وجوه الرأي بعد هذا ضعف وتردد¹.

ولذلك أجاب الرسول (ﷺ) أولئك الذين غيروا رأيهم بعبارة فيها الكثير من معنى الحزم والعزم غير ملتفت إلى لفظ القوم: ما ينبغي لنبي ليس لأمته أن يصفها حتى تقاتل².

وفي هذه المعركة أعطى الرسول (ﷺ) دروساً بالغة في الأوقات الحرجة، حين كاد المسلمون يفرون وهو يناديهم ويشجعهم، ويقوي قلوبهم، والخطر يحيق به من كل جانب، كل هذا دليل قاطع على ما أوتي من شجاعة القلب ورباطة الجأش، وقوة اليقين بالله عز وجل.

وعلى الرغم من الزلزال الذي أصاب المسلمين، وما المسلمين، وما أصاب الرسول (ﷺ) من جراح بسبب الفرار عنه، فلم يعنف على أصحابه، ولم يلم منهم أحداً، بل عفا عما كان من تقصيرهم، وجعل يواسيهم، ويشد من عزائمهم، ويقول لهم: لن ينالوا منا مثلها³ حتى نستلم الحجر، وقد أثنى الله عليه في ذلك، إذ يقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ آل عمران/159.

لقد محصت هذه المعركة السرائر، وامتاز النقاد من الإيمان، بل تميزت مراتب الإيمان، فعرف الذين رموا الدنيا بنعالهم، كما ما ينشأ عن الشرر المستصغر من

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص375.

² - د.البوطي: فقه السيرة النبوية، ص314.

³ -المرجع السابق، ص314.

حرائق مروعه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿166﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ آل عمران/166-167 .

ونوه بأنه على الرغم من هذا التخاذل الواضح لعبد الله بن أبي وأتباعه فقد أبى الرسول (ﷺ) أن يعاملهم إلا معاملة الصادقين وأن يصفح عنهم دون عقاب.

وكما أنزل الله سورة الأنفال في شأن غزوة بدر، فقد أنزل بشأن هذه الغزوة نحو ستين آية من سورة آل عمران، بين فيها للمؤمنين ما كان من أخطائهم في تطبيق المبادئ، ولكنه في الوقت نفسه لم يتركهم في غمرة اليأس، بل أخذ يمسح عنهم الأحزان في رفق ورحمة مازجاً العتاب الرقيق بالدرس النافع مبيناً أن العزيمة لا تنال من شرف الغاية، ولا من سمو المبادئ، وأنها لم تكن شراً بقدر ما كانت ابتلاء وامتحاناً لتمحيص القلوب، وكشفاً للنقاب عن المنافقين المخادعين، وفرصة سانحة للمؤمنين للاستشهاد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿139﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿140﴾ وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿141﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ آل عمران/139-142 .

وهكذا جعل الله يواسي المؤمنون في تلك المحنة، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتِمَّ لِمَعْقِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿157﴾ وَلَيْنَ مُتِمَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَأْتِيَ اللَّهُ بِتَحْشُرُونَ﴾ آل عمران/157-158.

علماً أن أولئك الشهداء لم يموتوا، إنما هم أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله يتمنون لشدة ما وجدوا من طيب الحياة هناك أن يعودوا إلى الدنيا، ليقتلوا في سبيل الله مرة أخرى، روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله: ﴿لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ يَوْمَ أَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنَ الذَّهَبِ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشْرَبَهُمْ وَحَسَنَ مَقْبَلَهُمْ، قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يُعَلِّمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ بِنَا، لِنَلَّا يُوَهِّنُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يُنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ﴾، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران/169.

والخلاصة لقد زعزت هذه الغزوة صفوف المسلمين، وكانت هذه الآيات بمثابة الإسمنت الذي أعاد القوام إلى تماسكه، والدعائم التي ثبتت البنيان، وها هم المسلمون، يظهرون إلى الدنيا مرة أخرى بعد أن صهرتهم النار، وأذابت الأشواب (جمع شوب وهو ما اختلط بغيره من الأشياء) والخبث.

والدليل على ذلك أن الرسول (ﷺ) لم يكذب يؤذن في الناس بالخروج مرة أخرى¹ لطلب العدو، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس، وقد أصابهم القرع،

¹ -نقصد بذلك خروج المسلمين إلى حمراء الأسد، انظر في ذلك د. البوطي: فقه السيرة النبوية،

وأنهكتهم الجراح، ولم يسترح واحد منهم بعد في بيته، ولا فرغ للنظر في جسمه، فقد انطلقوا مرة أخرى وراء الرسول (ﷺ) يبتغون المشركين، ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في مغنم، قال تعالى مصوراً ذلك: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ 172 ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ 173 ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ آل عمران/ 172- 174.

وهناك بعض الأحكام الفقهية التي يرتبها الفقهاء على أحداث هذه الواقعة:

1- الاستعانة بغير المسلمين في القتال:

لقد رفض الرسول (ﷺ) الاستعانة بغير المسلمين في هذه الغزوة على الرغم من قلة عدد المسلمين، وعلى الرغم من وجود الوثيقة بينه وبين اليهود والتي تقضي بضرورة التناصر فيما بينهم، إذا داهمهم عدو، وقد قال إلى من اقترح عليه ذلك:

﴿لَا اسْتَنْصِرُ بِأَهْلِ الشَّرْكِ عَلَى أَهْلِ الشَّرْكِ﴾¹.

ولقد روى مسلم أن الرسول (ﷺ) قال لرجل تبعه يوم بدر ليقاتل معه: ﴿أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ؟﴾ قَالَ: نَآ، قَالَ: فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينُ بِمَشْرِكٍ، وقد ذهب الجمهور بناء على هذا، إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في القتال.. وفصل الإمام الشافعي في ذلك، فقال: أن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين، وكانت

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص214.

الحاجة داعية إلى الاستعانة به، جاز، وإلا فلا¹، ومعنى ذلك أن هذا الحكم داخل في السياسة، وأحكام الإمامة.

2- اندفاع الأطفال إلى الغزو:

عرضنا إلى مجيء سمرة بن جندب، ورافع بن خديج ومناشدهما الرسول السماح لهما بالاشتراك في القتال ولقد استغل بعض دعاة الغزو الفكري، ليدلوا بأن الإسلام يحترف القتال بدلالة اعتماده على الأطفال.

والرد على ذلك بسيط هو أن الرسول (ﷺ) كان يمنع إشراك الأطفال، وبالتالي فهو لم يسمح لهؤلاء الشبابين إلا بصورة استثنائية بعد تأكده من قوتها، وإيمانها القوي.

3- حكم التبخر في الحرب:

لاشك أن كافة مظاهر التكبر يحرمها الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ الإسراء/37.

ولكن هذه الظاهرة المحرمة نزول حرمتها في الحروب بدلالة قول الرسول (ﷺ) لأبي دجاجة: إن هذه بمشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الوضع، فهذه الظاهرة تعود في هذا المقام إلى الافتخار بعزة الإسلام، كما أنها تشكل معنى من معاني الحرب النفسية التي يجب أن يرحب بها المسلمون أعدائهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ آل عمران/60.

¹ - شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ

4- شهيد المعركة لا يغسل ولا يصلى عليه:

رأينا فيما رواه البخاري أن الرسول (ﷺ) أمر بدفن قتلى المسلمين بدمائهم، ولم يصل عليهم، كما جمع بين الرجلين في قبر واحد، وقد استدل العلماء على أن الشهيد لا يغسل، ولا يصلى عليه، بل يدفن بدمائه. كما استدلو بأنه يجوز عند الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر، أما بدون ضرورة فلا يجوز ذلك¹.

أما ما روى أن الرسول (ﷺ) صلى على الشهداء عشرة عشرة، في كل عشرة حمزة، فضعيف وخطأ².

5- الحكمة من شيوع مقتل الرسول (ﷺ):

إن ارتباط المسلمين بالرسول (ﷺ) كان من القوة بحيث لم يكونوا يتصورونه، أو يتخيلون القدرة على التماسك دونه، أي أنهم أسقطوا مثل هذا الحسب من ذهنهم، إذ كانت هذه الشائعة تجربة درسية رائدة لكي يستفيق المسلمون إلى الحقيقة، فيوطنوا أنفسهم لها منذ الساعة وأن لا يرتدوا على أعقابهم، إذا وجدوا الرسول (ﷺ)، قد اختفى مما بينهم، وقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس يوم أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى، وكيف أن هذه الآية ربطت على قلوبهم.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص22.

² - الشريبي: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، 1/349.

آثار أحد (يوم الرجيع وبئر معونة)

كان الأثر الأول لهذه المعركة تحرك رؤوس الفتنة والعداوة ضد الإسلام والمسلمين والشماتة والفرح اللذان ملأ قلوبهم، وهم يرون المسلمين يدخلون المدينة واهنين وقد غشاهم الكآبة والوجوم.

ولم يشأ اليهود والمنافقون أن يخفوا شماتتهم وفرحهم، فجعلوا يعلنون بها ويجاهرون، بل انتهزوها فرصة للنيل من الإسلام وأهله، فأطلقوا ألسنتهم بالسوء وأخذوا يشككون في الرسول (ﷺ) ودعوته قائلين: ((لو كان نبياً ما ظهروا عليه، ولا أصيب منه ما أصيب، ولكنه طالب ملك تكون الدولة له وعليه))¹، وجد المنافقون في تفريق الناس عن الرسول (ﷺ)، وتحزين المسلمين على من مات منهم، متظاهرين بأنهم كانوا أحزم، حين رجعوا من الطريق، وإن المسلمين لو أطاعوهم، فرجعوا كما رجعوا، فأصابهم الذي أصابهم، قال تعالى مصوراً ذلك: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِيَا خَوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ آل عمران/168.

وأكثر اليهود والمنافقون القول في الإسلام حتى فارت المدينة بالأراجيف فور الرجل، وأوشك الأمر أن يكون فتنة، فخشى الرسول (ﷺ) على المسلمين أن يتملكهم الوهن والضعف، كما خشى أن يدفع الطمع قريشاً إلى الكره عليهم، وهم في هذه الحال من الزعزع والاضطراب، لذلك رأى أنه لابد من عمل سريع وعلاج حاسم يعيد الثقة إلى النفوس، فعزم على الخروج بأصحابه في أثر قريش على الرغم ما بالمسلمين من أعباء وجهد، وبذلك يحقق غرضين:

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 379.

أولهما: قطع الطريق على المرجفين.

ثانيهما: إشعار قريش أن المسلمين مازالوا في قوة ومهابة.

قال ابن اسحق: ((فلما كان من الغد: من يوم الأحد ليست عشرة ليلة من شوال، أذن مؤذن الرسول (ﷺ) في الناس يطلب العدو، ألا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس، وإنما خرج الرسول (ﷺ) مرجعاً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، وليظنوا به القوة، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وأخذ الناس يسارعون إلى أسلحتهم فيلبسونها، ثم يتوافدون على المسجد، فيجتمعون فيه، لا يتخلف عن ذلك جريح ولا صحيح ومع أن الجراح كانت في الناس قاسية، والناس مشغولون كل بمداواة جراحه، فالنداء شغلهم عن أنفسهم، فما منهم أحد ألا نسي جراحه ولحق بالرسول (ﷺ)، لدرجة أن عبد الله ورافع ابنا سهم الأنصاري خرجا يزحضان ليلحقا بالرسول (ﷺ)، وكان رافع أكثرهما جراحاً، فأخذ أخوه يحمله على ظهره عقبه (مسافة) حتى يستريح ثم يتركه يمشي عقبه، ولحقا بالرسول (ﷺ) وقد دعا لهما الرسول (ﷺ) لذلك قائلاً: إن طالت بكم مدة كانت لكم مراكب من خيل وبغال وإبل، وليس ذلك بخير لكم))¹.

واستأذن في الخروج رجال لم يحضروا القتال، فأبى عليهم الرسول (ﷺ)، ولم يأذن إلا لجابر بن عبد الله، لما رأى من بالغ عذره وصادق نيته².

ومضى المسلمون حتى عسكروا بحمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة، فأقاموا بها الاثني والثلاثاء والأربعاء.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص381.

² -المرجع السابق، ص381.

قال ابن اسحق: ((وكان المسلمون يجمعون في النهار الحطب، ثم يوقدونها ليلاً، فكانت النار ترى من بعيد، وقد ملأت الأرجاء بأضوائها، حتى خيل للناس أن المسلمين ألوف مؤلفة، فذهب ذكر معسكرهم ونيراهم كل وجه، فكان ذلك مما كبت الله به عدوهم.

ومر معبد الخزاعي بالرسول (ﷺ) «وخزاعة قبيلة مسالمة ومناصحة للمسلمين» فقال: يا محمد لقد عزّ علينا ما أصابك في نفسك وأصحابك ووددنا أن الله أعلى كعبك، وإن المصيبة كانت بغيرك، ثم مضى حتى لقي أبا سفيان.

قال ابن اسحق: فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يظلمكم في جمع لم أرى مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا... قال: ويحك، ما تقول؟.. قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى تواصي الخيل يوشكوا (إدراككم) قال: فوالله لقد اجمعنا الكرة عليهم، قال: أنهاك عن ذلك، فتتى ذلك أبا سفيان ومن معه من النجار، فأوعز إليهم، لقاء أجر، أن يخونوا المسلمين، ومر هؤلاء الركب بالرسول (ﷺ) في حمراء الأسد، وخوفوه، فلم يأبه لهم، وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل)).

وكل الرسول (ﷺ) وأصحابه في معسكرهم حتى علموا أن قريشاً قد انصرفت إلى مكة، فعادوا إلى المدينة ارفع رؤوساً وأعز جانباً على أن كل ذلك لم يمح آثار الهزيمة، فقد تألبت القبائل على المسلمين، وظن البدو الذين يحيطون بالمدينة، إنهم قادرون على أن يغيروا على المدينة، وكان أول من تهيأ لذلك بنو الأسد، فلما علم الرسول (ﷺ) بذلك بادروهم بالغزو قبل استعدادهم مرسلأ إليهم أبا سلمة في

مائة وخمسين من أصحابه فباغتهم وشتتوا جموعهم، واستاقوا أمامهم ما ظفروا به من أنعامهم¹.

ونمى إلى الرسول (ﷺ) أن خالد بن سفيان الهزلي، مصمماً لغزوا المدينة، فبعث إليه عبد الله بن أنس تنكراً في مظهر رجل يريد أن ينضم إليه في حرب محمد، حتى إذا استيقن أنه يجمع لرسول الله، استدرجه وقتله².

وعز على هذيل ذلك، فذهب إلى الرسول (ﷺ) رجال منهم زعموا أنهم يرغبون في الإسلام، وإنهم يريدون أن يرسل معهم رجالاً من أصحابه، يعلمونهم الدين، فأرسل النبي معهم نفرًا من خيرة أصحابه على رأسهم عاصم بن ثابت، فلما كانوا عند ماء من حياة هذيل يقال له الرجيع غدروا بهم، فلجأ المسلمون إلى جبل هنالك، واعتصموا به، ثم جعلوا يقاتلون حتى قتلوا، إلا ثلاثة خدعوا بحيلة القوم فأسروا، وقد أفلت أحدهم، وهو عبد الله بن طارق، ولكنه لوحق، ورمي بالحجارة حتى قتل، وأما صاحبا، وهما حبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فبقيا في مكة، ليقتلا هنالك انتقاماً³.

وتحكي الأخبار أن زيدا لما قدم ليقتل، قال له أبو سفيان: ((أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن من مكانك تضرب عنقه، وإنك في أهلك؟)) قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانة الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 383.

² - المرجع السابق، ص 383.

³ - المرجع السابق، ص 384.

جالس في أهلي... قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم).

وأما خبيب، فقد قال لهم: ((أن رأيتم أن تدعوني اركع ركعتين... قالوا: دونك نركع... فركع ركعتين أتمهما وأحبستهما، ثم أقيّل على القوم، فقال: أما والله لولا تظنوا أنني إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، ثم تقدم إليهم، فرفعوه على خشبة أقاموها ليصليوه، فلما أوثقوه عليه رفع وجهه إلى السماء وقال: اللهم أنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم نظر إلى القوم، وقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، فمال القوم على جنوبهم مخافة أن تأخذهم دعوته، يقول الواقدي: أنهم جمعوا له أبناء الذين قتلهم في بدر، فظلوا يخونه بالجراب حتى قتل)).

ولقد حزن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمقتل هذين الشهيدين، وشهداء الرجيع، لأن في قتلهم خيانة وغدر، ولأنهم كانوا من خيرة القراء¹.

وقدم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) شيخ من شيوخ بني عامر اسمه أبو براء العامري ويلقب بملاعب الأسنة، فقال للرسول (صلى الله عليه وسلم): يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): ((أني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار)).

فبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) المنذر بن عميرة في أربعين من أصحابه فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، فلما نزلوها بعثوا حزام بن ملحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل (شيخ بن

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص387.

عامر)، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ويستصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يحترموا جوار أبي براء، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم، فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رجالهم، فلما رأوهم قاتلوهم حتى قتلوا جميعاً ما عدا كعب بن زيد فقد تركوه، وبه رمق ومكث الرسول (ﷺ) نحو شهر يدعو على قتلة أصحابه في بئر معونة وفي الرجيع كلما صلى حتى نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ آل عمران/128.

هكذا كان زلزال أحد، الأعداء من اليهود والمنافقين في المدينة، ومن الأعراب في البادية، ومن المشركين في مكة يتحينون بهم الفرص، ويتربصون بهم الدوائر، والمسلمون في حذر وخوف ويقظة وترقب، لا يكادون يحسون بطائفة فجمع لهم إلا بادرها بوقية، فكانوا كريان السفينة الماهر الذي أحاطت به الأمواج واضطرب من حوله البحر، فهو يحاول بكل ما أوتي من مهارة وصدق تجنب سفينته الهلاك، وكان له ذلك.

الدلائل والعبر المستفادة يوم الرجيع وبئر معونة

هذا ونسجل في هذا المقام الملاحظات الآتية:

1- الدعوة مسؤولية المسلمين كافة:

مما لاشك فيه أن مسؤولية الدعوة إلى الإسلام ليست مقصودة على الأنبياء والرسول، أو على فئة معينة بذاتها، بل هي مسؤولية كل مسلم. ومن جهة أخرى، فالرسول (ﷺ) أرسل القراء التسعين مختاراً إياهم من أفضل أصحابه، ولما يحض على مقتل أولئك نفر الستة أمد طويل، مع ما في ذلك من مغامرة بسبب الأهمية البالغة لتبليغ الرسالة، ونشرها وحملها إلى الناس.

2- صورتان متناقضتان:

الصورة الأولى هي صورة الغدر والخيانة العجيبين، متمثلة في جريمة قبائل بني سليم في حق السبعين من المؤمنين الذين لم يكن لهم هدف إلا نشر الإسلام.

والصورة الثانية صورة الأمانة والصفح والتسامي فوق دوافع الثأر، وتتجلى في مظهر خبيب، وهو أسير في بيت بني الحارث ينتظر ساعة قتله، وفي البيت طفل صغير درج نحوه في غفلة من أمه، حيث كانت تلك اللحظة فرصة سانحة للانتقام أو للمساومة، وهذا ما ظن به أهل البيت كلهم، وقد ذهبت أم الطفل مذعورة لتخلصه من براثن موت مؤكد، ولكنها وقفت مندهشة عندما رأت طفلها، وقد أجلسه خبيب في حجره يلاطفه، كأنه أب شغوف، وعندما قدمت الأم وقف مخاطباً إياها أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك.

3- استسلام الأسير:

يستدل من أخبار هاتين الحادثتين أن للمسلم عندما تعوزه وسائل التخلص والنجاة بنفسه أن يمتنع من قبول الأمان، وأن لا يمكن من نفسه ولو قتل، ترفعاً عن أن يخضع لحكم كافر، وهذا ما فعله عاصم¹.

أما إذا أراد الترخيص، فله أن يستأمن، أملاً في الخلاص، وهذا ما فعله خبيب وزيد، وبالطبع فالأصح الهرب إذا استطاع الأسير، ووجد سبيلاً إلى ذلك، حتى وإن أمكنه الأسر من إظهار دينه، لأن الأسير في يد الكفار مقهور مهان، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه من هوان الأسر².

أما الانتحار تخليصاً من تعذيب، أو خوفاً من أن يستكره على إفشاء سره فغير جائز بالاتفاق³.

4- إكرام الله للمؤمن:

في حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه أن إحدى بنات الحارث رأت في يد خبيب قطف عنب يأكل منه، وما بمكة يومئذ ثمره، وذلك عندما كان أسيراً في مكة كل ذلك يدل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون لولي قبل خبيب، تكريماً على تضحياته التي تحملها، لاسيما وهو على حافة الموت المحقق به.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص226.

² - شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد الرملي: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، 78/8.

³ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص226.

5- الصورة الفذة للتضحية والفداء:

تبدو لنا هذه الصورة في موقف كل من خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة .
أما زيد، فقد أبى المساومة التي قدمها له أبو سفيان، ورفض التنازل، وهو في
أهلك الظروف مؤكداً أنه لا يطيق أن يرى شوكة تصيب الرسول .

أما وقفة الشموخ التي بدت من خبيب، وهو يصلي الركعتين بكل رباطة جأش،
وقوله: لولا أن تروا أن ما في جزع من الموت لزدت .

فقلب هذا المؤمن معلقة بالصلاة، وقررة عينه فيها، ولكنه رفض الإطالة خشية
اتهام الكفار للمسلم بالجبن والاستخفاف وبالمقابل وفي أهلك الظروف وأقساها،
فقد تفتحت عبقريته وجاءت قريحته بالأبيات الشعرية الذائعة الصيت¹ .

قد أجمع الأحناب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

إلى الله أشكرو عرثي بعد كرتي وما أسلك الأحناب عند مصرعي

وذلك في ذات الإله وإياه يشأ بيارك علي أوصال شلو ممزع

ولست أبالي حيه أقتل مسلماً علي أي جنب كان في الله مصرعي

ذلك إن لذة الحياة الدنيا بالنسبة لهذا الشهيد أقل شأناً من أن تحبسه عن أداء
أصغر طاعة يتقرب لها إلى خالقه، وننوه بأن هذا الشهيد العظيم خبيب هو أول
من سنَّ الركعتين قبل القتل² .

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص223 .

² - المرجع السابق، ص223 .

غزوة بني النضير

عربنا سابقاً لمظاهر السماتة والغدر والتشكيك والأراجيف التي آثاها اليهود ضد المسلمين بعد معركة أحد .

ولقد كشف الله للمؤمنين عن سرائر اليهود في هذه المرحلة العصبية، وخذرههم أن يثقوا بهم، أو يطمئنون إليهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿118﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ النَّامِلَ مِنَ الْغَيْطِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿119﴾ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ آل عمران/118-120 .

إذا فوعي المسلمين بقيادة الرسول (ﷺ)، والرؤية أمام ناظرهم واضحة وجلية فيما يتعلق بموقف اليهود، وكان لا بد للرسول من ساحة تمر كيدا يختبرهم، ويكشف عن نواياهم، وكانت تلك الفرصة تتعلق بالقتيلين اللذين أصابهما عمرو بن أمية من بني عامر .

قال ابن اسحق: ((خرج الرسول (ﷺ) إلى بني النضير يستعينهما في دمه
ذالك القتيلين من بني عامر، للجواز الذي كان الرسول (ﷺ) عقد لهما، وكان بين
بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم الرسول (ﷺ) لذلك الأمر، قالوا:
نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم إلى بعض، فقالوا: من
رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك
عمرو بن جحاش - أحدهم - فقال: أنا لذلك... وصعد ليلقي الصخرة، فأتى
الرسول (ﷺ) الخبر من السماء، بما أراد القوم، فقام، وخرج راجعاً إلى المدينة،
فلما استلبث النبي أصحابه، قاموا في طلبه، فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسأله
عنه، فقال: رأيته داخل المدينة، فأقبل أصحاب الرسول (ﷺ) حتى انتهوا إليه،
فأخبرهم خبر الغدر، وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ويتضح من هذا الخبر
(ابن اسحاق) أن الجريمة لم تكن فردية ارتكبتها فرد من بني النضير، وإنما هي
جريمة جماعية ارتكبت من هذه القبيلة واشترك فيها كافة أهل الحل والعقد،
وهذه الجريمة لم تكن موجهة إلى فرد من المسلمين، وإنما ضد المسلمين كافة في
شخص رسولهم))، وهذا ما تؤكد الآيات القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المائدة/11.

فقد وصف القرآن هذه الجريمة بأنها جماعية همت فيها جماعة بالاعتداء على
جماعة.

ولقد أكد ابن اسحق «كما ذكرت طائفة من أئمة التفسير» أنها نزلت في

شأن بني النضير، حين هموا بقتل الرسول (ﷺ)¹.

وبالطبع فقد كانت هذه الغزوة -ومثلها معها من الغزوات، موضوع هجوم كبير من أعداء الإسلام، وعلى رأسهم الدكتور "إسرائيل ولغنسون" في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب.

لقد ألقى "ولغنسون" هذا التبعة على الرسول (ﷺ) زاعماً أنه غضب على يهود بني النضير، لأنهم لم يشاركوه في واقعة أحد، مع العلم أن أحداً من كتاب السيرة النبوية لم يذكر نصري أو تلمجا أن الرسول طلب من بني النضير أو غيرهم من اليهود الاشتراك معه في هذه الواقعة².

ومن جهة أخرى، فقد أكد "ولغنسون" أن المعاهدة الكبرى بين الرسول (ﷺ) واليهود (الصحيفة) لم تكن لتبرر هذه العقوبة، ودليله على ذلك، أن نصوص هذه المعاهدة تقضي أن كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد، إنما يقع عقابه على فاعليه، وأهل بيتهم دون غيرهم، ولكن الرد على ذلك بسيط، وهو أن نصوص تلك المعاهدة تتسع للفرد وللجماعة معاً، وهذا ما يتضح من قول المعاهدة المذكورة، من ظلم وأثم، فإنه لا يونغ إلا نفسه، وأهل بيته... من فتك فينفسه فتك وأهل بيته.

هذا فضلاً عن أن هذه الجريمة لم تكن فردية، وإنما جماعية، كما ذكرنا.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص397.

² - انظر في هذا الرأي والرد عليه، من قبل: أمين دويدار، ص390 وما بعدها.

قال ابن سعد: ((وبعث إليهم الرسول ﷺ) محمد ابن مسلمة قائلاً لهم: أخرجوا من بلدي، فلا تساكتوني، وقد هممت، بما هممت به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه، فمكثوا يتجهزون، لكن ابن أبي أرسل إليهم قائلاً: لا تخرجوا وأقيموا في حصنكم، وإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم، وتمدكم قريظة، وحلفاءكم غطفان، فطمع حيي بن أخطب، فيما قال ابن أبي، فأرسل إلى الرسول ﷺ) قائلاً: إنما لا نخرج، واصنع ما بدا لك، وسار إليهم الرسول ﷺ)، فحاصرهم واعتزلهم بنو قريظة، فلم تعنهم، وخذلهم ابن أبي، وحلفاءهم من غطفان، وقطع الرسول ﷺ) نخلهم، فقالوا: نحن نخرج، وأخرجوا معهم النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن بخاف (عتبة الباب)، فيضمه على بعيره، وخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام)).

قال صاحب الإمتاع: ((فلما غنم الرسول ﷺ) بني النضير بعث ثابت بن قيس، فدعا الأنصار، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: إن أحببتهم قسمت بينكم، وبين المهاجرين، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأحوالهم، وإن أحببتهم أعطيتهم، وخرجوا من دوركم، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل نقسمه للمهاجرين، ويكونون في دورنا، كما كانوا، ونادت الأنصار رضينا، وسلمنا يا رسول الله... فقال الرسول ﷺ): اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار)).

الدلائل والعبر

1- عصمة الرسول (ﷺ):

قد يزعم بعضهم أن الله لم يأت على يد الرسول بالمعجزات والخوارق سوى القرآن الكريم، ولكن أليس ذلك الأخبار من الله للرسول خارقة من بها الله على رسوله، فعصمه وحماه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة/68. وقد عبر بعض الكاتبين عن هذا الخبر الإلهي بأنه مجرد إلهام، ولكن أليس الإلهام من خصائص البشر العاديين، هذا فضلاً عن أن علماء السيرة عبروا عن ذلك بعبارة "الخبر الإلهي" تدليلاً بأن الأمر لا يتعلق بالإلهام¹.

2- قطع أشجار العدو:

مما لاشك فيه أن الذي أملى هذا الموقف إنما هو لضرورات الحربية، وهذا الضغط على العدو، بدليل أنه تم إتلاف بعض النخيل ليس إلا، وبدليل أن المسلمين احترموا قواعد القانون الدولي، فكانوا في حروبهم لا يقتلوا طفلاً، أو شيخاً طاعناً أو امرأة، أو يقطعوا شجراً، أو يهدموا بيتاً، وهذه هي وصية أبي بكر المشهورة وهي وصية ولا شك من مشكاة النبوة ونورها المتألق. ولقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط، بما يراه الإمام أو القائد ممن المصلحة المتحققة من النكاية بالأعداء، فالمسألة إذاً داخلية في عموم، ما تسمى بإحكام الإمامة الشرعية.

¹ -انظر الرد على كون الخبر مجرد إلهام، د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص230.

وهذا هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك الثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وابن اسحق وجمهور الفقهاء¹.

والخلاصة أن المسألة منوطة بالسلطة التقديرية للقائد أو صاحب السلطة السياسية، يزنها في ميزان المقتضيات العسكرية والسياسية للمصلحة العامة للمسلمين، وليس المصلحة الشخصية.

3- حكم توزيع الفيء والغنائم:

ذكرنا سابقاً أن ما غنمه المسلمون من بني النضير وزع على المهاجرين، ويسمى هذا الغنم بالفيء، وحكم هذا الفيء أنه لا يوزع على المقاتلين باعتباره لم يأت عن طريق القتال، وإنما يتم توزيعه على ضوء المصلحة العامة التي يقدرها إمام المسلمين، وهذا موضع اتفاق العلماء.

وبالطبع، فاعلة التي دفعت الرسول (ﷺ) إلى توزيع الفيء على المهاجرين، هي التعليل الذي ذكره الله تعالى بقوله: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» الحشر/7، أي كي لا يكون تداول المال محصوراً بين طبقة الأغنياء.

4- الدفاع المشروع:

لقد ارتفعت أصوات وعقائر تشدقت بقسوة التدبير المتخذ بحق بني النضير. والمتأمل ملياً في هذا الحدث، يتضح له بجلاء أن هذه القبيلة ما فتئت لحظة تدبر المكائد والمؤامرات، وتحيك الدسائس، وتشن الحرب النفسية والإعلامية ضد المسلمين، وقد بلغ بهم العدا، أنهم دبروا اغتيال الرسول (ﷺ)، وهو معقد قوة المسلمين، واعتزازهم الروحي، ومرتجاهم، وأملهم المنشود فكيف إذا استطع

¹ -انظر شرح النووي على صحيح مسلم، 50/12.

المسلمون استمرار الحياة مع هؤلاء، وظهورهم مكشوفة إلى حراب هؤلاء، وإن المسلمين في حال حرب خارجية مع قريش، ووجود بني النضير بين ظهراي المسلمين خطر حقيقي حال ومصدق، هذا ويتضح أن هذه العقوبة اقتصر على نزع القتيل وإزالة الخطر ليس إلا، أي إزالة الحرية الموجهة إلى صدر المسلمين دون أن تقيد بأي إهدار لقطرة دم واحدة، وهذا هو الدفاع المشروع الذي أقرته كافة الشرائع الإنسانية.

تأديب العصاة

كانت غزوة بني النضير خطوة جازمة موفقة وضربة في الصميم، أصابت اليهود والمنافقين معاً، حيث كسرت شوكتهم، وملأت قلوبهم الرعب، فكشف المنافقون عن اللغو والإرجاف، وبقوا بنو قريظة في عقر دارهم، يترقبون في حذر وخوف.

لقد هدأت المدينة، واستطاع المسلمون أن يوجهوا جهودهم إلى تأديب ما بقى من القبائل الثائرة عليهم من أعراب المدينة، وهكذا كانت غزوات المسلمين الآتية: غزوة ذات الرقاع - غزوة بني المصطلق.

غزوة ذات الرقاع

كانت هذه الغزوة في السنة الرابعة للهجرة، بعد مرور شهر ونصف على إجلاء بني النضير، وذلك على ما ذهب إليه أكثر علماء السيرة والمغازي، ورجح البخاري أنها كانت بعد غزوة خيبر¹.

وسببها أن الرسول (ﷺ) علم أن بني محارب وبني ثعلبة يتهيأون لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من أصحابه، وولي على المدينة عثمان بن عفان، وسار الرسول (ﷺ)، حتى نزل "نخلاً" وهي موقع بنجد من أرض غطفان، فلقى بها جمعاً عظيماً منهم، فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وإن خاف بعضهم من بعض، حتى صلى الرسول صلاة الخوف، فكان إذا حضرت الصلاة صلى بفريق من أصحابه، وبقي فريق قائماً يحميهم من الغدر، وهكذا دواليك.

وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع، لأن الحجارة أوهنت أقدامهم، فكانوا ينشدون عليها رقع الخرق.

وفي هذه الغزوة نزل الرسول (ﷺ) في شُعب من شعاب الوادي فقال: ((من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟)) فانتدب لذلك رجل من المهاجرين، وآخر من الأنصار، وقال لهم الرسول (ﷺ): كونا بضم الشعب، فلما خرج الرجلان، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيك، أوله أم آخره؟ قال: بل أكفني أوله، فاضجع المهاجري،

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 232.

فقام وقام الأنصاري يصلي، فأتى رجل من المشركين، يتبع القوم، فلما رأى شخص الأنصاري، عرف أنه ربيته القوم (الحارس) فرمى بسهم، فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري، ووضعه وثبت قائماً، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري، فوضعه ثم ركع وسجد، ثم أيقظ صاحبه، فقال له: اجلس فقد أثبت رأى ما أصابه من السهام وأعجزه عن القيام)، فوثب المهاجري قائماً، فلما رأهما الرجل، هرب.

ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله، أفلا أجبتي؟ قال: كنت في سورة اقرأها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذاها وأيم والله لولا أن أضيع ثغراً أمرني الرسول (ﷺ) بحفظه لقطع نفسي، قبل أن أقطع (السورة)¹.

وذهب الرسول (ﷺ) يقبل في ظل شجرة، وعلق سيفه فيها، متسلل إلى مكانه رجل من العدو، فأخذ سيف الرسول، فاستيقظ الرسول (ﷺ)، فإذا الرجل قائم على رأسه، والسيف في يده، وهو يقول له: ﴿مَنْ يَمْنَعُ مَنِّي؟﴾، قَالَ اللَّهُ، فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ الرَّسُولُ (ﷺ)، قَالَ لَهُ: مَنْ يَمْنَعُ مَنِّي؟، قَالَ: كُنْ خَيْرٌ آخِذٌ، فَعَفَا عَنْهُ الرَّسُولُ (ﷺ)، فَاسْلَمَ، وَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ².

¹ - رواه أحمد وأبو داود وكلهم عن ابن اسحق والطبري: تاريخ الأمم والملوك.

² - صحيح البخاري: 52/5 و53 و54.

الدلائل والعبر

1- حكم صلاة الخوف:

الكيفية التي صلى بها الرسول (ﷺ) جماعة مع أصحابه، في هذه الغزوة هي الأساس الذي قامت عليه مشروعية صلاة الخوف. وبالطبع، فالأصل، هو استحباب وحدة الجماعة قدر الإمكان وتجزئة القوم أنفسهم جماعات في الصلاة، أمر مكروه بدون ضرورة، ومع ذلك فقد ذهبت الأحناف إلى أنه لا مسوغ لصلاة الخوف بعد وفاة الرسول (ﷺ)، متمسكين بالشرط الأول، وهو تحقيق وحدة الجماعة¹.

وفي نظرنا أن هذا التعليل ضعيف لا مسوغ له، وأن هذه السنة الفعلية التي أستنتها الرسول (ﷺ) تبقى قائمة مادامت أسبابها حالة موجودة.

2- موقف الرسول (ﷺ) من محاولة قتله:

وبالطبع، فهذا الحدث إن دل، فإنما يدل على عصمة الله لرسوله، والخوارق التي أمده الله بها، وفي الوقت نفسه فهذا الحدث يدل على أن الرسول (ﷺ) لم يهبط إلى مستوى الانتقام الشخصي، بل سما إلى الدرجات العلى من الحلم والرحمة والصفح، كأداة للتأثير في قلب هذا المشرك، وإدخال الإيمان إليه، وهو ما حدث فعلاً.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 237.

3- حراسة الثغور:

يرى الدكتور البوطي أنه وكان من الطبيعي جداً بالنسبة لذلك الأنصاري ألا يبالي بالسهم الذي أسرع فانحط في جسمه، ولا بالسهم الثاني الذي تبعه، وكان طبيعياً أن يستخر في صلاته ومناجاته، لولا مسؤولية كبرى ارتبطت به أن يحرس ثغراً من ثغور المسلمين، فكان ذلك وحده، هو الذي اضطره إلى أن يلتفت، فيقطع صلاته، ويوقظ صاحبه¹.

ونحن لا نقر الدكتور البوطي على هذا التعليل، ونرى فيه خطأ جسيماً وخطراً مدلها.

أما الخطأ، فيكمن في الاعتقاد وأن الذي منع الأنصاري من متابعه الصلاة، إنما هو حماية الثغر، والحقيقة إن المانع هو الضربات والآلام التي تعرض لها المذكور، وهو أمر نابع من طبائع الأشياء، والقوانين المركوزة في الشيء، وهذا نظام الفطرة في الإسلام، وليس عيباً أو ضعفاً أن نستجيب لهذا القانون الذي أجراه الله في عروقنا وأوصالنا.

ومن جهة أخرى، فمن غير المعقول ألا يتنبه الحارس للخطر منذ السهم الأول، ويبحث عن مسببه، بل يبقى مسترخياً، وهو في هذا الموقف الحساب من ضرورة الترقب والتحسس لأي واقعة، أما الخطر، فيكمن في عدم إعطاء أي وزن أو حساب لحياة الإنسان وبيان ذلك أن الأنصاري تعرض إلى الموت بعد أن تلقى السهم الأول، ومن ثم فقد كان عليه أن بقي حياته من أي خطر، حتى ولو أدى ذلك إلى قطع المناجاة، لاسيما أننا لسنا في مجال التنازع بين حفظ الدين، وحفظ النفس، بل أمام حقيقة وحدة هي حفظ النفس، أما الدين فهو في حرز حريز، حتى ولو قطعت المناجاة.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 240.

غزوة بني المصطلق أو المريسيع

بلغ الرسول (ﷺ) أن بني المصطلق بن خزاعة، قد عولوا على حربه بزعامة الحارث بن أبي ضرار أبي جويرية بنت الحارث زوج الرسول (ﷺ)¹.

وقد خرج إليهم ولقيهم على ماء لهم، يقال له المريسيع، وحلف الهزيمة ببني المصطلق، وأسر الرسول (ﷺ) كثيراً من نسائهم وأبلهم وكان لهذه الغزوة أهمية كبرى، بسبب قيام النزاع بين المهاجرين والأنصار، الذي كاد أن يؤدي إلى فصم عرى الوحدة بينها، ثم وقوع حادث الأفك الذي أرجف به المبطلون.

أما هذا النزاع، فسببه حدوث خلاف بين سنان الجهني حليف بني سالم من الأنصار وجهجاه بن مسعود الغفاري، حيث ضرب هذا سناناً، فنادى سنان يا للأنصار، ونادى جهجاه بالقريش بالكفانة، وشهر المهاجرون والأنصار السلاح كل في وجه الآخر، وكادوا يقتتلون لولا أن تداركهم الرسول، وقال: ما بال دعوني الجاهلية!!.. دعوا هذه الكلمة، فإنها فتن، وسرعان ما سكنت الفتنة.

وانتهز عبد الله بن أبي بن سلول هذه الحادثة، فأخذ يحض قومه على طرد المهاجرين، وعود الحال إلى ما كانت عليه قبل الهجرة، فقال: ((أو قد قفلوها؟ قد

¹ -انظر عن أخبار هذه الغزوة، ابن سعد: الطبقات الكبرى، 3/156، وسيرة ابن هشام، 2-

ناقرونا أو كاثرونا في بلادنا، سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعرز منها الأذل، وسمع الرسول (ﷺ) بذلك، وأشار عليه عمر بقتل عبد الله بن أبي، فقال: كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟)).

ولقد رأى الرسول (ﷺ) نظره أن يشعل المسلمين عن هذا الأمر، لذلك فقد أخذ في المسير وقت الظهيرة في استبصار أمنه أن المسلمين إذا أخذهم التعب ناموا ولم يجدوا فرصة للحديث ونزلت سورة المنافقين في عبد الله بن أبي، وفيها يقول تعالى: ﴿يَقُولُونَ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ المنافقون/8.

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى الرسول (ﷺ)، فقال: ((أنه بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخرج ما كان لا من رجل أثر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري، فيقتله، فلان عني نفسي انظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار))¹.

فقال الرسول (ﷺ): ﴿بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ، وَنَخْشَى صُحْبَتَهُ، مَا بَقِيَ مَعَنَا﴾، وجعل بعد ذلك إذا حدث عن عبد الله بن أبي بالحديث، كان قومه، هم الذين يعاتبونه، ويعنفونه، فقال الرسول (ﷺ) لعمر بن الخطاب: ﴿كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ أُمَّ وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَ قَلْتُ لِي لَأَرَعَدَتْ لَهُ أَنْفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: قَدْ وَاللَّهِ عَلِمْتُ لَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ أَمْرِي﴾.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص542.

وكان من بين سبايا بني المصطلق جويرية بن الحارث سيد القوم، وكانت قد وقعت من نصيب ثابت بن قيس فشق ذلك على نفسها، واتفقت معه أن تتحرر بطريق المكاتبه، فلما جاءت إلى الرسول (ﷺ) تطلب منه العون المالي، رأى من الحكمة أن يتألفها بما ينتزع من قلبها الحقد على الإسلام فقدم إليها المال، وعرض عليها الزواج منها، وتزوجها، وكان الرسول (ﷺ) بعيد النظر، إذ خشي أن يجتمع حولها فلول أبيها فتكون باباً من أبواب الشر، وكان من أثر ذلك أن اعتق كل مسلم من كانت بيده من أهل بيتها استعظاماً لأن يسترقوا أصهار الرسول (ﷺ)¹.

وفي أثناء عودة المسلمين حدثت حادثة الإفك التي أذاعها دعاة السوء ضد أم المؤمنين عائشة، وذلك حين رأوا صفوان بن المعطل يقود بعيرها، فاتهموها إفكاً، وتطرق الحزن إلى قلب الرسول (ﷺ)، وتقص علينا أم المؤمنين² هذه الحادثة فتقول: ((كان الرسول (ﷺ) إذا أراد السفر، أقرع بين نسائه، فلما كانت غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه، يخرج سهمي، فخرج، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملوني، فلما فرغ الرسول (ﷺ) من سفره، وجه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة، نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن بالرحيل، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي، فلما فرغت انسل من عنقي، فلما رجعت إلى الرجال، وذهبت التمسه، فلم أجده، فرجعت إلى مكاني، فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنني فيه، فاحتملوه، فرجعت إلى المعسكر، وقد انطلق الناس، فتلقت بجلبابي، ثم اضجعت

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص25، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص63.

² - سيرة ابن هشام، ج3، ص343.

في مكاني، فو الله أني لمضطجعه، إذ مر بي صفوان بن المعطل، وكان قد تخلف عن المعسكر، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف علي، فلما رأني قال: أنا لله وإنا إليه راجعون...

قال: ما خلفك يرحمك الله؟.. فما كلمته ثم قرب البعير، فقال: اركبي، فركبت، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس، فقال أهل الإفك ما قالوا، ما أعلم شيء من ذلك..)).

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يلبث أن برأ السيدة عائشة، وجعل حصانها قرآناً يتلى، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور/11، وأنشد حسان بن ثابت قصيدة طويلة، يعتذر فيها عما فرط في حق أم المؤمنين، قال في بعض أبياتها:

حصاه زاه ما تره بريئة وتصبلا غرثي مه لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينا ومنصبا نبي الهدى والمكلمات الفواضل

عقيلة حي مه لؤي به غالب فراص المساعي مجدها غير زائل

معهذبة قد طيب الله خيمها وقاها مه كل سوءٍ و باطل

فاه كنت قد قلت الذي قد زعمته فلا رفعت صوتي إلي اناملي

فكيف وودي ما حيت ونصرة لآل نبي الله زيه المحافل

وفي موضوع آخر، فقد روى البخاري ومسلم أن بعض الصحابة استفتى الرسول (ﷺ) في شأن العزل في هذه الغزوة، فقال لهم: ﴿مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَأَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّهُ﴾ .

الدلائل والعبر

نأخذ من هذه الغزوة العبر الآتية:

1- تقسيم الغنائم والأسلاب:

والسلب، وهو ما يكون من المقتول من سلاح ونحوه، فيجوز للقاتل أخذه، بدليل قوله (ﷺ): من قتل فسلبه له .

وأما الخمس، فتتحدد مصارحة على ضوء قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الأنفال/41 .

وأما الأخماس الأربعة، فتوزع على المقاتلين، كما كان يفعل رسول الله (ﷺ).

2- حكم العزل:

ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها .

والحديث بجواز العزل صريح، فقد أجاب الرسول (ﷺ) المسلمين حينما استفتوه قائلاً: ﴿مَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا مَا مِنْ نَسَمَةٍ كَأَنَّهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَهِيَ كَأَنَّهُ﴾ ... أي ليس عليكم أن تتركوا العزل، لأن ما قدر الله واقع لا ريب فيه، فلا

يمكن أن يتمتع المقدر بعملكم، وقد أكد هذا الحديث رواية الشيخين عن جابر أن قال: ((كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ)، والقرآن ينزل)).

وذهب جمهور الأئمة على جواز ممارسة ذلك شريطة موافقة الزوجة، وإن كان يكره فعله إذا كان سببه خشية الفقر¹.

3- سماحة الرسول ﷺ):

تدلنا معالجة الرسول للأكذوبة التي استغلها ابن سلول على مدى ما أتاه الله من حنكة وحلم في سياسة الأمور ومعالي المشاكل.

لقد كان ما سمعه الرسول ﷺ) من أراجيف في شرف زوجه ما يقلقل الجبال الراسيات، ولكنه واجه القضية بحلم يزن الجبال الشامخات.

لقد أمر الجيش بالسير من أجل أن يمتص الحدث بدلاً من تركه يفرق في اللجاج والقيل والقال.

لننظر إلى هذا التعليل العميق الذي قدمه لابن الخطاب ﷺ): فكيف غذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟

لقد ذهل من حسن صنع الرسول الله ﷺ) حينما قال: ﴿بَلْ نَتَرْفَقُ بِهِ، وَنَخْشَى صُحْبَتَهُ، مَا بَقِيَ مَعَنَا﴾.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص243.

وكم هو الفارق بين هذا المنطق، وبين منطق القوة الغاشمة المتمثل في قتل ابن سلول، وأمثاله من المنافقين، وعدم إفساح كل فرصة لهم لتمحيص الوجدان وتوطين النفس.

لقد كان من نتيجة هذه الحكمة البالغة والأناه العظيمة أن انقض الناس عن ابن سلول، وأخذوا يعنفونه ويفضحون أمره في كل مناسبة أراد بها أمراً سوءاً، لاسيما أن المنافق يعتبر مسلماً فيما يتعلق بظواهر الأمور، وضرورة معاملته على أساس ذلك.

ومن هنا يتضح «وأسوة بالرسول العظيم (ﷺ)» أنه لا يجوز الاستعجال بالحكم على الناس بالكفر، وإهدار دمائهم على أساس ذلك، إذ أن أولى الناس بالإدانة هو ابن سلول، ومع ذلك فلم يسمح الرسول (ﷺ) بأن تحديد أذى إليه، يحط من منزلته في التعامل الدنيوي.

غزوة الخندق

ما هي هذه الغزوة التي قلبت التحالف القرشي الضخم إلى هزيمة غير متوقعة، وكانت في الوقت نفسه منفرجاً أساساً نقلت المسلمين من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم.

1- الحدث:

جرت هذه الغزوة في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، وقد عرفت باسم غزوة الخندق، لأن الرسول (ﷺ) أحاط المدينة بخندق ليحول دون مهاجمة العدو لها .

وسميت أيضاً غزوة الأحزاب بسبب انضمام جماعات من القبائل العربية واليهودية إلى قريش .

وهذه الغزوة حلقة كبرى من سلسلة محاولات قريش للقضاء على هذا الدين الذي أخذ يتألق تحت شمس الجزيرة العربية .

ويخلص "البلاذري" السبب لهذه الغزوة بقوله: ((وكان سببها أن رسول الله (ﷺ)، كما أجلى بني النضير، أتوا خبير، فلما قدموها، خرج حُيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق اليهودي، وغيرهما، حتى أتوا مكة، فدعوا أبا سفيان بن حرب وقريشاً

إلى قتال المسلمين، وأعلموهم أنهم يذلهم فسّر أبو سفيان بذلك، وعاقدهم على ما دعوه إليه.

ثم أتت اليهود غطفان، فجعلوا لهم تمر خبير سنة على أن يعينوهم على حرب الرسول (ﷺ)، فأنعموا لهم بذلك، وأجابوهم إليه، وكان عينية بن حصن الفزاري أسرع القوم إلى إجابتهم، ثم أتوا بني سليم بن منصور، فسألوهم مثل ذلك، فأنجدوهم، وساروا في جميع العرب ممن حولهم، فنهضوا معهم¹.

وهكذا تألف تحالف يهودي قرشي يضم القبيلتين اليهوديتين اللتين كان الرسول (ﷺ) قد أجلاهما عن المدينة (بني قينقاع وبني النضير) وقريش، وبعض القبائل العربية الغربية عن الديانة كبنو غطفان، وبني سليم، وغيرهم.

وحين ضمنت قریش حلف هذه القبائل، خرجت بحلفائها من كنانة وثقيف، واجتمع إليها من كان اليهود أهاجوهم، وعاقدهم على حرب الرسول (ﷺ).

وبلغ الرسول (ﷺ) خبر ذلك، ((فندب المسلمين إلى قتال الأحزاب، وخرج، فارتاد لمعسكر المسلمين موضعاً، وأشار عليه سليمان الفارسي بالخذق، ولم تكن العرب بخذق عليها، تجعل سلماً (جبل في شمال المدينة) وراء ظهره، وأمر بحفر الخندق أمامه وجعل المسلمون يتحاربون في عسكرهم²)).

نزل القرشيون وحلفاءهم شمال المدينة في مكان اسمه "مجمع الأسيال"، وجهد أبو سفيان في استمالة بني قريظة، واستعان بذلك على حبي بن أخطب، فنزل هذا

¹ - أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: جمل من أنساب الأشراف، ج1، ص343.

² - المرجع السابق، ج1، ص343.

على كعب بن أسد سيد بني قريظة، واستطاع إقناعه بالعدول، وبذلك نقض بنو قريظة حلفهم¹.

وأرسل الرسول (ﷺ) سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج للتأكد من ذلك، ووقع الذعر بادئ ذي بدء في صفوف المسلمين بعد اطلاعهم على الحقيقة، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿10﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الأحزاب/10-11.

وخشي المسلمون من إغارة بني قريظة عليهم ليلاً، فعهد إلى المسلمين بحراسة المدينة، وجاءته الأخبار بصدق ما توقع²، وذعر الأحزاب، وذهلوا من منظر الخندق، وأخذوا يطوفون حوله دون جدوى في تجاوزه، وحاول أبو سفيان أن يستشير الرسول (ﷺ)، وأخذ يعيره بهذا الاعتصام، ويذكره بيوم أحد، فرد الرسول (ﷺ) معلناً أن الغلبة ستكون له وللمسلمين³. لم تجر حرب حاسمة بين الطرفين، بل اقتصر الأمر على مبارزات فردية بين الطرفين.

واستعان الرسول (ﷺ) بالحيلة لفك الحصار، لاسيما أنه كان لهذا الحصار تأثيره على المسلمين، لهذا فقد عهد إلى نعيم بن مسعود الغطفاني ببذر الشقاق بين الأحزاب، وكان الله قد هدي نعيم، حيث جاء سراً إلى الرسول (ﷺ) في ليلة من

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص67.

² - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم و عصر الرسول سلسلة تاريخ العرب و الإسلام، ص492.

³ - انظر نص هذه المراسلات في أنساب الأشراف، للبلاذري، ج1، ص344.

الليالي معلناً إسلامه طالباً من الرسول (ﷺ) تكليفه بما يريد: فقال له الرسول (ﷺ): «إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذَلْنَا عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّمَا الْحَرْبُ خَدَعَةٌ»¹، وتوجه نعيم «المعروف بدهائه» إلى أصدقائه بني قريظة، وقال لهم: ((إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدر أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم وبغيره، فليسوا كأنتم، فإن أو انتهزه «انتهاز الشيء واختلاسه» أصابوهم، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل، ببلدكم، ولا طاقة لكم به أن خلا بكم))².

ويسألوه الرأي، فأشار إليهم عدم المقاتلة مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهائن من أشرفهم، فقبلوا رأيه³، وجاء نعيم أيضاً إلى أبي سفيان، وقال له: ((إن قريظة خانتة، وعادت إلى حلف محمد، وأنها ستسلمه سبعين رجلاً من أشرف قريش وغطفان ليضرب أعناقهم على أن يعيد بني النضير إلى ديارهم، واقتنعت قريش بهذا الرأي اللعبة، ثم ذهب نعيم إلى غطفان، ولعب نفس الدور الذي لعبه مع قريش))⁴.

¹ - سيرة ابن هشام، القسم الثاني، ص 229.

² - المرجع السابق، ص 229.

³ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم...، ص 494.

⁴ - سيرة ابن هشام، القسم الثاني، ص 230.

وأرسل الأحزاب عكرمة بن أبي جهل على رأس نفر من قريش إلى بني قريظة طالبين إليهم الخروج غداً لمحاربة محمد، فأجابوهم بأن غداً يوم سبت، وأنهم لن يقاتلوا محمداً دون رهائن من قريش وغطفان، إذا تركت قريظة منفردة¹. وأعادت قريش الكرة إن بواسطة حُيي بن أخطب، وعبثاً كانت تلك المحاولة، وأصررت قريظة على الرهائن.

وتتوج الأمور بريح شديدة أرسلها الله على الأحزاب في ليلة قاسية من أيام الشتاء، وأخذ الناس يدب في صفوف المشركين، ورحل أبو سفيان مذموماً مدحوراً، وتبعته غطفان فجر أثواب الخذلان.

ويذكر "البلاذري" أن الرسول (ﷺ) حاول أن يستميل عينية بن حصن مقابل ثلث تمر المدينة، ولكن هذا ساوم على النصف وإن كان المسلمون رفضوا إعطاءه إلا السيف².

ولعل هذا الحوار مع عينية وكان من الأسباب التي بذرت بذور الشك في صفوف المشركين وتصديق صفهم، وانصرافهم عن المدينة³، ويبقى السؤال مطروحاً وهو، لماذا انتصر المسلمون وعدوهم حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، في حين أن عدد الأحزاب ضم العشرة آلاف مقاتل؟.

¹ - سيرة ابن هشام، القسم الثاني، ص 231.

² - أنساب الأشراف، ج 1، ص 346.

³ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم...، ص 495.

الدلائل والعبر

بإلقاء نظرة فاحصة على وقائع وأحداث هذه المعركة يتضح لنا ما يلي:

1- الاستراتيجية الحربية:

يرى الدكتور "نبيه عاقل" أن الاستراتيجية الحربية والعمل الدبلوماسي «وليس القتال» هما العنصر الحاسم، في هذه المعركة، وإن استراتيجية الرسول (ﷺ) هي التي كانت متفوقة على الخصم، ومظهر ذلك، حفر الخندق ثم طلائعه التي كانت تزوده بالأخبار والتحركات¹.

ويضاف إلى ذلك، فقد كان لوحدة الصف الإسلامي، وانضباط المسلمين، وهذه العوامل تتطوي في حد ذاتها على عنصر موضوعي والأمر على خلافه بالنسبة للدكتور البوطي، فهو يتساءل عن وسيلة انتصار المسلمين في هذه المعركة، فيجيب: أنها وسيلة التضرع إلى الله، والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم الذي ظل يفزع إليه رسول الله (ﷺ)، كلما لقي عدواً، أو سار إلى جهاد، وهي الوسيلة التي تعلق في تأثيرها على كل الأسباب والتهديدات الأخرى، وهي الوسيلة التي لا تصلح حال المسلمين إلا إذا قامت على أساسها بعناية كاملة².

¹ - د. نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم...، ص496، ومن هذا الرأي، د. حسن إبراهيم حسن:

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، مكتبة النهضة العربية، 1964.

² - كتابه فقه السيرة النبوية، ص260.

ويتابع الدكتور البوطي مبرزاً هذا الدور للفاعل الروحي، فيتساءل: كيف انهزم المشركون على كثرتهم¹، أما الجواب عنده، فهو وصف الله في كتابه المبين إذ قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿9﴾﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾
الأحزاب/9-10.

ويتساءل الدكتور البوطي مرة ثانية قائلاً: ((والا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة تعصف بمعسكر المشركين وحدهم، دون أن يشعر بها المسلمون إلى جانبهم؟)) هي هناك تقلب قدورهم، وتطير خيامهم، وتقلع أوتادها، وتزلزل أفئدتهم بالرعب، وهي هنا ريح باردة رخاء، تنعش ولا تؤذي أحداً².

وينتهي الدكتور البوطي في تقييمه لهذه المعركة قائلاً: ((ليس يعني اغرار المسلمين بالمغامرة والجهاد دون استعداد، ولا تأهب، وإنما هو لإيضاح أن على المسلم أن يعلم أن في مقدمة أسباب النصر المختلفة صدق الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له، فلن تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها، وإذا تحققت في أعمال المسلمين هذه الوسيلة، فحدث عن معجزات النصر ولا حرج))³.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص261.

² - المرجع السابق، ص261.

³ - المرجع السابق، ص261.

وحقيقة الأمر أنه لا يجوز إلغاء الفعل الإلهي في التاريخ، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بالرسالة والرسول (ﷺ)، وبالمقابل يجب الحذر من تعميم هذا الفعل على حساب النواميس الطبيعية والقوانين الموضوعية التي هي بحد ذاتها أفعال إلهية، والقول يغير ذلك يعني إلغاء الفعل البشري، وفي النهاية إنهاء على التاريخ. ومن جهة أخرى، فالخطر كل الخطر على النهج الإسلامي تفكيك منظومته القيمة إلى عناصر موضوعية، وأخرى ذاتية روحية، بل الصحيح القول أن هذه العناصر هي مظاهر لحقيقة واحدة جوهرية هي الإسلام.

2- قيادة الرسول (ﷺ):

روى البخاري عن البراء أنه قال: ((لما كان يوم الأحزاب، وخذق رسول الله رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وادي عني التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، وروى عن أنس أن الأنصار والمهاجرين كانوا يرتجزون، وهم يحضرون الخندق، وينقلون التراب على متونهم:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً، فيجيبهم الرسول قائلاً:

اللهم أنه لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة¹

وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن جابر أنه قال: أنا يوم الخندق تحضر، فعرضت كدية شديدة، فجأؤوا النبي، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام، وبطنه معصوب بحجر، ولبتنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي (ﷺ) المعول، فضرب، فعاد كتيبا أهيل)).

¹ - صحيح البخاري، 5-46، وروى مسلم عن البراء نحوه بألفاظ قريبة: 6-187.

وروى ابن هشام أنه أبطأ عن الرسول (ﷺ) رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، وينسلون إلى أهلهم بغير علم الرسول (ﷺ)، وكان الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له فيها يستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له: فإذا قضي حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ انور/62.

ويتضح من الروايات السابقة، أن الرسول (ﷺ) لم يندب المسلمين إلى حضر الخندق، ثم ذهب يراقبهم، في قصر منيف مستريحاً هادئاً، ولا أقبل إليهم في احتفال صاحب رنان ليمسك معول أحدهم بأطراف أصابعه، فيضرب به ضربة واحدة في الأرض إيذاناً عن حلته ما قد علق بها من ذرات غبار، وكما يفعل الملوك والرؤساء في أيامنا هذه.

لقد انخرط الرسول (ﷺ) في العمل كأي مؤمن، حتى لبس ثوباً من الأتربة والغبار على جسمه، بحيث لا يمكن تمييزه من أحد من صحبه وإخوانه يرتجزون لينشط بعضهم بعضاً، فيرتجز معهم، ثم يتعبون ويجوعون، فيكون أولهم تعباً وجوعاً.

لقد بلغ الأمر في الرسول (ﷺ) أنه شد الحجر على بطنه، يتقي ذلك ما يجده الجائع من ألم الفراغ في معدته؟.

ترى ما الذي يمكن أن يحمله على معاناة هذه المشقة والجهد، أو التطلع إلى الزعامة؟.. أم هي الرغبة في المال والملك لاشك أن الذي حمله على تحمل كل ذلك، هي مسؤولية الرسالة والأمانة التي كلف بتبليغها والسير بها إلى الناس.. وأما

ما يبدو خلال ذلك من محبته الشديدة لأصحابه والشفقة عليهم، فإنك لتجده واضحاً في موقفه (ﷺ) من دعوة (جابر) له إلى طعامه القليل الذي أعده له .

لقد كان الذي رد (جابر) إلى دعوة الرسول (ﷺ)، ما اكتشفه من شدة جوعه عليه الصلاة والسلام، حينما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف، ولم يكن في بيته من الطعام إلا ما يكفي بضعه أشخاص، فاضطر إلى أن يجعل الدعوة على قدر الطعام ولكن كيف يتصور أن يترك النبي (ﷺ) أصحابه في غمرة العمل، وهم يتضورون مثله جوعاً، لينفرد عنهم مع ثلاثة أو أربعة من أصحابه يستريحون، ويأكلون، وإنه لأشفق على أصحابه من شفقة الأم على أولادها .

لقد أطلق "مورينو" وأتباعه اسم التلفاز على الجاذبية التي تمارسها شخصية بعض الناس على الآخرين، ذلك أن باقي أعضاء الجماعة يبثون على بشاشة هؤلاء الزعماء ما في نفوسهم من آمال ومشاعر¹ .

ووصف "جورج بوردو" الزعيم بقوله: ((إذا كنت أقبل أن أرى فيه رجلاً انحنى أمامه وأقبل توجيهاته براض واحترام، فذلك لأنني استشف عبره تطور مشروع بهمه، كما يهمني يتجاوزه كما يتجاوزني))² .

هل نصف الرسول (ﷺ) بالمقياس الذي وضعه مورينو للكارزما "القيادة المتوهجة المشعة" ، أم بالمقياس الذي وضعه بوردو للزعيم باعتباره فكرة ومشروعاً .

¹ -جان لايبار: السلطة السياسية، ترجمة إلياس حنا إلياس، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1983، ص37.

² -جورج بوردو: الدولة، ترجمة سليم حداد، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1985، ص22.

سيدي يا رسول الله إن هذه المقاييس كلها، ومثلها معها وما يقومها جوهرًا وماهية، إنها النبوة.. وليس هنالك مدار مهما بلغ يستطع وصفك، كما وصفك الرفيق الأعلى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة/128.

فهل هنالك من حاجة للتزيد من أجل إيضاح أسباب النظر في هذه المعركة.

3- مغزى حفر الخندق:

جاء في رواية "البلاذري": ((أن سلمان الفارسي، هو الذي أشار إلى الرسول ﷺ)) بالخندق، ولم يكن العرب تتخذون الخندق)).

ويتضح من هذه الرواية أن العرب لم يكونوا ليجروا على عادة التخندق، وهذا أمر طبيعي بسبب قلة المجرى لديهم، وحدوث حروبهم في الصحراء.

لقد استغل بعضهم هذه الرواية، وحرفوها ليدينوا العقل العربي بعدم قدرته على إدراك هذه المفهومية.

وبالطبع، فهذا أمر غير مقبول بدلالة أن الرسول ﷺ استعمل المنجنيق في حصار الطائف¹، وبدليل أن هذه المدينة كانت محاطة بسور عظيم، وبدليل أن مدينة اليمن عرفت السدود، وشقت الطرق، ونقبت الجبال، ورصفت الشوارع بالأسفلت، وغير ذلك من مظاهر المدينة.

¹ -سيرة ابن هشام، ج3 و4، منشورات دار الخلود، بيروت، ص483.

ومع ذلك، فهناك مغزى عميق وراء حذر هذا الخندق، هذا المغزى هو أن الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيثما يجدها، والقاعدة الإسلامية، هي أن لا يعطل المسلم عقله، وتفكيره الدقيق في سلوكه وشؤونه وأحواله.

والمسلم لا يمكن أن يربط في عنقه زمناً يسلم طرفه للآخرين، فيقوده، حيثما أرادوا دون وعي أو بصيرة، وبالمقابل فهو لا يمكن أن يتجاهل أي مبدأ وليد العقل النير والفكر الحر المبين.

4- الحكمة من استشارة الأنصار والقيمة التشريعية فيها:

تجمع الموارد العربية أن الرسول (ﷺ) لما رأى البلاء اشتد على المسلمين في الغزوة بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فاستشارهما في أن يصلح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، فقالا له: ((يا رسول الله، أهو أمر تحبه فتصنعه، أم شيء أمرك به الله، أم شيء تصنعه لنا؟)) قال: بل شيء أصنعه لكم كي أكرس عنكم من شوكتهم، وحينئذ قال له سعد بن معاذ: والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا يعطيهم إلا السيف، حتى يحكم بيننا وبينهم، فتهلك وجه الرسول (ﷺ)، وقال له: فأنت وذاك)).

قال ابن اسحاق يروي عن عاصم بن عمرو، وعن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح إلا المفاوضة في ذلك¹.

فالتاب إذاً أن الرسول (ﷺ) لم يبرم المعاهدة مع غطفان، بل يعني الأمر في حدود المساومة (المفاوضة) التي تسبق القبول، والتاب أيضاً من الأدب النبوي أن الرسول (ﷺ) ما كان يحب أن يسوق أصحابه إلى حرب أو مغامرة، لا يجدون في أنفسهم

¹ -سيرة ابن هشام: 223/2، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، 573/2.

شجاعة كافية لخوضها، أو لا يؤمنون بجدواها، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية، فمن أجل ذلك، عرض على أصحابه هذا الرأي، وأنبأهم أنه ليس من الله، وإنما هو شيء بيديه لهم، كي يكسر عنهم شوكة المشركين... إذا فالمسألة مسألة الشورى..

فما هي دلالة هذه الشورى، وما قيمتها وقوتها التشريعية لا مجال للقول بأن الشورى في الإسلام أصل عام من أصول الحكم فيما لا يتعارض مع نص وهذا لا خلاف فيه، إنما المهم في موضوعنا ما طرحته أحداث الخندق من وقائع متصلة بالشورى لجهة أخذ رأي الأنصار ليس إلا.

نجد تأصيلاً علمياً لهذه المسألة في دراسة موسومة بعنوان الشورى والديمقراطية، إذ نجد الكاتب يفرد بحثاً تحت عنوان "القرار من اختصاص من تقع عليه تبعيته" يقول في هذا البحث¹: ((بعد ما اتفق الرسول (ﷺ) مع غطفان على عقد معاهدة تخرج بموجبها من صفوف الأحزاب، وتأخذ مقابل ذلك ثلث ثمار المدينة، وبعد كتابه العقد، وقبل التوقيع النهائي عليه استدعى الرسول (ﷺ) زعيم أهل المدينة، سعد بن معاذ وسعد بن عباد ليستشيرهما في الأمر)).

ولم تذكر كتب التاريخ حضور أحد من المسلمين غيرهما، كما لم يذكر استشارة أحد من الأنصار يوم اقتضت الشورى على المهاجرين، ووقع الرسول (ﷺ) الصلح مع قريش، وهذا الذي عرف بصلح الحديبية، وقد ترك الرسول (ﷺ) الأمر بكامله لممثلي المدينة اللذين سألاه قائلين: ((يا رسول الله، أمر أتعبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به

¹ - علي محمد الأغا: الشورى والديمقراطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1983، ص27 وما بعدها.

لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: شيء أصنعه لكم، والله ما اصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قدر منكم عن قوس واحدة، وطالوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم، القرار إذا من حق من يتحمل تبعته، فالأرض والثمار ملكاً لأهل المدينة، مما يجعل ذلك الصلح على حساب فئة معينة. وبالفعل، فقد رفضنا الاتفاقية، وأعلن سعد بن معاذ أنه لم يسبق لأهل المدينة قبل الإسلام أن قبلوا مثل ذلك، وأن شيئاً بالنسبة لهم لم يتغير، وإن ليس لغطفان إلا للسيف)).

واستجاب لرفضهما المعاهدة، وعندما سأله سعد بن معاذ عن أمر الكتاب الذي كيف، لم يوقع بعد، وسلوك الرسول (ﷺ) هذا اثبت أيضاً أنه لن يعتبر العقد قائماً إلا بموافقة أصحاب القضية أهل المدينة، ثم سلمه الرسول (ﷺ) الكتاب، وأعطاه حرية التصرف به، وكان قرار سعد إن محا كل ما فيه: قال رسول الله: ((فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا))، ويتابع الأستاذ "الآغا" قوله:

((المجلس منعقد، وبحضور الخصمين، والرسول (ﷺ) يسعى لأن يؤمن كل الناس برسالته، ثم يرفض أهل المدينة الاتفاق بعد ما كتب.. وفوق ذلك كله يأخذ سعد بن معاذ الصحيفة، ويمحو ما فيها، ويتحدى، ولسانه هو نيابة عن أهل المدينة غطفان ومن معها... كل ذلك على مرأى ومسمع من الرسول (ﷺ)، وبحضور وفد غطفان، ولا تبرك ذلك أي اثر على وجه السواء)).

ويتابع الأستاذ "الآغا" ضارباً الأمثلة على هذا الضرب من الشورى: ((فيما يتعلق بنزول الرسول (ﷺ) عند طلب قبيلة الأوس التي كانت تربطها معاهدة سابقة مع

بني قريظة، كما نزل عند طلب الخزرج من قبل حينما طلبوا أن يمكنهم الرسول (ﷺ) من أن بلغوا بمعاهدتهم السابقة مع بني قينقاع)).

ونحن بدورنا نقر هذا الرأي إنما نقيده بقيد سلبي هو ألا يتعارض مع إرادة الأمة ممثلة بالسلطة العليا في الدولة، والقول بغير ذلك يسمح بصدور قرارات هامة من قبل فئة معينة تتعارض مع مصلحة الدولة.

وفي مثالنا المطروح هذا فالأنصار رفضت أمراً تنعكس جرائره عليهم كل ذلك في إطار عدم اعتراض الرسول (ﷺ) على ذلك بصفته ممثل الدولة، وكما يحدث في أعراف القانون العام (الإداري والدستوري)، فهذان العرفان ينشأن من إطراد السلوك في مسألة معينة من قبل من يعنيه الأمر وبموافقة السلطات المختصة إدارية، أم دستورية.

غزوة بني قريظة

عاد الرسول (ﷺ) من جبل سلع بعد رحيل قريش، ووصل إلى المدينة ظهراً، فدخل بيت عائشة، ثم خرج، وأمر بلالاً أن يؤذن في الناس، من كان سميعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، فتلاحق المسلمون، وخرج علي بالراية، وكانت على حالها لم تطو بعد، ولا غرو، فقد أحفظ قلوب المسلمين، وملاها حقداً علي بني قريظة نقضهم العهد وممالأة الأعداء عليهم.

فلما رأى بنو قريظة المسلمين خارت قواهم، وأيقنوا بالهلاك، فتبرؤا مما ارتكبهوه، وسألوا الرسول (ﷺ) العفو، فأبى عليهم وشدوا الحصار خمسة وعشرين يوماً، حتى نزلوا على حكمه، وسألوا حلفاءهم الأوس أن بنو سطوا في إطلاقهم، كما توسط الخزرج في إطلاق حلفاءهم من بني قينقاع، فتواثبت الأوس، وقالوا: ((يا رسول الله أنهم كانوا موالينا، فقال الرسول (ﷺ): ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم رجل فيكم؟)) قالوا: بلى، قال: فذاك إلى سعد بن معاذ¹.

فلما جيء بسعد، قاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمر، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين، إن الحكم فيهم

¹ - روى ابن هشام/ج3، ص257-258/أن علي بن أبي طالب صاح، وهم على حصار بني قريظة، يا كتيبة الإيمان، وتقدم هو والزبير بن العوام، وقال: والله لأذوقن ما ذاق حمزة، أو لأفتحن حصنهم، فقالوا: يا محمد: تنزل على حكم سعد بن معاذ.

لمن حكم، فأجابوه، وإجابة الرسول (ﷺ): أن نعم... قال سعد: فأني أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء، فقال له الرسول (ﷺ): لقد حكمت فيهم بحكم الله، ثم حضرت لهم الخنادق، وضربت أعناقهم جميعاً، وكانوا نحو سبعمائة، ولم يتقل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى "بناته" زوجة الحكم القرظي، لقتلها خلود بن سويد يرجى طرحها عليه، فمات)).

وكان في جملة من سيق إلى القتل حُيي بن أخطب الذي كان قد سعى، وحث بني قريظة على الغدر، ونقض العهد.

روى ابن اسحق أنه جيء به إلى الرسول (ﷺ)، ويدها مجموعتان إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى الرسوب، قال: ((أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم جلس فضربت عنقه))، روى ابن هشام¹ إن كعب بن أسد، قال لليهود، لما رأى أن الرسول (ﷺ) غير منصرف عنهم: ((يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وأني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا بها إن شئتم، قالوا: ما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل، ونصدقته، فوالله لقد تبين لكم أنه لئبي، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وابنائكم ونساءكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، قال: فهلهم، فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه، قالوا: فما ذنب المساكين؟ قال: فإن أبيتم هذه أيضاً، فإن الليلة السبت، وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا تصب منهم عزة، فأبوا ذلك أيضاً، وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعدى القرظي، فمر بحرس الرسول (ﷺ)، وعليه

¹ -سيرة ابن هشام: ج3 و4، منشورات دار الخلود، ص235.

محمد بن مسلمة، فلما رآه، قال: من هذا؟.. قال: أنا عمرو بن سعدى، وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم بالرسول (ﷺ)، وقال: لا اغدر بمحمد، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمي إقالة عشرات الكرام، ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه، حتى أتى باب مسجد الرسول (ﷺ)، ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض، فذكر الرسول (ﷺ) شأنه، فقال ذلك رجل نجاه الله بوفائه¹، قال ابن هشام: ((حدثني بعض من أتق به من أهل العلم أن علي بن أبي طالب صاح، وهم محاصرون بني قريظة لأذوقن ما ذاق حمزة، ولأفتحن حصنهم، فقالوا: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ)).

وقال ابن اسحق: حدثني شعبة بن الحجاج عن عبد الله بن عمير عن عطية القرظي، قال: كان الرسول (ﷺ) قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم، وكنت غلاماً، فوجدني لم أنبت فخلوا سبيلي².

¹ -سيرة ابن هشام، ج 3 و4، ص 238.

² - المرجع السابق، ج 3 و4، ص 244.

الدلائل والعبر

لعل ما يتبوأ مركز الصدارة في أي حديث يتعلق بهذا الموضوع سؤال طرحه، وهو: هل أن عقوبة بني قريظة اتسمت بالقسوة؟¹

قبل الإجابة عن ذلك لابد من إلقاء نظرة على الماضي، وبالذات إلى إجلاء بني قينقاع وبني النضير، حين يتضح أن هذا الإجلال لا يرقى إلى مستوى ما حل بني قريظة، وهذا أن دل على شيء، فإنما يؤكد أن المسألة ليست مسألة دينية بقدر ما هي سياسية الطبيعة والجوهر، وهذا ما أكده عمارة مشيراً إلى نقضهم دستور المدينة الذي نص على وقوفهم مع المسلمين ضد قريش في الحرب والسلام، فإذا بهم يتحالفون مع هؤلاء المشركين، وينقضون العهد الذي أبرموه¹.

ويمكننا أن نتصور فداحة فعلة هؤلاء من خلال هذا التصور الرائع لقوله تعالى: ﴿وَأِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الأحزاب/10، لقد كان الزلزال الذي أصاب المسلمين عنيفاً، حتى أوشك أن يقتلعهم من جذورهم، لولا العناية الإلهية، وقو شكيمتهم وعنادهم في سبيل الحق.

أجل كم كان الفعل الذي ارتكبه هؤلاء خسيساً وجسيماً وفاحشاً وفاضحاً، وفوق ما يتصوره العقل.

¹ - د. محمد عمارة: مقال موسوم بعنوان: محمد وأول دستور للدولة الإسلامية، منشور في كتاب محمد نظرة عصرية جديدة لمجموعة من الكتاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1972، ص101.

المسلمون يضعون حساباتهم، فيأتمتون هؤلاء، وإذا بهم ينقضون عليهم في أهلك الظروف وأقساها، فكيف إذاً يمكن للمسلمين أن يطمئنا للحياة في المدينة، وهؤلاء بين ظهرانيهم، لاسيما أن المسلمين مدركون أنهم سيواجهون ليالي حالكات..

لقد كانت الفرصة متاحة لهم للدخول في الإسلام، ولكنهم رفضوا اقتراح كعب بن أسد بذلك، وها هو عمرو بن سعدى القرظي يخرج من صفوفهم في أهلك الظروف، وينخرط في صفوف المسلمين، فيجده مشرع الأبواب، وقد تبعه شخصان آخران، حيث أمنهم الرسول على أنفسهم وأهليهم وأموالهم¹.

لقد كان قرار التحكيم قرارهم، وتعبيراً عن إرادتهم، وهم ملزمون بالنزول على حكم ما ارتضوه، وقتلوا به، فضلاً عن أنهم اعتمدوا التحكيم بعد أن استفرغوا جهدهم في محاربة الرسول (ﷺ)، وأسقط في غيديهم، وبعد أن حوصروا حصاراً شديداً من قبل المسلمين، وكان في وسع هؤلاء أن يرفضوا التحكيم إذا أخذنا بالمنطق الصدق للقوة.

لقد كان ذلك جزءاً طبيعياً تقره الأديان كلها، وتقره قوانين الحرب قديمها وحديثها، ويقره منطق الحق والعدل والمروءة، والجزاء هو من نوع العمل، لأن بني قريظة صمموا على إبادة المسلمين.

والحق «كما يقول المؤرخ "درفتن"» أنه كان من الصعب ألا يصفي المسلمون حسابهم مع بني قريظة الذين خانوا، وانحازوا إلى العدو²، يقول المؤرخ "بودلي": ((والحقيقة، لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمداً ما فعل شيئاً أكثر أو أقل من تنفيذ

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص439.

² -المرجع السابق، ص435.

التعليمات التي وضعها قومهم في الاصحاح العشرين من تشية سفر الاشتراع: حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعتها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وإن لم تسالملك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، والنساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة، فتغتمها لنفسك))¹.

ويقول الدكتور "هيكل": ((وفي رأينا أن دم بني قريظة معلق في عنق حيي بن أخطب، فقد حنث بالعهد، وألب قريشاً وغطفان، وحزب العرب كلها لقتال محمد (ﷺ)، وقد جسم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد (ﷺ) وأصحابه، وهو الذي حمل بني قريظة على نقض عهدها والخروج من حيادها، والحكم الذي أصدره سعد بن معاذ «على قسوته وشدته» إنما كان متأثراً فيه بالدفاع عن النفس، واعتباره اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين))².

وهناك دلائل وعبر أخرى نستخلصها من أحداث هذه الغزوة، وهي:

1- جواز قتال من نقض العهد :

وقد جعل الإمام مسلم هذا الحكم عنواناً لغزوة بني قريظة، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم كل ذلك ينبغي احترامه والالتزام به، مالم ينقض الآخرون العهد أو الصلح، وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم أن رأوا المصلحة في ذلك،

¹ - المرجع السابق، ص441.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص441.

ويكون النقض بمخالفة شروط الصلح من الجميع، أو من فئة ولو قليلة مع سكوت الباقين.

2- جواز التحكيم:

قال النووي: يجوز للإمام تحكيم شخص بر صالح في أمور المسلمين، وفي مهامهم العظام، والرجوع في ذلك إلى حكم مسلم عادل صالح للحكم، وقد أجمع العلماء عليه في شأن الخوارج فإنهم أنكروا على "علي" التحكيم، وأقام الحجة عليهم، وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصن على حكم حاكم مسلم عدل صالح للحكم أمين على هذا الأمر، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين، وإذا حكم بشيء لزم حكمه، ولا يجوز للإمام، ولا لهم الرجوع، وله ولهم الرجوع قبل الحكم¹.

3- مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها:

وفي اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله (ﷺ) ﴿أَلَا لَأُصَلِّينَ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ﴾، على النحو الذي روينا مع عدم تعنيف النبي (ﷺ) أحداً منهم أو معاتبته دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً، سواء قلنا أن المصيب واحداً ومتعدد، كما أن فيه تقرير لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تتبع من دلالات ظنية، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم، فالله سبحانه وتعالى تعبد عبادة بنوعين من التكليف:

¹ - النووي على مسلم، 92/12.

أحدهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو كليات السلوك وإنما وردت النصوص الدالة عليها قطعية الدلالة والثبوت، بحيث لا تستدعي اجتهاداً في فهمها ولا في قوة ثبوتها .

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة، فليس المطلوب ممن أدركته الصلاة في بادية التبست عليه جهة القبلة فيها، إلا أن يبذل له من أدلة، حتى إذا سكنت نفسه إلى جهة ما استقبلها، فصلى إليها .

ثم إن هنالك حكماً باهرة لمجيء كثير من الأدلة والنصوص الشرعية ظنية الدلالة غير قطعية، من أبرزها، أن تكون الاجتهادات المختلفة في مسألة ما، وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعاً حتى يكون للمسلمين متسع في الأخذ بأيها شاءوا حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده في كل عصر وزمن .

وإذا تأملت هذا، علمت أن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما، مادام دليلها ظنياً محتملاً؟ لو أمكن ذلك أن يتم في عصر ما، لكان أولى العصور به عصر الرسول (ﷺ)، ولكن أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت؟! .

4- تأكد اليهود من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد (ﷺ) وعلى إطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه ومن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيداً لعصبتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الإيمان والفهم، فلن تجد من عاقل سمع باسم الإسلام وألم بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفراً عقلياً، إنما هو أحد شيئين: إما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته وإنما قيل له عنه كلام زائف باطل، وإما أنه وقف على حقيقته، وأطلع على جوهره، فهو يأباه إباء نفسياً لحقد على المسلمين أو غرض أو هوى أو عصبية فصدته عن إتباع الحق.

5- معاملة الرسول (ﷺ) للأسرى:

على الرغم من أن بني قريظة استهدفوا إبادة المسلمين واقتلاعهم من الجذور، إلا أن الرسول (ﷺ) ما كان له إلا أن يطبق قواعد الحرب بما يترتب على ذلك من نتائج، من ذلك الرفق بالأسرى.

فقد رأى أسيراً منهم جاء به حارسه، وقد ضربه على وجهه، فأرعى أنفه، فقال له الرسول (ﷺ): لَمْ صَنَعْتَ بِهِ هَذَا؟، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَحْسِنُوا أَسَارَهُمْ وَقِيلُوهُمْ وَأَسْقُوهُمْ، لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السَّلَاحِ﴾¹.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 440.

لقد قسّم الرسول (ﷺ) أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين تبعاً للنصوص القرآنية، ولكنه في الوقت نفسه نهى (ﷺ) أن يفرق في القسّم والبيع بين النساء والذرية، وقال: ﴿لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدِهَا حَتَّى يَبْلُغُوا﴾¹.

آثار ونتائج غزوة بني قريظة

لقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في المدينة، وهكذا فقد فقد المنافقون فيها أنصارهم، فخفت أصواتهم، وانكسرت شوكتهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، ومكن الله للمسلمين في المدينة، وأخذت الدعوة الإسلامية تتسم بطابع جديد، هو طابع القوة والغنى والاعتزاز، حيث غنم المسلمون كل ما كان في ديار بني قريظة من سلاح وأثاث ومتاع، وورثوا أرضهم وديارهم.

قال سبحانه وتعالى مصوراً ذلك: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾²⁶ ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْنُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ الأحزاب/26-27.

((قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك؟.. قالوا: نعم ثم عرضوا عليه أن يترك ما عزم عليه من الحرب، وأن يقدم على الرسول (ﷺ) ليحالفه، ويوليه على خبير، فاستجاب لذلك أول الأمر، وخرج مع المسلمين قاصداً الرسول (ﷺ)، فلما قطع مرحلة من الطريق، ندم على خروجه، وهم بالقدر بمن أمنهم وأمنوه، وأهوى إلى سيف عبد الله بن رواحة يريد أن ينتزعه ليقبله، لكن عبد الله ضربه بالسيف

¹ - المرجع السابق، ص440.

ضربة أطاحت فخذة، ثم لم يلبث أن هلك، ومال المسلمون على من كان معه، فقتلوه¹.

ولما قام سلام بن مشكم زعيماً على يهود خيبر بعد أسير بن زرام، كان رأيه محاربة المسلمين.

ولما تم الصلح بين الرسول (ﷺ) وقريش في الحديبية، ينس اليهود من معاونة العرب، اقترح سلام بن مشكم على قومه ضرورة التحالف مع يهود وادي القرى وتيماء، ثم الزحف على يثرب دون الاعتماد على البطون العربية².

وقد علم الرسول (ﷺ) بذلك، فأخذ يتهياً لقتالهم ومفاجأتهم، ولكن عبد الله بن أبي، أرسل إلى يهود خيبر يخبرهم بالأمر، فكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل، متسلحين مستعدين، ثم دخلوا أموالهم وعيالهم في حصون "الكتيبة"، وجمعوا المقاتلة في حصون النطا³.

وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً وأوفرها مالاً، وأكثرها سلاحاً، ولكن اليهود «كعادتهم» يخشون الحرب في الميدان، ولا يحاربون إلا، وهم في الحصون، قال تعالى مؤكداً ذلك: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ الحشر/14.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 477.

² - المرجع السابق، ص 477.

³ - المرجع السابق، ص 477.

وعرف الرسول (ﷺ) فيهم هذه الطبيعة، فوضع خطته على أساسها، حين صار إليهم ليغزوهم في عقر دارهم.

وتقع خيبر من المدينة على بعد مائة ميل إلى الشمال، وكانت واحة خصبة كبيرة.. ذات حصون ومزارع ونخل كثير، وكانت لمنعة حصونها وطبيعة أرضها لا يظن اليهود أن الرسول (ﷺ) يستطيع أن يغزوها¹.

وخرج الرسول (ﷺ) إلى خيبر في شهر محرم من السابعة في ألف وستمائة من أصحابه إضافة إلى بعض الأعراب، ولما بلغها نزل منها في واد يقال له الرجيع بين خيبر وغطفان، ليحول بين غطفان وبين أن يمدوا أهل خيبر.

ونزل الرسول قريباً من حصون النطاة، فقال له الحباب بن المنذر: ((أن أهل النطاة ليس قوم أبعد مدى منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط رميهم، ولا تأمن من بياتهم، يدخلون في حمر النخل، فتحول يا رسول الله، فقال الرسول (ﷺ): أشرت بالرأي، وتحول إلى مكان بعيد عن مدى النيل فعسكر به))²، واستيقظ أهل خيبر على صباح مرعب، فإذا هم قد أحيط بهم من كل جانب، وليس لهم إلا أن يسلموا، أو يقاتلوا إلى آخر رجل منهم، وأخذت عليهم المفاجأة، كل طريق للهجوم، فلجأوا إلى الحصون معتصمين بها: ﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الحشر/2.

وكان الرسول (ﷺ) يعلم طبائع اليهود في حب المال، فرأى أن يرهبهم بإتلاف بعض أموالهم لعلهم يسلمون إليه دون قتال، فأمر بقطع نخيلهم، فأخذ المسلمون

¹ - المرجع السابق، ص 479.

² - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 479.

يقطعونها حتى قطعوا نحو أربعمائة نخلة، فلما رأى تصميمهم على الحرب نهى عن القطع، وابتدأ القتال معهم في حصن (ناعم)، وكان اليهود قد حشدوا قواتهم في ذلك الحصن، وجعلوا قائدهم عليه سلام بن مشكم.

وبدأ النبي (ﷺ) معركة الحصار في قتال عفيف، وكلما حاولوا الخروج من الحصن دحرهم المسلمون، فارتدوا إلى الحصن، وطال الحصار، واشتد القتال، حتى أجهد المسلمون، ومكث الحصار سبعة أيام، والرسول (ﷺ) يعطي الراية في كل يوم لأحد لأصحابه، حتى تم الفتح على يد علي بن أبي طالب.

وفي معركة هذا الحصن قتل البطل اليهودي "مرحب"، وكان من أشجع شجعان اليهود، قتله علي بن أبي طالب، وهو يبارزه، وقيل إن الذي قتله هو محمد بن سلمة¹.

ولما سقط حصن ناعم، فر اليهود إلى الحصن وراءه وهو حصن الصعب بن معاذ، فاعتصموا به، ولكن المسلمين اقتحموا هذا الحصن، وجعلوا يقتلون ويأسرون حتى فُتِحَ عنوة.

وقد وجد المسلمون في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والزبدة والعسل والمتاع الشيء الكثير، وكانوا قد أصابتهم مجاعة حتى أكلوا لحوم الخيل، ولكن الرسول (ﷺ) خشي أن تشغلهم الغنيمة، فبعث منادياً ينادي في الناس: ﴿أَنْ أَكُلُوا، وَأَعْلِفُوا، وَلَا تَحْمِلُوا﴾.

وفي ذلك الحصن، وجد المسلمون في بيت تحت الأرض منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً وكثيراً من آلات الحرب، فانتفعوا في هذه المعركة أيما انتفاع.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 481.

لما سقط حصن الصعب بن معاذ فر اليهود إلى حصن الزبير، وهو حصن منيع قائم على رأس مله، محاصرة المسلمون ثلاثة أيام، وقد علم الرسول (ﷺ) أن وراء الحصن جدولاً يمد أهله بالماء، فأمر بقطعة عنهم، عندئذ خرجوا من الحصن، وقاتلوا عنه أشد قتال، وسقط هذا الحصن أخيراً، ويسقوطه، سقطت منطقة النطاة كلها في أيدي المسلمين، وفر اليهود منها إلى منطقة الشفا، فاعتصموا بأول حصن من حصونها، وهو حصن أبيّ.

كان هذا الحصن على جبل يقال له شمران، فحاصره المسلمون، وتبارز في معركة شجعان الفريقين، ثم تحامل المسلمون على الحصن، فیتقدمهم أبو دجاجة الأنصاري، حتى دخلوه، فهرب من فيه من المقاتلة إلى حصن البري، وتمنعوا به أشد التمتع، وزحف الرسول (ﷺ) إليه من أصحابه، فأمطروا المسلمين بوابل من النبال والحجارة، حتى أصاب النبل ثياب الرسول (ﷺ)، فأمر الرسول أن ينصب عليه المنجنيق، فوقع في قلوب أهله الرعب، فأسلموا الحصن، وهربوا، وبذلك سقطت منطقة الشق.

وذهب اليهود إلى منطقة الكتيبة، فاعتصموا فيها بحصن "الغموض"، وكان من الحصون المنيعة القوية، وحاصره المسلمون عشرين يوماً، ثم تم فتحه على يد علي بن أبي طالب، وقد سبي من هذا الحصن جمع من النساء والذراري من بينهم صفية بنت حيي بن الأخطب، وقد اصطفاها الرسول (ﷺ) من بين السبايا، فاعتقها، وتزوجها، فكانت من أمهات المؤمنين وكانت آخر الحصون حصن الوطيح والسالام، فحاصره الرسول (ﷺ) بضع عشرة ليلة، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوا الرسول (ﷺ) الاستسلام بحقن الدماء من المقاتلة، مع ترك الذرية لهم، ثم يخرجون من خيبر وأرضها، بذراريهم، وتحلون بين الرسول

(ﷺ)، وبين ما كان لهم من أرض وخيل وسلام، فقال الرسول (ﷺ): ﴿وَبَرِّتْ مِنْكُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ إِنْ كَتَمْتُونِي شَيْئًا فَصَالِحُوهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ ...

وباستسلام حصني الوطيح والسلالم سقطت خيبر كلها في أيدي المسلمين، وغنم المسلمون ما كان فيها من غنائم كثيرة.

ولما تم الصلح رغبت نفوس أهل خيبر عن الهجرة من بلادهم والبقاء، فسألوا الرسول (ﷺ) أن يخليهم ليعملوا في الأرض ويعطوه نصف ثمرها، وقالوا له: ((نحن أعلم بها منكم وأمر لها، فأبقاهم الرسول (ﷺ)، وصالحهم، وجنحوا إلى السلم، وبعثوا إلى الرسول (ﷺ) أن يصالحوه على ما صالحه عليه أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك، وتم الصلح، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين لأنهم فتحوها عنوة، وكانت فذك خالصة لرسول الله (ﷺ) إلا أنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب)).

ثم انصرف المسلمون إلى وادي القرى، فحاصروا أهلها ليالي حتى سلموا، وأذعنوا للصلح، فصالحهم الرسول على (ﷺ) ما صالح عليه أهل خيبر.

أما يهود "تيما" فقبلوا الجزية من غير حرب، وبذلك دانت اليهود كلها للمسلمين، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان في بلاد العرب، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال، كما صاروا بعد صلح الحديبية بمأمن من ناحية الجنوب.

وقسم الرسول (ﷺ) الغنائم بعد أن خمسها، فأعطى الرجل سهماً، وأعطى الفارس ثلاثة أسهم، وأعطى من خمسة ما أراه الله، فأعطى اليتيم السائل.

وبينما المسلمون في فرحهم بفتح خيبر، قدم عليهم جعفر بن أبي طالب، فيمن هاجر معه من المسلمين إلى الحبشة، فسر الرسول (ﷺ) سروراً عظيماً بقدمهم وضم جعفرأ وقبله بين عينيه، وقال ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر، أم بقدم

جعفر؟ وما قفل الرسول (ﷺ) عائداً إلى المدينة، استعمل على خير رجلاً من الأنصار، فجاءه بتمر خبيب، فقال الرسول (ﷺ): ((أكل تمر خبير هكذا؟)) فقال لا والله يا رسول الله أن لناخذ الصالح من هذا بالصاعين ثلاثة، فقال: لا تفعل، بع الجمع بالدرهم، ثم ابتع بالدرهم خبيبا¹.

نتائج فتح خبير

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿18﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ الفتح/18-19.

وقد فسر جمهور المفسرين "الفتح القريب" بفتح خبير و"المغانم الكثيرة" بمغانمها . أجل لقد كانت مغانم خبير أكثر مغانم حصل عليها المسلمون، فقد كانت واحدة خضراء، وكانت أرضها غنية بالنخيل والزرع، وكانت غلاتها من التمر والقمح والشعير شيئاً كثيراً، فقد روى أن عبد الله بن رواحة خراج (قدر) ما فيها من التمر بأربعين ألف وسق (حمل بعير) كما روى أن "الكتيبة" وحدها، وهي خمس الله ورسوله، كان بها أربعون ألف عذق (نخلة بحملها)، وكانت تخرص ثمانية آلاف وسق من التمر، وربما اجتمع فيها ألف صاع من النوى، وكان يزرع فيها الشعير فيحصدون منه ثلاثة آلاف صاع، روى البخاري «بسنده إلى عكرمة» أن عائشة أم المؤمنين قالت: ((لما فتحت خبير، قلنا: الآن نشبع من التمر)).

¹-رواه البخاري وانظر فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، 7-347، والخبيب الجيد من التمر.

ومما يذكر من حوادث كان لفتح خيبر من أثر هام على حياتهم الخاصة، ما رواه أبو داود «بسنده إلى عقبه بن عامر» أن النبي (ﷺ)، قال لرجل: ﴿أَتَرْضَى أَنْ أَرْوِّجَكَ فَلَانة؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: أَتَرْضَيْنَ أَنْ أَرْوِّجَكَ فَلَانًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ..﴾ فزوجهما، ولم يفرض لها صداقاً، وكان الزوج ممن شهد الحديبية، وكان من شهد الحديبية له سهم بخيبر، وكان صداق زوجته سهم خيبر.

وإلى جانب الدعم الاقتصادي للمسلمين، فقد كان لهذه الغزوة نتائج بالغة الأهمية على موازين القوى، وبالذات على هذا الميزان مع قريش.

فقد كان فتح خيبر حدثاً عظيماً ارتجت له أركان قريش، وكان اهتمامها به بالغاً، فقد أخذت ترقب النتيجة، منذ علمت أن الرسول (ﷺ) توجه إلى خيبر، وكانوا في ذلك فريقين: فريق ينظر إلى قوة اليهود، ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم، وإلى تحالفهم مع غطفان، فيقول: تظهر اليهود وحلفاؤها، وفريق آخر ينظر إلى ماضي المسلمين، وما كان من قوة قلوبهم، ودقة نظامهم، وحسن تعاونهم، واستهانتهم بالموت في سبيل عقيدتهم، هذا الفريق يقول: ((يظهر محمد وأصحابه)).

ولقد تحمس كل فريق لرأيه، حتى كان بينهم تراهن كبير، وجعلوا يتسمون، ويترقبون النتائج بعير فارغ، حتى كانوا يعطون بأفواه الطريق يسألون كل قادم عما كان بين محمد (ﷺ) واليهود¹.

ولقد كان وقع خيبر انتصار المسلمين في خيبر شديداً ومذهلاً وعجيباً على نفوس قريش، إذا لم تكن تتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهي على ما هي عليه من

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 490.

القوة والمنعة والتحصين، ولم تكن تظن أن المسلمين يبلغون من القوة هذا المبلغ العجيب.

والحق أن انتصار المسلمين يدعوا إلى التفكير والتأمل، فقد كان اليهود من القوة الظاهرة، بحين لم يكن أحد يتصور غلبتهم، إذ كانت عدتهم عشرة آلاف مقاتل مدربين على فنون القتال، وكانوا أقوى الطوائف الإسرائيلية بأساً في الحرب، ومهارة في الرمي، وشجاعة في القتال، وكانت لهم حصونهم القوية، وآلاتهم الثقيلة، وزادهم الوفير، في حين لم يكن عدد المسلمين يزيد على ألف وستمائة مقاتل، ولم يكن معهم من آلات القتال سوى السيوف والرماح والقسي والسهام، ولم يكن وراءهم حصن، ولا ظهر يلجأون إليه.

هذا النصر العجيب بهر قريشاً وأهلها، وبهر معها العرب، وغير العرب، ولعل ما كان من إذعان يهود فدك وتيماء دون قتال، وما كان من انهيار وادي القرى واستسلامها بهذه السرعة، كان ذلك أثراً من آثار هذا البهر الذي أخذ بألباب الناس، فأذهلهم وملاً قلوبهم بالرعب من هذه القوة الخارقة التي لا تعوقها حصون، ولا يقف أمامها جيش مهما كان لجياً.

لقد كان يهود خيبر من الثقة بأنفسهم، بحيث كانوا يظنون أن الرسول (ﷺ) لا يفكر بغزوهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ظَنَّنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الحشر/2، وهذا ما أكده الرسول (ﷺ) بقوله: ﴿نصرت بالرعب مسيرة شهر﴾¹.

¹ -امين دويدار: صور من حياة الرسول، ص493.

ويمكننا أن نتقرى هذه الحقيقة من التفسير الذي قدمه القرطبي لقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ الفتح/21، فقد رجح "القرطبي" أن يكون المقصود من ذلك، خيبر.

أما المقصود من "أحاطَ اللهُ بِهَا" فهو عند القرطبي يعني أن الله أعدها لكم، فهي كالشيء الذي قد أحيط من جميع نواحيه، فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم¹...

إذاً كان من نتائج خيبر أن قضي قضاء تاماً على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت لليهود في أقاليم الحجاز.

ولقد بقي اليهود يعملون في الأرض على العهد الذي أعطي لهم، وبقي الأمر على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فقد بلغ هذا الخليفة أن الرسول (ﷺ) قال في وجعه الذي قبض فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان.

لقد مخص الخليفة العادل عمر بن الخطاب هذا القول، وتثبت منه، فأرسل إلى اليهود، فقال: ((أن الله عز وجل، قد أذن في إجلائكم، فمن كان عنده عهد من الرسول (ﷺ) فليأتي أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء، وهكذا أجلى من لم يكن عنده عهد من الرسول (ﷺ) وقد أخرج الخليفة عمر يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القربى لأنهما داخلتان في الشام))².

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص494.

² -المرجع السابق، ص494.

وكما قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم، فقد قضت على عنفوان قريش وكبرياتها، حيث وقفت أمام قوم الإسلام مغلولة اليدين لا تدري ماذا تصنع حيال هذا السيل الجارف.

الدلائل والعبر

1- الإغارة والانداز:

يرى الشافعية وجمهور الفقهاء -جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية وحقيقتها بدون إنذار سابق أو دعوة محددة، ويستدلون على ذلك بإغارة الرسول (ﷺ) على خيبر¹.

2- تقسيم الغنائم:

وذلك على أساس أربعة أخماس للغانمين يختص الرجل سهماً، والفراس ثلاثة، والخمس الباقي يوزع أخماساً على من نصت عليهم الآية القرآنية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الأنفال/41.

وبالطبع، فسهم الرسول (ﷺ) لم يكن ملكاً شخصياً له، وإنما أقرب ما يكون إلى المخصصات التي تعقد حالياً لرئيس الدولة.

وقد ثبت أن الرسول (ﷺ) كان يصرفه في حياته على مصالح المسلمين، لا يأخذ منه لنفسه وأهله أكثر من قوت سنه...

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص291.

هذا ويجوز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال، كما هو الحال بالنسبة لإشراك جعفر بن أبي طالب، وبعد أخذ إذن الصحابة¹.

3- مشروعية عقد المساقاة:

وهي أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر ليعتده بالسقي والتربية على أن الثمار تكون بينهما، وقد ذهب مالك والشافعي وأحمد إلى صحة هذا العقد مستدلين على ذلك بمعاملته (ﷺ) أهالي خيبر، وقد خالف أبو حنيفة في ذلك².

كما شجر الخلاف حول ما إذا كان هذا العقد ينصرف إلى كافة الأشجار دون أن يقتصر على النخيل والعنب، والغالب هو عدم التعميم على كافة الأشجار، هذا فضلاً عن أن الراجح هو تصويب عقد المزارعة إلى جانب عقد المساقاة³.

4- حرمة ربا الفضل في المطعومات:

وقد اتضح لنا «فيما روى عن البخاري» نهى الرسول (ﷺ) عن مبادلة التمر الجيد بالتمر الرديء مفاضلة.
وقد أرشدنا الرسول (ﷺ) إلى الطريق السليمة في ذلك، وهي أن يبيع الرديء بالدرهم، ثم يشتري بها الجيد.

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص291.

² - المرجع السابق، ص292.

³ - المرجع السابق، ص293.

5- صحائف من التوراة:

كان من بين الغنائم التي غنمها المسلمون من خيبر صحائف من التوراة، وقد جاء اليهود يطلبونها، فأمر الرسول (ﷺ)، بردها إليهم. وقد علق الدكتور "إسرائيل ولغنون" على ذلك بقوله: ((يدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول (ﷺ) من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصفحهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك، ما فعله الرومان، حين تغلبوا على أورشليم، وفتحوها سنة 70 ق.م إذا أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم والأمر نفسه بالنسبة لما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة))¹.

6- عود على بدء:

اتضح لنا من هذه المعركة أن الرسول (ﷺ) لم يشأ «وبعد أن ألقى يهود خيبر سلاحهم» أن يخرجهم من ديارهم، بل شاطرهم ثمارها. وفضلاً عن ذلك، فقد اتخذ منهم صهراً، واصطفى من نسائهم صفية بعد أن خيرها بين أن يعتقها ويتزوجها... وبين أن يلحقها بأهلها، فاخترت أن تكون زوجة.

وقد أثر عنها أنها قالت: ((كان الرسول (ﷺ) أبغض الناس إليّ، فما زال يعتذر إليّ، ويعاملني المعاملة الحسنة حتى ذهب ذلك من نفسي)).

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 489.

روى أن بلالاً مرَّ بصفيّة وابنة عم لها على قتلى اليهود، فصاحت ابنة عمها صياحاً شديداً، فكره الرسول (ﷺ) ما صنع بلال، وقال: ((ذهبت الرحمة منك؟)). تمر بجارية حديثة السن على القتلى.. فقال: ما ظننت أنك تكره ذلك، وأقسم لا يفعل ذلك أبداً))، وروى أن اليهود شكوا إلى الرسول (ﷺ) أن المسلمين يقعون في حرثهم بعد الصلح، فأمر الرسول بجمع المسلمين، ثم قام فيهم، ثم قال: أن يهود شكوا إلي أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمناهم على دمائهم، وأمواهم، وعاملناهم، وأنه لا تحل أموال المعاهدين إلا عقبها .

وكان الرسول (ﷺ) يبعث ابن رواحة إلى أهل خيبر خارصاً، فيخرص عليهم، فإذا قالوا: ((تعديت علينا، قال: إن شئتم فلکم، وإن شئتم فلنا، فتقول اليهود، بهذا قامت السماوات والأرض)).

ولقد عرضنا سابقاً إلى خبر الصحائف التي وقفت في يد الرسول (ﷺ)، وكيف أعادها إليهم.

ونحن بعد هذه المقدمة البسيطة نجد لزاماً علينا أن نطرح السؤالين الآتين:

السؤال الأول: هل كان العقاب الذي وقع على بني قريظة جسيماً .

والسؤال الثاني: هل قدر اليهود هذا الجميل من المسلمين؟

السؤال الأول نجيب عليه: بأن عقوبة بني قريظة كانت جزاء وفاقاً، لأنها لم تكن موجهة إلى اليهود كيهود، وإنما وجهت إلى أفعالهم وهي متناسبة مع هذه الأفعال، إذا ما فورن الأمر بالعقوبة التي نزلت ببني قينقاع وبني النضير، وأخيراً يهود خيبر. أما الجواب الثاني: فنجيب عليه مؤكداً أن اليهود عرفوا أن محمداً أصدق الناس قولاً، وأكثرهم عدلاً، وأطهرهم قلباً، وأرقهم عاطفة، ومع كل ذلك، فقد استمروا

ففي العداة والبغضاء حتى بعد خبير رغم المعاملة الحسنة لهم، وهذا يتضح من المؤامرة التي دبروها، ونفذوها «حسب رواية ابن اسحق» على يد زينب ابنة الحارث (امرأة سلام بن مشكم)، حيث قدمت له هذه شاة مصلية (مشوية) ومسمومة، وقد عصمه الله من ذلك، بل عفا الرسول (ﷺ) عنها رغم أن أحد الصحابة بشر بن معرور مات من هذه المؤامرة الدنيئة.

غزوة مؤتة

كانت في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة/623م، وقد سماها البخاري وابن اسحق "غزوة" لكثرة جيش المسلمين، وأن لم يخرج النبي فيها، ومؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام من ناحية الحجاز...

كانت هذه السرية نتيجة للدعوة التي وجهها الرسول (ﷺ) إلى الملوك والعظماء، إذ أن منهم من تلقى الدعوة بالقبول فأسلم، ومنهم من تلقاها بغلظة وجفاء ولكنه لم يهن «حسب العرف السياسي» المبعوث، ولم يمسه بأذى، وقد شذ عن ذلك شر جبيل بن عمرو الغساني أحد عمال الروم على الشام، حيث أوثق رباطاً مبعوث الرسول (ﷺ)، الحارث بن عمير، ثم ضرب عنقه.

لقد ساء هذا الفعل الشنيع الرسول (ﷺ)، واشتد عليه الأمر، لاسيما أن الإسلام لا يزال يركز دعائمه في أنحاء الجزيرة العربية، وهو بحاجة إلى الاحتفاظ بكل ماله من هيبة، كما أن هناك فكرة كانت رسمت في النفوس مؤداها أن الإسلام قوة لا تغلب، وأنه مؤيد بروح من الله، وتحت تأثير هذه العقيدة أسلم الكثير من الناس، لا سيما أعراب البادية.

لذلك كان الرسول (ﷺ) حريصاً على ألا تنتقص هيبة الإسلام، وألا تتزعزع ثقة الناس فيه، ومن ثم فالتسكوت على قتل الحارث يحط من كرامة الإسلام، وهذه هي الأسباب التي حمل عليها قرار الرسول (ﷺ) ببعث سرّيته هذه إلى الشام لتأديب المعتدي.

وأكدت الناس لذلك فأسرعوا وعسكروا بالجرف من أطراف المدينة حتى أكملوا ثلاثة آلاف، فلما أعدمهم الرسول (ﷺ)، وقال لهم: ﴿أَمِيرُ الْقَوْمِ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَإِنْ قُتِلَ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِنْ قُتِلَ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَإِنْ قُتِلَ فَلِيَرْتَضِ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ رَجُلًا، وَقَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ يَدْعُوا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا قَاتِلُوهُمْ، وَأَوْصَاهُمْ أَنَا يَقْدَرُوا، وَلَا يُقْتَلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا، وَلَا مُنْعَزِلًا بِصَوْمَعَتِهِ، وَلَا يُقْرَبُوا نَخْلًا، وَلَا يُقَطَّعُوا شَجَرًا وَلَا يُهْدَمُوا بِنَاءً﴾، وكانت الخطة مفاجأة العدو، ولكن هذا العدو علم بذلك، فأخذ يستعد بكل ما يبهر ويردع من مظاهر القوة والأبهة والسلطان، حتى ذهل المسلمون من ذلك.

روى الواقدي «بسند» عن أبي هريرة قال: ((شهدت في مؤتة ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكرع والحريير والديباج، فبرق بصري، فقال لي ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعاً كثيرة، قلت: نعم، قال: إنك لم تشهد بداراً معنا، إنا لم ننصر بالكثرة)).

وتكاد تجمع الروايات على أن الروم استقبلوا المسلمين بمائتي ألف مقاتل، مائة ألف من الروم ومائة ألف من النصارى العرب التابعين لهم، وإن جيش الروم هذا كان قد أتى هرقل للحج إلى بيت المقدس، وللاحتفال باسترداد الصليب الأكبر بعد هزيمة الفرس ويمكن القول أن القوم قد فرغوا عندما علموا قدوم المسلمين إليهم،

وأنهم أخذوا يتخيلون من هذه القوة الخارقة التي أذاعت الرعب في أنحاء الجزيرة العربية، فلم تستطع قوة الأحزاب، أو حصون اليهود أن تقف أمامها .

لم يتوقع المسلمون حجم ما أعده العدو، فأخذوا يتشاورون، ثم بدا لهم، أن يكتبوا إلى الرسول (ﷺ)، ولكن عبد الله بن رواحة غلبت عليه حمية الإيمان، فأخذ يشجع القوم، ويقول لهم: ((يا قوم، إن التي تكرهونها هي الشهادة، والله ما كنا نقابل الناس بكثرة عدد، بل بهذا الدين الذي كرمنا الله بها، لقد رأيتم يوم بدر، ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد، انطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين: أما الظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ورسوله (ﷺ)، وليس لوعد الله خلف، وإن الشهادة، فتحلق بالإخوان، ترافقهم في الجنان)).

وفعلت كلمات بن رواحة في النفوس فعل السحر، نهضوا بعد ليلتين إلى تخوم البلقاء من أرض الشام، فوجدوا جموع العدو تدنو منهم، فانحازوا إلى قرية "مؤتة" ليحتموا بها، ولكن الروم جاءوا إليهم كأنحدار السيل، وأقبلوا بخيلهم ورجلهم في مظهر يبهر الأبصار، ويذهل العقول، فقابلهم المسلمون في نظام "ضغط الجموع" بالقلب، والتحم الجيشان في قتال قريب المدى عنيف الاشتباك¹.

لقد قاتل زيد بن حارثة ببسالة، حتى قتل، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، حتى إذا ألحمه القتال، وأحاط به العدو، عقر فرسه، قم اندفع يقاتل القوم راحلاً، فضربت يمينه فقطعت فأخذ اللواء ببساره، فضربت يساره، فقطعت، فاحتضن اللواء بعضديه حتى قتل وقد وجد به نحو تسعين طعنة، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة.

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص519.

روى ابن اسحق أن ابن عم لعبد الله أتاها بعرق من لحم، فقال له: ((شد بها صلبك، فأخذ من يده فانتهى منه نهه، ثم سمع الحطمة وزحام الناس، فقال: رأيت في الدنيا؟؟.. ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم، فقاتل حتى قتل)).

واصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية دافع القوم، داور بهم حتى أتى المساء، بدل مواقع الجيش، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار، ويكثرون الجلبة، فلما التقى الفريقان رأى كل فريق من العدو أمامه وجوهاً غير الوجوه السابقة ورايات أخرى، فظن العدو أن هنالك إمدادات للمسلمين.

ونجحت حيلة خالد في خداع القوم، فجعل يداور ويتراجع في مهارة وحذق، حتى ظن الروم أنه يريد أن يستدرجهم إلى الصحراء، فلم يتبعوه، وهكذا فقد أفلت خالد بالجيش، محققاً هذا الانسحاب المأمون وقيل أن يبارح الجيش أرض مؤتة نعى الرسول (ﷺ) إلى أصحابه أمراءه الثلاثة، ودموعه تفيض حزناً عليهم¹..

وكان وقع الخبر شديداً على نفوس المسلمين، وخرج أهل المدينة كباراً وصغاراً، يستقبلون الجيش، وخرج الصبيان حتى أشفق عليهم الرسول (ﷺ) من طول ما جروا، فقال: ﴿خُذُوا الصَّبِيَّانَ، فَاحْمِلُوهُمَّ وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرَ﴾.

وظن الناس أن الجيش قد انهزم، فجعلوا يحثون في وجوههم التراب، ويقولون: يا فرار، فيقول الرسول (ﷺ): ﴿ليسوا بالفرار، ولكنهم القرار، إن شاء الله﴾.

¹ -رواية البخاري عن أنس رضي الله عنه.

الدلائل والعبر

العنصر الذاتي والعنصر الموضوعي:

ونقصد بالعنصر الذاتي، الجانب الإيماني والروحي والعقيدي الذي يتوفر في المقاتل، ومما لاشك فيه أن هذين العنصرين هما قطبا أي انتصار، وأن على أي قائد معركة أن يوازن بينهما موازنة دقيقة كشرط لازم وكاف لكل انتصار.

ذلك ان الإسراف في العنصر الموضوعي يعني الاستحذار، ولكن الإفراط في العنصر المعنوي يعني المغامرة، فالإيمان له دوره الأساسي كما لمست ذلك في معركة بدر ومؤتة نفسها، ولكن ذلك ضمن حدود ومن ثم فقد كان على المسلمين في مؤتة أن يتخذوا قرارهم الخاص المستقل عن الأوامر التي أعطيت لهم في المدينة، وإن يقرروا على ضوء الظروف التي تحيط بهم، وإلا فتحن حيال أوامر صماء تصطدم بظروف غير متوقعة، وفوق إرادة البشر ونواميس الحياة.

فإذاً كانت الكارثة لو أصر العدو في هذه المعركة على الالتحام بالمسلمين، حتى في حال التراجع.

ومع ذلك، فهذه القلة استطاعت أن تعطي العدو درساً قاسياً زلزل النفوس، حتى فقدوا ثقتهم بأنفسهم، فتقاعسوا عن مهاجمة المسلمين، واستبشروا بالارتداد.

لقد قتل من المسلمين اثني عشر رجلاً، في حين قتل من العدو مقتلة لم يقتلها قوم، وإن المشركين انهزموا أمامهم حتى كانوا يضعون السيوف فيهم حيث شاؤوا¹.

لقد قتل الأمراء الثلاثة من المسلمين في يوم واحد، وكان تقتضي هذا أن يفر المسلمون «حيث كان الجيش يفر عند مقتل أميره» ولكن المسلمين لم يفرؤا، بل

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص525.

صمدوا وثبتوا، ولعل العدو ركز على القادة، ولكن خابت مسعاه فلم يستطيع زعزعة المسلمين بمقتل أمرائهم.

وتبدو صورة القتال الفردي واضحة لصالح المسلمين بذلك من استبسال جعفر الذي عقر فرسه، وقاتل فقطعت يمينه، فلم يفتر، ثم قطعت يساره، فضم اللواء بين عضديه حتى قتل.

وصورة أخرى للقتال الفردي تبدو في شجاعة خالد، إذ قال «فيما رواه البخاري عنه»: ((لقد دق في يدي تسعة أسياف، وما بقي في يدي إلا صفحة يمانيه)).

وهناك صورة لهذه الشجاعة، في هذا العدد من الطعنات التي وجهت لجعفر، والتي بلغت التسعين.

والامر نفسه نلمحه في استشهاد ابن رواحة، حين نستعيد كلامه، وهو يشجع أصحابه على ملاقاتة الروم.

وهناك ملاحظة هامة هي منظر أهل المدينة، وهم يستقبلون الجيش صفاراً وكباراً، يعيرونه بالفرار ويحثون في وجهه التراب، وهذا أن دل، فإنما يدل على وجود رأي عام إسلامي يفرض نفسه حتى على الجيش، وإن كان الرسول (ﷺ) قد صحح لهم الفكرة الخاطئة ووزن الأمور بميزانها الصحيح.

وفي الحقيقة، إذا كانت الأمور تقاس بخواتيمها والأعمال بنتائجها، فإن خالد بن الوليد استحق لقب سيف الله، لأنه قدر فأحسن التقدير ولأنه وضع الأمور الموضوعية ووزنها بميزانها الصحيح، فحقق هذا الانسحاب المأمون، مؤكداً أن هنالك قوانين ونواميس للحرب، لا تستطيع العقيدة أن تستهين بها.

لقد كان لهذه الغزوة نتائج إيجابية بالغة الأثر، فقد كانت كافية لتأمين حدود المسلمين من ناحية الشام، إذ لم يحاول الروم، ولا أتباعهم من العرب أن يهاجموا المسلمين بعدها أبداً، وقد ظل هذا الأثر باقياً حتى يوم تبوك، حين ذهب الرسول (ﷺ) بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام، فتهربوا من مجابهة المسلمين يومئذ، وأثروا السلامة بأنفسهم على أن يلاقوا هذا العدو الكاسر الذي باع نفسه في سبيل غايته.

كما وإن هذه الصورة الباسلة تركت في نفوس الروم وأتباعهم هذا الأثر البعيد، فقد تركت في نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق أثراً قوياً من الإعجاب بالمسلمين، مما جعل كثيراً من بني سليم وأشجع وغطفان وعبس وذبيان وفزارة يدخلون في الإسلام طائعين¹.

هذا وندلل في نهاية حديثنا بالوصية التي أعطاها الرسول الكريم (ﷺ) لجنده، بأن لا يقتلوا شيخاً أو طفلاً، أو يقطعوا شجرة، أو يهدموا بيتاً، وأن يحترموا الناس في صوامعهم، كل ذلك تأكيد على عظمة هذا الدين في إرساء القانون الدولي واحترام حقوق الإنسان في ذاته وكرامته وأمنه.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص 527.

فندق مكة

أم القرى - مكة، كانت معقل الشرك وقلعة الوثنية الأساسية، وقريش هي حارسة الكعبة وسادنة البيت، وفي يدها كافة خيوط الريادة ومقائيد الزعامة في الجزيرة العربية، ومن ثم فبقاء مكة على شركها، لا يعني إلا وجود كبير في وجه انطلاقة الإسلام وتعميمه في الجزيرة العربية.

لقد كان صلح الحديبية، الثغرة الكبيرة التي فتحت في الجدار السميك للشرك، حيث اعترفت بأن محمداً صاحب مذهب جديد، ومن ثم فقد كان الصلح المذكور المفتاح الأول الذي فك أغلاق الشرك.

ثم كانت عمرة القضاء هي المفتاح الثاني من مفاتيح ذلك الحصن، إذا ظهرت المسلمين في منتهى التواد والتراحم والتضامن والانقياد ودقة النظام والإخلاص والمحبة للرسول (ﷺ)، وشدة اليأس والتمسك بهذا الدين إضافة إلى التعظيم والتقديس للبيت وحرماته، والترفع من كل ما يشين الأخلاق.

لقد هز مظهر المسلمين نفوس أهل مكة هزاً عظيماً، ولمس مكان العقيدة من قلوبهم فزلزلها زلزلاً شديداً حيث أخذوا ينظرون إلى الإسلام نظرة الإعجاب والإكبار، والتفكير والتدبر به، وأخذوا يقارنون بين هذا الدين، وبين تلك العقيدة التي تتأبى على كل عقل وتفكير، كما وازنوا بين شعائر الإسلام القائمة على

الخشوع والانسجام، وبين ما يفعلون في عبارتهم من لغو ولهو، وما يقومون به عند البيت من مكاء وتصديه¹.

وهكذا فقد لانت القلوب للإسلام، وصفت الأفتدة، وتهيأت القلوب، وكانت عمرة القضاء مفتاحاً آخر فك إغلاق مكة وعتوها ..

وبقيت الضرورة قائمة لفك بقية الأخلاق، فكان ما كان في السنة الثامنة للهجرة من نقض قريش كعهد الحديبية.

ذلك أنه كان بين قبيلتي بكر وخزاعة دماء وتراث في الجاهلية، وقد دخلت خزاعة في عهد الرسول (ﷺ)، كما دخلت بكر في عهد قريش، وقد حدث أن رجلاً من قبيلة بكر وقف ذات يوم يهجو الرسول (ﷺ) على مسمع من رجل خزامي، فقام إليه الخزاعي فضربه، فحرك ذلك ما بين القبيلتين من عداوة قديمة، وأخذت قبيلة بكر تعد عدتها للانتقام من خزاعة، وأعانهم على ذلك رجال من قريش.

وفي ذات ليلة كانت خزاعة على ماء لها يسمى (الوتير)، فباغتتها رجال بكر ومن مالأهم من قريش، فلجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمي به، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، حتى قتلوا منها نحو عشرين رجلاً فاستنصرت خزاعة بالرسول (ﷺ)، وذهب رجال منهم إلى المدينة، بزعامة عمرو بن سالم، فقال الرسول (ﷺ): نصرت يا عمرو بن سالم، وأخذ بعد عدته لهذا الفتح.

لقد قدر الرسول (ﷺ) أن قريشاً ستعتذر عما فعلت، فقال لأصحابه: ﴿كَأَنَّكُمْ بَابِي سَفِيَانٌ قَدْ جَاءَكُمْ، لِيَشُدَّ فِي الْعَقْدِ، وَيَزِيدُ فِي الْمُدَّةِ﴾¹، وحدث ما توقعه الرسول

¹ - المكاء هو الصفير الخفيف والتصديه هي التصفيق.

(ﷺ)، فقد أرسلت قريش أبا سفيان لإصلاح غلطتها، حيث أحس هذا خطورة ما فعلته قريش، لذلك لم يشأ أن يذهب مباشرة إلى الرسول (ﷺ)، ودخل إلى ابنته أم حبيبة زوج الرسول (ﷺ) ليستشفع بها إلى الرسول (ﷺ) وقد أراد أن يجلس على فراش الرسول (ﷺ) لكن ابنته طوت الفراش، فعجب أبو سفيان من ذلك، وقال لها: ((يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني، فأجابته ابنته في صراحة تقول: بل هو فراش الرسول (ﷺ)، وأنت رجل مشرك بخس، فكانت صدمة شديدة الوقع على نفس أبي سفيان، ولم يملك أن قال لابنته معبراً عما قاله من المهانة: واللَّه لقد أصابك بعدي يا بنية شراً))².

وخرج أبو سفيان من لدن ابنته إلى الرسول (ﷺ) مكدور النفس مظلوم الفؤاد، ثم دخل المسجد، وكلم الرسول (ﷺ) بالأمر، ولكن الرسول (ﷺ) لم يرد عليه، فكان ذلك صدمة أخرى أكثر هولاً وتكسيراً للنفس، وهكذا فقد ذهب يستشفع أصحاب الرسول (ﷺ) واحداً واحداً مبتدئاً بعلي بن أبي طالب، فقال له: ((ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم الرسول (ﷺ)، وما نستطيع أن نكلمه فيه)).

وقيل: أن أبا سفيان استشفع عقمان بن عفان، ثم سعد بن عباد، وغيرهما من أكابر المهاجرين والأنصار، ولما يئس دخل على فاطمة، فقال لها: ((يا بنت محمد، هل لك أن تجيري بين الناس، فقالت: إنما أنا امرأة، فقال لها: مري بنيك هذا، فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت: واللَّه ما بلغ بني هذا

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص531.

² - المرجع السابق، ص531.

أن يجير بين الناس، ما يجير أحد على الرسول (ﷺ)، ثم قفل أبو سفيان راجعاً إلى مكة مذموماً مدحوراً)).

وأخذ الرسول (ﷺ) يتجهز لفتح مكة، فأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من الأعراب أن يحضروا رمضان بالمدينة، فأخذت القبائل تتوافد، ولما اجتمع الناس أعلمهم أنه سائر إلى مكة، وعزم ألا يريق دماً، ولكنه أخفى مقصده على الناس¹.

وخرج الرسول (ﷺ) من المدينة إلى مكة في نحو عشرة آلاف من الرجال، لا ليسفك الدماء أو يسلب الأموال، ولكن ليفتح أغلاق البلد الحرام، ويجعله مثابة للناس وأمناً، وينشر فيه الدين الحق.

ولما كان للرسول (ﷺ) ببعض الطريق لقيه عنه العباس مهاجراً إلى المدينة، ولكن العباس بعث أهله إلى المدينة. ورجع مع جيش الرسول (ﷺ) فللغاية التي أرادها الرسول (ﷺ)، وهي حقن الدماء.

ولما صار الجيش على مقربة من مكة، وكان الوقت عشياً، أمر الرسول (ﷺ) أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار، حيث ظهر ضوءها يسطع في ظلام العراء، مما زاع ذلك العباس، فأخذ يفكر في طريقه يؤمن بها قريشاً وينقذها من التدمير.

قال العباس: ((وكان من قضاء الله وقدره أن خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار، وقد سمعت كلام هؤلاء يتكلمون عن هذه النيران الساطعة، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت من كالليلة نيراناً قط، ولا

¹ -أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص533.

عسكراً.. فيقول بديل: هذه والله خزاعة، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل أن تكون هذه نيرانها .

قال العباس: قلت يا أبا حنظلة فعرف صدقي.. قال: مالك فذاك أبي وأمي... قلت: ويحك هذا رسول الله... قال: فما الحيلة؟.. قلت: اركب في عجز هذه البغلة وحتى تأتي رسول الله فاستأمنه لك، قال: فجئنا الرسول (ﷺ)، ودخل معنا عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني، فلاضربن عنقه... قلت: يا رسول الله إني قد أجرته)).

قال الرسول (ﷺ): ((اذهب يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأأتي به، قال العباس: فبات عندي أبو سفيان، ولما أصبح غدوت به إلى الرسول (ﷺ)، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟.. قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. قال الرسول (ﷺ): ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟.. قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فو الله أن في النفس منها حتى الآن شيئاً.. فقال له العباس: ويحك... أسلم، قبل أن نضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق.. قال العباس: يا رسول الله أن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً))، قال: ﴿نَعَمْ... مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَهُوَ آمِنٌ...﴾ .

وقال الرسول (ﷺ) مخاطباً عمر: ((أحببته بمضيف الوادي حتى تمر به جنود الله، فيراها.. وكانت كلما مرت قبيلة سأل أبو سفيان العباس عنها، حتى مر الرسول (ﷺ) في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا

الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله، يا عباس من هؤلاء؟؟ قلت: هذا الرسول (ﷺ) في المهاجرين والأنصار.. فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً... قلت: ويحك: أنها النبوة... قال: فنعم إذن.. قلت: النجاة إلى قومك)).

وسار أبو سفيان إلى قومه حتى إذا جاءهم، صرخ بأعلى صوته: ((يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فقامت إليه زوجته هند آخذة بلحيته، وقالت: اقتلوا هذا الشيخ الأحمق... قبح من طليعة قوم.. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان، فهو آمن... قالوا: قاتلك الله.. وما تغني عنا دارك؟؟.

وقال: ومن أغلق عليه بابه، فهو آمن، ومن دخل المسجد، فهو آمن.. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد)).

وأطبقت جيوش المسلمين على مكة من جميع نواحيها، وضرب للرسول (ﷺ) فيه في أعلاها.

لقد نهى الرسول (ﷺ) عن القتال، بل بلغ حرصه على ذلك أن خلع سعد بن عبادة عن الإمارة، وأسلمها إلى ابنه قيس، حين بلغه أن سعداً أخذ يتوعد قريشاً، ويقول: ((اليوم يوم الملحمة... اليوم تستحل الحرمة)).

لقد وجد خالد بن الوليد بعض المقاومة، على اثر ذلك، قتل بعض الرجال المسلمين، وقريش... فلما سمع الرسول (ﷺ) ذلك، قال: ((ألم أنه عن القتال؟؟ فقيل له: يا رسول الله، أن خالداً، قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير)).

ودخلت جيوش المسلمين دون مقاومة، وتم الفتح الأبيض المبين للبلد الأمين، ودخل الرسول (ﷺ) على ناقته، لا كما يدخل الفاتحون في كبرياتهم وعتوهم، بل دخل خاشعاً متواضعاً مكباً على رحل ناقته، يكاد رأسه يلمس واسطة الرجل، شكراً لله على ما أنعم، وهو لا ينفك عن قراءة سورة الفتح، حتى انتهى إلى الكعبة، ومعه المسلمون، فاستلم الركن، وكبر، فكبر المسلمون بتكبيره، حتى ارتجت لتكبيرهم أرجاء مكة، ثم طاف بالبيت على ناقته.

ولما فرغ من تطوافه نزل عن ناقته، ثم انتهى إلى المقام يصلي فيه ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم، فشرب منها، وتوضأ والمسلمون حوله يتبدرون وضوءه يصبونه على وجوههم، والمشركون معجبون بما يرون.

ثم دخل الرسول المسجد، فصلى في الكعبة ركعتين، ثم وقف على باب الكعبة، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عِبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً طَوِيلَةً، ذَكَرَ فِيهَا جُمْلَةً مِنَ الْأَحْكَامِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ أُخُوَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتُعْظِمُهَا بِالْآبَاءِ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ﴾، ثم تلا الآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، ثم قال: ﴿يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ، مَاذَا تَقُولُونَ، وَمَاذَا تَتَّظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟﴾ قَالُوا: خَيْرًا، أَخِ كَرِيمٍ، وَابْنِ أَخِ كَرِيمٍ... قَالَ: أَقُولُ، كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: لَا تَتَّزِيبُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ... اذْهَبُوا فَإِنَّتُمْ الطَّلَاقَ﴾.

أجل لقد كان هذا الفعل فتحاً آخر جديداً، فتح الله به أغلاق القلوب المنكرة، وطوى عنان النفوس المستكبرة، فقد تفيض بالحب والإخلاص لتدخل في دين الله

راضية مرضية مطمئنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾
فصلت/34 .

الدلائل والعبر

نستطيع أن نستخلص من أحداث هذا الفتح المبين نتائج ودلالات متعددة يفترض بنا التبصير بها، والوقوف عندها، منها ما هو أحكام فقهية¹ مثل جواز مفاجأة العدو بالإغارة والحرب، إذا كان «كما فعلت قريش» قد خان العهد، ونبذه، ومثل عدم جواز موالة غير المسلمين، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة، عندما كتب إلى قريش، يحذرهم من غارة المسلمين²، ومثل الحكم المتعلق بقول علي بن أبي طالب للمرأة التي أخذت كتاب حاطب، قوله لها: ((لتخرجن الكتاب، أو لتلقين الثياب))، وهل يفيد هذا القول جواز تعذيب المتهم بمختلف الوسائل لحمله على الاعتراف والعكس، ومن ذلك أيضاً ما استخلص الفقهاء من أحكام حول تحريم الصور والتصوير مستتبطين ذلك من الأمر الذي أعطاه الرسول (ﷺ) بإزالة الصور والأصنام من الكعبة قبل دخوله إليها .

¹ - د . البوطي: فقه السيرة النبوية، ص320 وما بعدها، وقد عرض لهذه الأحكام، ولرواية سحنون في المدونة بأنه لا يجوز تعذيب المتهم .

² - وفي حاطب نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ المتحنة/1-3 .

وفي نظرنا أهمية هذه الأحكام تتضاءل أمام روعة وعظمة القيم الإنسانية والأخلاقية والروحية والإيمانية التي باحت بها أحداث الفتح المبين، ونحن هنا معنون بالتبصير بهذه المعاني والعبر.

1- إنها النبوة:

يستدل من الحوار الذي جرى بين العباس عم الرسول (ﷺ)، وأبي سفيان حول عظمة جيش المسلمين، فقد وصف أبو سفيان هذا الجيش بأنه: ما لحد لهؤلاء قبل ولا طاقة، وتعقيبه على ذلك بقوله: إن ملك محمداً أصبح عظيماً. أجل لقد أسس أبو سفيان حكمة على أسباب كانت معهودة في الجزيرة العربية، ومعرفة في لغة القوم، ولكن العباس رفض كل هذه المعايير، مفرقاً «في الطبيعة والجوهر لا في الشكل والمظهر» بين مظاهر الملك وجلال النبوة.

ويبدو هذا الأمر جلياً من معاملة ابنته أم صبيب له عندما أراد أن يجلس على فراش الرسول (ﷺ)، فقد ذهل أبو سفيان من هذا الموقف، ولم يستطع الاستدلال على معناه أو إدراك مغزاه، وفك رموزه وحروفه...

أنها معجمية النبوة التي يتطلب فهمها قراءة ولغة خاصة، وتقييم علاقات وقيماً وروابط فوق رابطة الأبوة والنبوة والأخوة، وغير ذلك...

ومن مظاهر هذه النبوة دخول الرسول (ﷺ) إلى مكة خاشعاً متواضعاً لله «حتى إن عُثونته (لحيته أسفل ذقنه) ليكاد يمسُّ واسطة الرحل¹» لا كما يدخل الفاتحون في كبرياتهم وخيالاتهم وعتوهم.

¹ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 315.

أجل لم يكن يشغل الرسول (ﷺ) جميع الأموال والاعتداء على النساء، بل دخل المدينة وقلبه ولسانه يلهجان بقراءة سورة الفتح، وهو شهود للصلاة في الكعبة ثم الطواف حولها والوضوء بماء زمزم، وغير ذلك من مظاهر التعب التي ترضي الله..

2- الحقوق المكتسبة:

تخبرنا الموارد التاريخية أن العباس عم الرسول (ﷺ) وابن عمه علي بن أبي طالب، دخلا الكعبة، وحاولا أخذ مفتاحها من السادن عثمان بن طلحة، ولكن هذا صعد هارباً إلى سطح الكعبة، ولما جاء الرسول (ﷺ) سأل عنه، فحضر عثمان وقص على الرسول (ﷺ) الخبر، ولكن الرسول (ﷺ) عزر عثمان في وظيفته، قائلاً له: ﴿يَا عُمَانُ، هَذَا يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ، خُدُوهَا خَالِدَةً مُخَلَّدَةً، أَنِّي لَمْ أَدْفَعَهَا إِلَيْكُمْ (حِمَايَةَ الْبَيْتِ) وَلَكِنَّ اللَّهَ دَفَعَهَا إِلَيْكُمْ وَلَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ﴾. وفي نظرنا أن الرسول استشعر «إلى جانب القيم الإنسانية والخلقية التي تفيض بها هذه الحادثة - نظرية الحقوق الفردية المكتسبة» وماهية الظاهرة الإدارية المستقلة عن التقلبات السياسية وإن نسبة إعطاء الحق بالسدانة هو تعزيز لهذه الحقيقة الموضوعية للحقوق غير المرتبطة بإرادة هذا الفاتح أو ذاك.

3- محمد (ﷺ) رسول الرحمة والمحبة والسلام:

تدل أحداث هذا الفتح أن الرسول (ﷺ) إرادة قيماً سامياً لا تشوبه دعاوى القوة والبطش، بل وقد تأكد هذا التعميم منذ خروجه من المدينة إلى مكة... لقد اتخذ الرسول (ﷺ) كافة التدابير والاحتياطات ليجعل هذا الفتح منعماً بالحب والصفح والرحمة، من ذلك القادة النار لا رهاب العدو، ومن ذلك خلع سعد بن

عبادة لأنه سمع منه قوله: اليوم يوم الملحمة، ومن جهة أخرى فقد يقول الرسول (ﷺ) بكلمته المشهورة: اليوم يوم الرحمة ومن ذلك عفوهِ العام عن قريش، رغم ما لقي منها من صنوف العذاب والتنكيل.

أجل: بأبي انت وأمي يا رسول الله ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، عبارة تفيض بالصدق والمحبة والوداعة، تفجرت من أعنى قلب وأقساه... أنه قلب أبي سفيان الحاقد، ولكن الرحمة التي في قلب الرسول هي التي فجرت الأنهار من الأحجار.

4- خطاب الرسول (ﷺ) غادة الفتح:

لقد ابتدأ هذا الخطاب بالثناء على الله الذي نصره وأيده، وصدق وعده، وهكذا اكنت مقدمة الخطب، لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم أعلن بعد ذلك أمام قريش وغيرهم أساس المجتمع الجديد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/13.

«فلتدفن «والى الأبد» تحت أقدام المسلمين رواسب ومآلات الجاهلية العنيفة العفنة من التفاخر بالأباء والأجداد، والتباهي بالعنصرية والقبلية، والاعتدال بفوارق الشكل واللغة والأنساب، فالناس كلهم «كأسنان المشط» لأدم، وآدم من تراب.

لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ولا تعاضم إلا بقيم الإسلام، ولا مباهاة إلا بالتمسك بمبادئه الأهلية.

ثم يصل الرسول (ﷺ) إلى النقطة من خطابه التي انتظرها المشركون في رعب وقلق: ماذا سيفعل بهم المنتصر، وقد ملأت جنده رحاب مكة، أجل لقد فاجأهم الرسول (ﷺ) بهذا السؤال قائلاً: ما تظنون بي فاعل بكم؟؟ ولما أحس المشركون في نقمة صوته ولون سؤاله نبضات الرحمة صاحوا: أخ كريم ابن أخ كريم.

وأجابهم الرسول (ﷺ) النبيل الرحيم الذي لم ينطو قلبه يوماً على حقد أو ضغينة: اذهبوا فأنتم الطلقاء...

لقد سقطت بقية السخائم التي في أفئدة قريش، وجاءت في اليوم الثاني تتسابق إلى المبايعة.

5- دائماً مع الفقراء:

بقي الرسول (ﷺ) في مكة بعد الفتح خمسة عشر يوماً أشرف خلالها على تحطيم أصنام الكعبة والأصنام الخاصة الموجودة في البيوت، كما أرسل جماعات من أصحابه لتحطيم مائة في المشلل (بيتاً بين مكة والمدينة يحجون إليه العرب)، والقرى في نخلة، وغيرها من الأصنام¹.

واهتم ببعض القضايا التنظيمية والإدارية، ومن بينها تأمين نفقة الفقراء من أصحابه الذين رافقوه في الفتح، والذين لم يحصلوا على أية غنيمة، لأن الرسول (ﷺ) منع استباحة مكة أو سلب أموال أهلها، فاستدان مالاً من بعض رحلات مكة البارزين كصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب، ووزعه على الفقراء

¹ - د . نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم...، ص519.

من أصحابه، بحيث أصاب الواحد منهم خمسين درهماً، وقد أعاد الرسول (ﷺ) المال الذي استلمه إلى أصحابه بعد أن نصره الله على هوازن في غزوة حنين¹.

يا لروعة هذا الحدث، الرسول (ﷺ) يدخل مكة، لا كما يدخل الفاتحون والقادة الذي يفرش لهم السجاد ويكلل جبينهم بالغار والزهور، بل يدخل متواضعاً لله يكاد عثونه يمس وسط رحله، وهو مشغول بقراءة سورة الفتح.

ومن جهة أخرى، فهذا الانتصار هو انتصار عقيدة على أخرى، وليس انتصار قوة مادية على قوة مادية، بما يترتب على ذلك من نتائج أهمها سيطرة الأولى على المقدرات المالية للثانية.

فهذا الفاتح احتاج للدراهم المعدودة كي يسد رمق أصحابه الفقراء الذين شاركوه ثمرات الفتح الإيمانية لا المادية، وكان من المفروض بهؤلاء أن تمتلئ جيوبهم بالأموال لو كانوا مرتزقة...

ثم ممن هذا القرض؟؟... من صفوان بن أمية عظيم غلاة الشرك الذي بقي على شركه حتى بعد الفتح، ثم هرب إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن، وإن كان الرسول قبل توسط القوم فيه، وعفا عنه².

¹ -الواقدي: كتاب المغازي، ج2، ص863.

² - سيرة ابن هشام: القسم الثاني، ص417.

غزونا حنين والطائف

دخل الرسول (ﷺ) مكة في اليوم العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة/630هـ/، وظل بها قرابة عشرين يوماً يرتب شؤونها بما يتفق مع جو الإسلام والتوحيد، حيث استهل عمله بأن أمر بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة، وهكذا فقد دوى في الأرجاء: الله أكبر الله أكبر... ثم أقيمت الصلاة وصلى الرسول (ﷺ) في حرم البيت، ومعه الناس على صفوفهم يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، وكان لهذا المنظر الجليل أثره الفعال في نفوس المشركين، فأقبلوا على الإسلام طائعين مبايعين، وجلس الرسول (ﷺ) لهم لذلك على الصف، وقام عمر بن الخطاب يأخذ له البيعة من الرجال، ثم أخذت بعد ذلك بيعة النساء، على ألا يشركن، ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه، ولا يعصينه في معروف، وهكذا دخلت مكة في حظيرة الإسلام، وعمت الناس روح جديدة من الحرية والإخاء والمساواة.

وكان مما دفع أهل مكة إلى الإسلام خيارهم الحر في ذلك، حتى أن صفوان بن أمية، لما أتى ليسلم قال للرسول (ﷺ): ((أمهلني بالخيار شهرين، فقال له الرسول (ﷺ): أنت بالخيار أربعة أشهر))، مع أن هذا كان من الذين أهدر دمهم بسبب عدائه الشديد للإسلام، ومن ثم، فقد كان عفو الرسول (ﷺ) عن أهدرت دماؤهم من أهم الدوافع إلى إقدام الناس لاعتناق الدين الجديد.

وأخذ الرسول (ﷺ) يمحو بمكة كل أثر من آثار الشرك والوثنية، فأمر بهدم ما كان حول الكعبة من الأصنام، وكان عددها ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم، ثم أمر منادياً ينادي في أهل مكة، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره، فأقبل أهل مكة يكسرون أصنامهم، وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنماً لها بالقدم حتى حطمته، وهي تقول: كنا منك في غرور¹.

وبعث الرسول (ﷺ) سراياه إلى قبائل العرب حول مكة ما بها من الأصنام، منبعث خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً إلى بطن نخلة، ليهدم بيت العزى «وكانت أكبر أصنام قريش» فهدمها، وبعث عمرو بن العاص في جماعة من المسلمين إلى هذيل فهدم صنمها "سواع"، ثم بعث سعد بن زيد إلى المشلل عند ساحل البحر، يهدم (مناة)/صنم كلب وخزاعة/.

وكانما عزَّ عل هوازن وثقيف أن تدور عليهم الدائرة، وكانت ثقيف تقيم بالطائف وهوازن تجاورها في جبال حول الطائف، وكانت الطائف مقر عبادة "اللات" أكبر الأصنام بعد "هبل" لقد تأكد لثقيف وهوازن أن محمداً لا بد منصرف إليهم بعد قريش، لذلك فقد قرروا أن يبادروا المسلمين بالغزو، فاستعدوا لذلك وانضمت إليهم قبائل نضر وجشهم وسعد بن بكر، وأناس من بني هلال، وجعلوا أمرهم إلى مالك بن عوف، وكان مالك هذا فتى حديث السن شديد الحماس والحمية، فأخرج مع القوم أموالهم ونساءهم ليكون ذلك أدعى إلى الحماسة والاستماتة في الذود عن الحرمات.

¹ - أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص544.

وسمع الرسول (ﷺ) بذلك، فأراد أن يفاجئ خصومه، وهكذا فقد خرج من مكة في اثني عشر ألفاً من الرجال، العشرة آلاف التي جاء بها إلى مكة وألفان من أهلها، وقد شارك أهل مكة في هذه الغزوة، وأمدوا الرسول بالمال والسلاح حيث أعاره صفوان بن أمية أربعمائة درع، وأسلفه بعض أشرف مكة من أموالهم وخرج معهم ناس من المشركين كثير، وبدا الجيش في مظهر بالغ القوة والغلب، حتى ظن المسلمون أن لن يغلبوا مع هذه الكثرة، وحتى قيل: إن نساء مكة وصبيانها، خرجوا وراء الجيش طمعاً في الغنيمة.

ولكن ما كان المسلمون يصلون حيناً في عماية الصبح حتى راعهم انقضاض القبائل عليهم من هوزان وثقيف من شعب الفردي، ففرغ المسلمون واختل نظامهم، وضافت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين، وقام الرسول (ﷺ) ينادي: ((أين أيها الناس؟... هلموا إلي.. ولم يبق حوله سوى نفر قليل منهم عمه العباس ممسكاً بعنان بغلته، ثم أبو سفيان بن الحارث وقال كلدة أو جبله، هو صفوان بن أمية، إلا بطل السحر اليوم، وحدثت نفس شيبه بن عثمان بن أبي طلحة بالانتقام من الرسول (ﷺ) لقتل أبيه في أحد، قال: فأردت برسول الله (ﷺ) لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطق ذلك، فعلمت أنه ممنوع مني))¹.

وأمر الرسول (ﷺ) عمه العباس «وكان جهوري الصوت» أن يصيح في الناس: ((يا معشر الناس أيا أصحاب السمرة²، فأجابوه: لبيك، لبيك، وسارعوا يتراکضون إلى الرسول (ﷺ)، واجتمع حوله نحو مائة من الأنصار، فاستقبلوا الأعداء بقلوب

¹ - سيرة ابن هشام، ج4، ص72.

² - هي الشجرة التي تم تحتها بيعة الرضوان.

مطمئنة، وقام العباس ينادي: بالأنصار! يا للخزرج))، فتكاثر الناس حوله، فلما أسفر الصبح، وخرج العدو من مكمته، التقوا به وجهاً لوجه، ثم اجتلد القوم واستمر القتال، وقال الرسول (ﷺ): الآن حمي الوطيس، وقد أهوى عليّ بن أبي طالب إلى صاحب راية المشركين، فوثب أحد الأنصار على الرجل، فقتله، وتمت هزيمة المشركين، وتفرقت قلوبهم، وأعلن الرسول (ﷺ) قائلاً: ﴿مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَى بَيِّنَةٍ، فَلَهُ سَلْبُهُ﴾ (متفق عليه).

وروى ابن اسحق وابن سعد بسند صحيح أن الرسول (ﷺ)، التفت فرأى أم سليم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة، فقال لها: ((أم سليم!!.. قالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك؟)). وكان معها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به)).

ومرَّ الرسول (ﷺ) بامرأة، وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس مجتمعون عليها، فقال: ((ما هذا؟)). قالوا: امرأة قتلها خالد، فقال الرسول (ﷺ) لأحد المسلمين: أدرك خالد، فقل له أن الرسول (ﷺ) ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً «أجبر أو عبد»¹.

وفر مالك بن عوف وبعض رجاله إلى الطائف، كما ذهب آخرون إلى سهل أو طس ونخلة، حيث تعقب الرسول (ﷺ) الفلول إلى الطائف، ولكن أهل الطائف دخلوا المدينة، وأغلقوا أبوابها، واعتصموا بالحصون وصمدت ثقيف لقتال المسلمين

¹ - أخرجه أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة الربيعي القزويني: سنن ابن ماجه، وأبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، ورواه الشيخان بمعناه.

خمسة عشر يوماً ترميهم بالنبال مطمئنة إلى مناعة أسوارها، ووفرة الغذاء فيها¹، حتى اضطر الرسول إلى ينصب المنجنيق²، ويرميهم به، كما سير إليهم جنده في الدبابات والضبور³، ولكن أهل الطائف ألقوا قطع الحديد المحمية عليها، فأحرقوها، واضطروا من فيها إلى الخروج منها، فلم يجد الرسول (ﷺ) بدأ من أن يهددهم بإتلاف بساتينهم، وتحريق كرومهم فعزّ على ثقيف ذلك.

¹ - ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص114.

² - سيرة ابن هشام: ج4، ص128.

³ - الضبر: أداة كالدبابة تقريباً توضع من الخشب المغطى بالحديد، فيكمن فيها المهاجمون،

يقربوا بها للحصن، سيرة ابن هشام، ج4، ص122.

الدلائل والعبر

تعتبر غزوة حنين درساً في العقيدة وقانون الأسباب والمسببات يشبهه الدرس الذي أوحى به غزوة بدر.

ومن ثم فإذا كانت موقعة بدر قد أكدت أن القلة تغلب الكثرة، إذا ما تمسكوا بالصبر والعقيدة، فإن غزوة حنين أكدت النقيض وكما نزلت آيات من كتاب الله في تقدير عبرة بدر، فقد نزلت آيات قرآنية تقرر العبر المستقاة من حنين.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿25﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ التوبة/25-26.

أجل لقد كان المسلمون في حنين أكثر عدداً منهم في أية موقعة أخرى ومع ذلك لم ينفعهم ذلك شيئاً، بسبب تلك الجماهير التي لم يتمكن الإيمان في نفوسهم والذين انضموا إلى الجيش بجسومهم وأشكالهم، بينما لاتزال الدنيا وأهواءها تتخطف أفئدة تهم، وتستولى على نفوسهم، ومن أجل ذلك أدبرت، وارتدت على أعقابها في متاهات وادي حنين، ثم امتد ظلال هذا الهلع إلى أفئدة الكثير من المؤمنين.

وإليكم ما يؤخذ من هذه الغزوة من العظات والأحكام:

1- بث العيون بين الأعداء:

وهذا عمل جائز، بل هو واجب، أن دعت إليه الحاجة، وهذا ما اعتمده الرسول (ﷺ) في هذه الغزوة، إذ أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ليتجسس، ويأتي المسلمين بالخبر عن العدو عدد أو عدة.

2- استعارة الأسلحة:

لقد ذكرنا أن الرسول (ﷺ) استعار الأسلحة من صفوان بن أمية، وكان هذا لا يزال مشركاً.

والاستعانة بالكفار تأخذ المظهرين الآتين:

أ- الاستعانة بأشخاص منهم للقتال مع المسلمين، وهذا غير جائز عند أكثر الفقهاء، وجائز عند الشافعية عند الحاجة (من أحكام الإمامة).

ب- الاستعانة بالسلح والعدة، ولا خلاف في ذلك شريطة ألا يكون على حساب كرامة المسلمين، وأن لا يؤدي إلى إدخالهم تحت سلطان غيرهم، وأنت تجد أن صفوان بن أمية كان في وضع المغلوب الضعيف لا القوي الذي يفرض شروطه¹.

3- شجاعة الرسول (ﷺ):

تبدو هذه الشجاعة النادرة المثل عندما تفرقت جموع المسلمين، وولوا الأدبار، ولم يبق إلا الرسول (ﷺ) وسط جوقة الوغى تحف به كمائن العدو، فثبت ثابتاً عجيباً

¹ - ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 2- 190، و الخطيب الشرييني: مغني

المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، 4/ 221.

امتد أثره إلى نفوس الفارين من أصحابه، حتى عادت إليهم رباطة الجأش وقوة الشكيمة¹.

4- جهاد المرأة:

فأما خروجها لمداواة الجرحى وسقي العطاش فقد ثبت ذلك، في عدة غزوات، وأما خروجها للقتال، فلن يثبت في السنة، وإن كان الإمام البخاري ذكر في كتاب الجهاد باب جعل عنوانه: باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال، وإن كانت الأحاديث التي ساقها، ليس فيها ما يدل على اشتراك النساء مع الرجال في القتال.

قال "ابن حجر": ((ولم أرى في شيء من ذلك التصريح بأنهن قاتلن))²، أما ما ذكره الفقهاء في حكم خروج المرأة للقتال، فهو أن العدو، إذا داهم بلدة من بلاد المسلمين، وجب على جميع أهلها الخروج لقتاله، بما فيهم النساء، أن أمل منهن دفاعاً وبلاءً³.

وعلى كل فإن خروج المرأة إلى الجهاد مشروط بأن تكون في حالة تامة من السير والصيانة، وأن يكون خروجها لحاجة حقيقية، فأما إذا لم تكن ثم حاجة حقيقية، وكان ذلك يعرضها للوقوع في المحرمات، فخروجها محرم⁴.

5- تحريم قتل النساء والأطفال والإطراء والعبيد:

وهذا ما اتضح من حديث الرسول (ﷺ) لما رأى المرأة التي قتلها خالد بن الوليد.

¹ - تفسير ابن كثير، 2- 345.

² - ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 6- 51.

³ - الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: 4/ 219.

⁴ - د. البوطي: فقه السيرة النبوية، ص 347.

ويستثنى من ذلك إذا اشترك هؤلاء في القتال ضد المسلمين، فإنهم يقتلون مقبلين، ويعرض عنهم مديرين¹.

كما يستثنى من ذلك إذ تترس الكفار بصبيانهم ونسائهم، ولم يمكن رد غائلتهم إلا بقتلهم².

6- سلب القتيل:

قلنا أن الرسول (ﷺ) أعلن في هذه الغزوة أن من قتل قتيلاً، فله سلبه، وبالطبع فهذا يرسخ الحافز الفردي عند المقاتل ولقد شجر الخلاف حول ما إذا كان هذا الحكم من أحكام الإمامة أم الفتوى.

وقد ذهب الشافعي على أن هذا الحكم قائم على أساس التبليغ والفتوى، ولعل في هذا أن يأخذ سلب من قتل على يده، ولا حاجة في ذلك إلى إذن الإمام.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه حكم قائم على الإمامة، وإن لم يأذن الإمام أضيفت الأسلاب إلى الغنائم، وسرى عليها حكمها³.

¹ - المرجع السابق، ص 347.

² - أبي الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، و الخطيب الشربيني: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، 4/223.

³ - المرجع السابق، ص 139، وأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرايفي: الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ص 28.

7- الحقد على الكافرين:

فقد قال بعض الصحابة للرسول (ﷺ) عند منصرفهم من حصار الطائف: ﴿أَدْعُ عَلَى ثَقِيفٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ﴾.

وهذا يعني أن الجهاد يدخل في ولاية الأمر بالمعروف ولا يعني الحقد على الناس، وبالتالي فإن الدعوة من المسلمين يجب أن يتضمن هداية الناس وإصلاحهم.

8- الغنائم:

ذكرنا أن الرسول (ﷺ) قال لوفد هوازن حينما جاؤوه مسلمين: ﴿لَقَدْ أَتَيْتَ بِكُمْ أَمَلًا إِسْلَامَكُمْ﴾، وهذا يدل أن الإمام يعيد الغنائم إذا جاءه أصحابها مسلمين إذا لم يكن قد قسمها، كما يعني ذلك أنه ليس للحاكم أن يستعمل شيئاً من صلاحياته في حمل الناس من ذلك، حتى ولو كان رسولاً، وهذا يعزز فكرة الحق ووضوحها في الإسلام وقيامها على أرض صلبة في مواجهة الكافة بما في ذلك السلطان.

9- المؤلفة قلوبهم:

للمؤلفة قلوبهم سهم من أسهم الزكاة، أن صرف ذلك فيخضع علامات دقيقة تدخل في سلطة الإمام يقررها على ضوء ظروف كل قضية. وقد اتضح لنا كيف أن الرسول (ﷺ) اختص أهل مكة الذين أسلموا عام الفتح بمزيد من الغنائم دون غيرهم، ولم يراع في تلك القسمة قاعدة المساواة. وقد فهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الروح التي تقوم عليها سياسة المؤلفة قلوبهم، فأمسك عن إعطائهم حاملاً قراره على حي متينة هي قوة المسلمين، وعدم حاجتهم إلى مساندة هؤلاء.

خاتمة

محمد المثل الأعلى للكمال الإنساني¹

تَابَعَتْ على كوكبنا هذا فصول الخلاص البشري على يد رسل الله وأنبيائه، جيلاً بعد جيل، وفي كل مرة كان صوت المساء يقرع إذاً الأرض مجلجلاً مبشراً هادياً ومنذراً محذراً من غواية الشيطان مبيناً سواء السبيل راسماً طريق الحق القويم، والنهج السديد السليم.

ومما لاشك فيه أن مهمة رسل الله وأنبيائه المصطفين الأبرار، لم تقتصر على مجرد التبليغ والإعلام، بقدر ما كانت تجهد لصياغة مثل حية واقعية لمجاهدة النفس والشيطان، ونزعة الهبوط في الإنسان إلى مهاوي الدرك الحيواني.

من أجل ذلك، فقد شاءت كلمة الله وإرادته أن يحكم رسله بالطبيعة البشرية لا الملائكية، وإنما في إطار ضوابط العقل والضمير والإرادة المستتيرة دون إلغاء الطبيعة البشرية وما حيك عليه وركبت به من غرائز وانفعالات وميول مادية، كل ذلك نشداناً للكمال الجسماني إلى جانب الكمال الخلفي، وتلك هي حكمة الله البالغة، التي بشر بها القرآن، واعتبرها مناط الفضائل والخلق وتتويجها: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة/269، وإذا كان المثل الأعلى هو جماع

¹ استعنت في بعض منطلقات هذا البحث، بالمصنف الموسوم بعنوان: المثل الأعلى في الأنبياء،

لمؤلفه كمال الدين خوجه، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1989.

المحاسن والشيم والكمالات التي تتوزع مختلف الأفراد، مجردة من شوائب النقص والأدران، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس البشري، إذا كان الأمر كذلك، فالرسل والأنبياء الكرام، هم وهم وحدهم المثل العليا للجنس البشري، وهم النماذج الحية الكاملة في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد/25، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء/165.

لقد كان كل نبي مثلاً أعلى، وكان قدوة فذة لمن أرسل إليهم، وكان من الممكن أن يكون قدوة لمن جاء بعده من البشر، لو عرف هؤلاء تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأتيحت لهم كافة الفرص الكافية لإظهار فضائلهم، كما أن البعد الزمني ذهب بآثار الكثير منهم، بحيث لم يبق لأحد منهم صورة كاملة عن سجل حياته، أو شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها أما نبي الهدى والرحمة والمحبة محمد الأمين، فهذه الشخصية النبوية التاريخية الوحيدة التي منَّ الله على الإنسانية بوضوح معالمها وسماتها، ودقائق تفصيلاتها، حيث أتيج لمعاصري هذه الشخصية الفذة أن يسجلوا كافة أقوالها وأفعالها، وألا يتركوا فيها صغيرة أو كبيرة إلا جمعوها ورعوها وأحصوها ومحصوها ووزنوها ...

فمحمد الأمين هو النبي الوحيد الذي يمكن أن يسمى شخصية نبوية تاريخية، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الرفيق الأعلى إلى جواره، وسجل حياته كامل المعالم غير منقوصة، وسنته القولية والفعلية يساند بعضها بعضاً ويعضد بعضها بعضاً، وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قدر له وعي حياته أن يجد له جواباً شافياً ودقيقاً في

حياة رسولنا الكريم (ﷺ)، هذه هي حكمة الله البالغة أن يكون محمداً خاتم الأنبياء وأن تكون رسالته صرحاً مجرداً لا يأتيه الباطل من بين يديه أو خلفه .

تفصيلاً عن ذلك، فمحمد الأمين (ﷺ) هو النبي الوحيد الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي بلغها للناس، ولن تجد في القرآن حكماً أو أمراً لم يقم به هذا الرسول الكريم (ﷺ).

لقد أتيت لهذا الرسول العظيم (ﷺ) أن يحيا حياة كاملة لا حدود لها، فقد كان طفلاً وشاباً وشيخاً ووالداً وأخاً وزوجاً، وجاراً ورفيقاً وصاحباً وجندياً وقائداً ومهاجراً ومضطهداً ومطارداً وتاجراً وقاضياً وحكماً وصاحب سلطان، ورجلاً في السراء والضراء، كان في كل هذا وذاك، في كل هذه المظاهر على اختلافها في الشكل والمضمون والطبيعة والجوهر، هو هو، مثال الإنسان الكامل، ثابت على العهد، سائر على المحجة البيضاء، لم يتغير طبعه أو خلقه ولا اختلفت مساريه، ومعاملته للناس، ولا تغير أسلوب معيشته، وبالتالي ماذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعمو والشهامة والمروءة، فإن الشدة أظهرت فيه الصبر على النائبات، والثبات عند الضيق والملمات والثقة في خالق الأرض والسموات.

من هنا فإن جميع صور وألوان حياة هذا الرسول (ﷺ) لم تكن مواقف مبعثرة عارضة لا رابط بينها، وإن هي مظاهر متساندة لحقيقة واحدة، أنها باختصار النبوة وارهاسها وتجلياتها وتآلقها، ومن هنا أيضاً تبدو أهمية دراسة هذه السيرة والعض عليها بالنواجز، ثم الحفر والتنقيب والتقصي والتمحيص لاستجلاء كل صغيرة وكبيرة في حياة رسولنا الكريم (ﷺ)، كل ذلك كأساس لحرث هذا الدين واستشراف آفاقه وسير أغواره، لاسيما أن هذه السيرة إنما هي قرآن معاش

بالحرفية ومطبق بالدقة ومجسد بالتكامل والكمال، وهذا هو التقويم الذي قدمته أم المؤمنين عائشة ابنة الصديق لحياة زوجها الرسول (ﷺ).

وهكذا تبدو «في الوقت نفسه» صعوبة سير هذه السيرة التي كان وكدها تشوف الكمال الإنساني، ومعانقه الأبديات والمطلقات، بحيث يبدو التعامل مع هذه السيرة تعامل مع اللانهاية اللا حدود، اللا زمان، وهو في الوقت نفسه تعامل يقتضي بالأمانة والدقة العلميتين الارتقاء وبالوسيلة إلى مستوى هذا الموضوع، وهو أمر لا يمكن أن يتوفر إلا للأنبياء أنفسهم الذين يستطيعون الإحاطة الكاملة بمضمون هذا الكمال الساحق.

وأهمية دراسة حياة الرسول (ﷺ) وأفعاله وسيرته لها أهميتها الخاصة بالنسبة لأمتنا العربية، فهذا الرسول العظيم نبراس متألق في تراثنا العربي، وساهم مساهمة فعالة في بلورة نظرتنا العامة للعالم، وحديثه وأقواله وأفعاله تشكل جانباً هاماً من مجموعة معارفنا الموسوعية، وهي جزء من منطقتنا الذي يتخذ شكلاً شعبياً، والرسول (ﷺ) «بصفته عربياً» موضع اعتزازنا الروحي وموقع حماسنا، وهو أداة حياتنا اليومية، ومنجنا الخلقى.

واستطراداً ليس معقد حماسنا، وموضع اعتزازنا لو ان يتصدر الرسول الصدارة الأولى في قائمة تصنيف علمي قام به أحد الرجال الأكاديميين الذين لا ينتمون إلى أمتنا العربية.

وعلى هذا، فإذا كان قدرنا أن نتصدى لدراسة هذه الشخصية الإنسانية، فهو قدر محكوم يضعف الوسيلة والأداة والنطاق والحدود والواقعية التي لا تتعدى الوقوف على شاطئ هذا البحر الطامي العميق الأغوار، بل وأبعد من ذلك، فلن يتسنى لأي

باحث معها أدنى من بلاغة القلم والحكمة والدقة العلمية والإحاطة الكاملة بهذه الأغوار، بل الأمر رهين بفعالية ورشة علمية متنوعة كاملة تضم عالم النفس والاجتماع والسياسة ورجل الحقوق والمتخصص في علم الجمال والأدب، وغير ذلك من العلوم.

وتوضيح ذلك أن الباحث العلمي قد يواجه شخصية عسكرية أو حكيم، أو رجل دولة أو مصلح اجتماعي، ولكن كم هي الصعوبة بمكان إذا كانت مواجهته لهذه التمم جميعاً وقد انسكبت في منظومة واحدة.

لقد كان وكدنا القبض على بعض المفاصل في هذه السيرة، وهو أمر لا يغني عن دراسة كاملة الجوانب لهذه الشخصية الإنسانية، إذ أن كل حدث مهما دق يعتبر فعالية وآلية ضخمة في إنتاج المثالات والعبر والدلالات، ومادة ووثيقة حقوقية ونفسية وجمالية وخلقية وغير ذلك وما يوضحه المثال لا يوضحه المقال.

الصاحبان في غار حراء في أقصى ظروف مغامرة للروح الإنسانية، ومع ذلك يسأل الرسول (ﷺ) صاحبه أبا بكر عن هذا الركب الذي أعده له، ثم يتكلم عن قمته، وإنه سيدفع له ذلك عن يساره، أجل أليس يعني هذا الخير البسيط أهمية الباهض الحقوقي في حياة الشعوب ودوره وأهميته، الأمر الذي حدا الرسول (ﷺ) ألا يغفله في أظلم الحالات؟؟.

في ختام الكتاب

كلمة المؤلف الراحل الدكتور برهان زريق

فعدناً يا سيدي يا رسول الله لقد بهرتني أنوارك الساطعة، ولم أقوى على استشفاف إلا الجزء اليسير من هذه الأنوار، وكل ما فعلته أنني اغترفت غرفة من هذا اليم المتلاطم الأمواج ووضعتها أمام المجهر، ثم اجتهدت الرأي يحدوني في ذلك منهجك التربوي الخالد القائل: ﴿إِذَا حُكِّمَ الْحَاكِمُ فَأَجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانُ وَإِذَا حُكِّمَ فَأَجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ..﴾.

سيدي يا رسول الله... لي كل الأمل «وبكل تواضع» أن أكون قد أصبت في اجتهادي ذكراً لله ورجاء في اليوم الآخر.

مصدقاً لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب/21.



السيرة الذاتية

الدكتور برهان خليل زريق

ولد في محافظة اللاذقية - قضاء الحفة- قرية الجنكيل (القادسية حالياً)، 1933.

المؤهلات العلمية:

- الثانوية العامة الفرع العلمي - ثانوية البنين (جول جمال) اللاذقية عام 1951.
- إجازة في الآداب - قسم اللغة العربية وعلومها - جامعة دمشق عام 1958.
- إجازة في الحقوق - جامعة حلب عام 1965.
- ماجستير في القانون الإداري من كلية الحقوق جامعة القاهرة عام 1970.
- دكتوراه في الحقوق - جامعة المنصورة عام 1984.

العمل المهني:

- التدريس في ثانويات محافظة اللاذقية عامي 1952-1953.
- العمل في المديرية العامة للتبغ والتبناك حتى عام 1975.
- العمل في مهنة المحاماة من بداية عام 1976 حتى آذار 2007.

النشاط المجتمعي:

- عضو في الاتحاد الاشتراكي فرع سوريا حتى عام 1975.
- عضو نقابة المحامين حتى عام 2007.
- عضو المؤتمر القومي العربي حتى وفاته 2015.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات أبرزها ندوة الوقف التي أقامها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 2002.
- ✓ تم الاستعانة بخدمات محرك البحث Google لتدقيق وتصويب أسماء المراجع والمؤلفين، وبعض محتويات هذا المؤلف بسبب رحيل الكاتب قبل النشر، فالشكر كل الشكر للقائمين على هذا المحرك للخدمات الجليلة التي تقدم للإنسانية.

محتوى الكتاب

5.....	تقديم
9.....	سر اختيار الجزيرة العربية للبعثة النبوية
23.....	الرسول في قومه
29.....	بناء الكعبة
39.....	انقطاع الوحي
59.....	الجهر بالدعوة
65.....	أسباب معادة قريش للرسول
69.....	الاضطهاد والتعذيب
75.....	المفاوضات مع قريش
81.....	حيرة قريش
85.....	الحصار الاقتصادي
89.....	الهجرة إلى الحبشة
97.....	عام الحزن

103	مواقف التحدي
115	معجزة الإسراء والمعراج
119	عرض الدعوة على القبائل
125	المفاوضات مع أهل يثرب
129	بيعة العقبة الأولى
133	بيعة العقبة الثانية
137	الأذن بالهجرة إلى المدينة
143	هجرة رسول إلى المدينة
147	قدوم قباء
157	أول صلاة جمعة في الإسلام
159	بناء المسجد
167	نظام المؤاخاة
173	حماية العقيدة
179	تنظيم الرسول للعلاقات بين العناصر المختلفة التي كانت تسكن المدينة
189	أجهزة الدولة
197	مرحلة الحرب الدفاعية

205	السرايا السبع الأولى
209	غزوة بدر الكبرى
223	أهمية التضرع إلى الله
227	صور حية للتضحية والفاء
241	ولاية غير المسلمين
243	غزوة أحد
273	غزوة بني النضير
271	غزوة ذات الرقاع
285	غزوة بني المصطلق أو المريسي
293	غزوة الخندق
309	غزوة بني قريظة
333	غزوة مؤتة
341	فتح مكة
355	غزوتنا حنين والطائف
365	خاتمة